الوسيط

في المذاهب والمصطلحات الإسلامية

تأليف

د . محمد عمارة



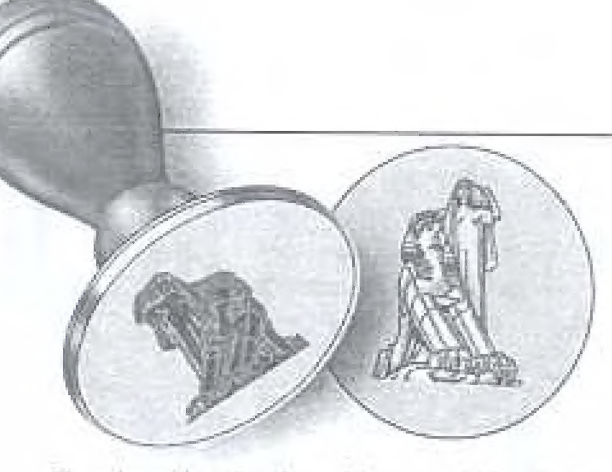
الوسيط

في المذاهب والمصطلحات الإسلامية

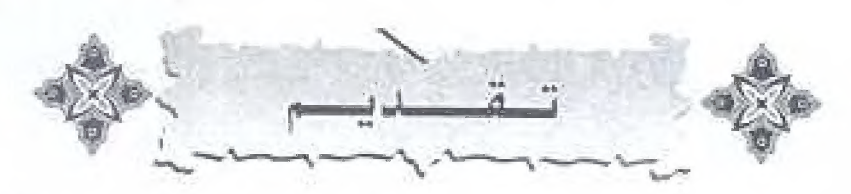
تأليف

د. محمد عمارة





اسم الكتاب	الوسيط فى المذاهب والمصطلحات الإسلامية
اسم المترجم	د . محمد عمارة
اشراف عام	داليا محمد ابراهيم
تاريخ النشر	يناير ٢٠٠٠
رقم الإيداع	١٥٧٧٠ / ١٩٩٩م .
الترقيم الدولى	I . S . B . N 977 - 14 - 1148 - 9
الناشر	نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع .
المركز الرئيسى	٨٠ المنطقة الصناعية الرابعة . مدينة السادس من أكتوبر . ت: ٣٣٠٢٨٧ / ٠١١ . (١٠ خطوط) فاكس: ٠١١/٣٣٠٢٩٦ .
مركز التوزيع	١٨ ش كامل صدقى - الفجالة - القاهرة ت: ٥٩٠٩٨٢٧ - ٠٢/٥٩٠٨٨٩٥ . فاكس: ٠٢/٥٩٠٣٣٩٥ . ص.ب: ٩٦ الفجالة .
إدارة النشر	٢١ ش أحمد عرابى - المهندسين - الجيزة ت: ٣٤٦٦٤٣٤ - ٠٢/٣٤٧٢٨٦٤ . فاكس: ٠٢/٣٤٦٢٥٧٦ . ص.ب: ٢٠ إمبابة .



تقديم

على مر تاريخ الإنسانية، كان الاعتراف «بالآخر»، والتعايش معه، والقبول به، والتسامح وإياه، واحدة من مشكلات الحياة فى ذلك التاريخ . .

ووحده الإسلام هو الذى انتقل وارتفع بهذه القضية من نطاق «التسامح» كخُلُق إنسانى حميد، وكحق من حقوق الإنسان، إلى حيث جعلها سنة من سنن الله التى لا تبديل لها ولا تحويل، وذلك عندما جعل التعددية والتنوع والاختلاف قانونا عاما فى كل عوالم المخلوقات . . فالواحدية فقط هى للذات الإلهية، وكل من وما عدا الذات الإلهية يقوم على التنوع والتعددية والاختلاف . .

وإذا كان الإسلام - لذلك - قد تفرد بالاعتراف «بالآخر الدينى»، انطلاقا من أن الاختلاف فى الشرائع هو سنة من سنن الله، سبحانه وتعالى، فى الاجتماع الدينى . . والاعتراف «بالآخر القومى»، انطلاقا من أن الاختلاف فى الألسنة واللغات هو آية من آيات الله . . والاعتراف «بالآخر الحضارى والثقافى»، انطلاقا من أن الاختلاف فى المناهج هو سنة إلهية نافذة وعامة فى الاجتماع الإنسانى . .

إذا كان الإسلام قد تفرد بهذا الاعتراف «بالآخر»، كل ألوان الآخر . . فإنه لم يقف عند حدود «الاعتراف» وإنما جعل الحفاظ على هذا التنوع، والتعايش مع هذا الاختلاف جزءا من الاعتقاد الإسلامى، لا يكتمل إيمان المؤمن إلا إذا حافظ عليه ورعاه . .

وهذه العظمة التى تفرد بها «الفكر العقدى» فى الإسلام، قد تفرد بتجسيدها وتطبيقها تاريخ الأمة الإسلامية، فعاشت فى دارها وشاركت فى حضارتها مختلف الملل الدينية، والأنواع الجنسية، والتمايزات القومية، كلبنات فى أمة واحدة، تتنوع شرائعها وأجناسها وقومياتها فى إطار أمة الإسلام ودار الإسلام.. وذلك وفوق السنة التى سنها رسول الله ﷺ : «لهم مالنا وعليهم ما علينا»... وهى السنة التى تجسدت فى دستور دولة المدينة.. على عهد النبوة - بالنص على أن غير المسلمين هم مع المسلمين «أمة واحدة».. والتى رعتها وطبقتها الأمة والحضارة عبر تاريخ الإسلام..

وكما شملت هذه الرؤية - فى التعددية - «الآخر» - الدينى.. والقومى.. والحضارى.. والثقافى - شملت أيضا التنوع والاختلاف والتعددية فى إطار «الذات»، فوسعت سماحة الإسلام التمايزات الفكرية والاختلافات المذهبية فى إطار ثوابت وعقائد وأصول جوامع الإسلام..

فالإسلام قد أقام جوامع خمسة للذين ارتضوه لهم دينا. وفتح الباب أمام التنوع والتمايز والاختلاف فى إطار هذه الجوامع الخمسة..

● فالعقيدة واحدة.. وفى إطار ثوابتها هناك مساحات للتنوع فى كثير من التصورات، التى تسمح بها وتحتملها قوانين التأويل..

● والشريعة واحدة.. وفى إطار مبادئها وقواعدها تتنوع مذاهب الفقه، الذى هو علم الفروع..

● والحضارة واحدة.. وفى إطار معالمها تتنوع العادات والتقاليد والأعراف..

● والأمة واحدة . . وفى إطار وحدتها تتنوع الشعوب والقبائل والأجناس فى أمة الإسلام . .

● والدار واحدة . . وفى إطار وحدة دار الإسلام تتنوع الأوطان والأقاليم والأقطار والولايات . .

ولذلك ، فكما عاش «الآخر الدينى» فى أمة الإسلام وداره وحضارته . . عاشت وازدهرت «المذاهب» فى إطار ملة الإسلام . . فكانت «الفرق الإسلامية» تنوعا فى التصورات بإطار ثوابت عقيدة الإسلام . . وتمايزا فى المناهج السياسية ، بإطار مبادئ وقواعد السياسة الشرعية ، واجتهادات متعددة فى تحقيق المقاصد الشرعية الواحدة . . كما كانت «المذاهب الفقهية» تنوعا وتمايزا للاجتهادات ، اقتضتها اختلافات الرؤى ، والتنوع فى المصالح ، والاختلاف الذى تفرضه مقتضيات العادات والتقاليد والأعراف والزمان والمكان . .

بل إن عظمة الإسلام تبلغ القمة عندما تفسح نطاق «الأمة الواحدة» حتى «للبغاة» الذين يلجأون إلى القتال فى حل تناقضاتهم وخلافاتهم مع الآخرين من أبناء أمتهم . . فالاختلاف ، الذى يصل بعض أطرافه إلى «بغى القتال» ، لا يخرج هؤلاء «البغاة» من إطار الأمة والإيمان . . ﴿وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِن فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ

وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٩) إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (١٠)﴾ [(١)] . .

فإذا كان القتال بين فرقاء الاختلاف فى الأمة الإسلامية- وهو مكروه مرذول - لا يخرج أيا من أطرافه عن الملة والأمة . . فمن باب أولى - دون جدال - الاختلاف فى الفكر والرأى والاجتهاد بين أبناء أمة الإسلام . .

ولهذه الحقيقة من حقائق سماحة وتسامح الإسلام ، كان تصور الإسلام للعالم . . وللأمة . .

● فالعالم «منتدى» أمم وملل وقوميات وثقافات وحضارات . . تشترك فيما يجمعها وتجتمع عليه . . وتتنوع وتتمايز فى الخصوصيات . .

● والأمة الإسلامية ، صورة من هذا العالم . . ففى عالم هذه الأمة اشتراك واتحاد فى الأمة وفى دار الإسلام . . ثم هناك تنوع فى الشعوب والقبائل واللغات والقوميات والملل والشرائع والأقاليم والأقطار والعادات والتقاليد والأعراف . . وأيضا فى المذاهب والفلسفات والاجتهادات . .

ولذلك ، تعايش المسلمون مع «الآخر» الدينى والمذهبى . . وتعايشوا - أيضا - مع التنوع المذهبى فى إطار وحدة «الذات الإسلامية» . . ومثل كل ذلك مصادر للغنى الفكرى والثراء الثقافى فى الاجتهادات والإبداعات . .

* * *

---

(١) الحجرات : ٩ ، ١٠ .

ولأن ضغوط الهيمنة الغربية على ذاتيتنا الثقافية الإسلامية تدفع صدور الكثيرين منا إلى الضيق «بالآخر الخارجى» . . ولأن اختلاط الأوراق بين ما هو «غزو واختراق» وبين ما هو «تنوع فى إطار الهوية والخصوصية» ، قد دفع ويدفع الكثيرين منا إلى حسبان «بعض الذات» «غزوا واختراقا» ، اشتدت وتشتد الحاجة إلى مطالعة صفحات كتاب حضارة الإسلام فى التنوع والاختلاف . .

وإذا كنتُ قد أوليتُ هذه القضية الكثير من الاهتمام ، فقدمت فيها - منذ سنوات طوال - العديد من الكتب والفصول[1] . . فإننى - بتوفيق من الله - أقدم اليوم للباحثين والقراء هذا الكتاب ، الذى يقدم صفحات من فكر وتاريخ المذاهب فى حضارة الإسلام - منذ القرن الهجرى الأول . . وحتى العصر الذى نعيش فيه - . .

كما أقدم فى القسم الثانى منه دراسات عن عدد من المصطلحات ، التى يسهم ضبط مفاهيمها ومضامينها فى تمييز الخبيث من الطيب فى عالم الأفكار . .

والله نسأل أن ينفع به . . إنه سبحانه خير مسئول وأكرم مجيب .

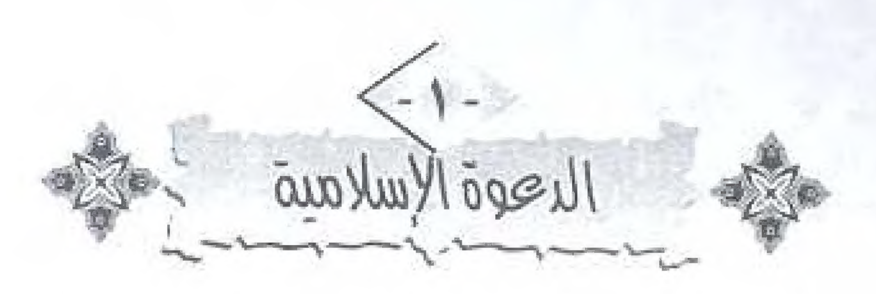
دكتور

محمد عمارة

---

(١) انظر على سبيل الخصوص كتبنا [تيارات الفكر الإسلامى] طبعة دار الشروق سنة ١٩٩٨ م و [الصحوة الإسلامية والتحدى الحضارى] طبعة دار الشروق سنة ١٩٩٨م . و [معركة المصطلحات بين الغرب والإسلام] طبعة نهضة مصر سنة ١٩٩٧ م و [الاستقلال الحضارى] طبعة الهيئة العامة للكتاب سنة ١٩٩٣م .

دعوات .. ومذاهب



- ١ -
الدعوة الإسلامية

الدعوة - لغة - هى : المرة الواحدة من الدعاء . . والدعاء - لغة - هو : النداء . .

والدعوة - فى الاصطلاح الإسلامى - هى : الرسالة الإسلامية . . أى دعوة الإسلام إلى التوحيد . . والرسول ، ﷺ هو : «داعى الله» . . أى الداعى إلى رسالة الإسلام . .

وفى القرآن الكريم : ﴿ لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ ﴾ [الرعد : ١٤] . .

وفى الحديث : «فإن دعوتهم تحيط من ورائهم . .» . .

وفى الفقه الإسلامى . . وخاصة فقه العلاقات الدولية ، والمعاملات مع غير المسلمين ، هناك تمييز بين من بلغتهم «الدعوة» ومن لم تبلغهم «الدعوة» . . أى رسالة الإسلام . .

* * *

ولقد بدأت دعوة الإسلام ورسالته ، فى طورها الخاتم بنزول أمين الوحى جبريل ، عليه السلام ، على محمد ﷺ ، فى ليلة من العشر الأواخر من شهر رمضان ، وهو معتكف يتحنث ويتأمل ويتعبد لله - فى غار حراء - بمكة - وفق ما تحصل لديه من الحنيفية - بقايا ملة إبراهيم ، عليه السلام . . فكان محمد هو «أمة الدعوة» ، التى توجه إليها جبريل بالدعوة . . فلما استجاب لنداء ربه : ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ① خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ②

اقرأ وربك الأكرم (٣) الذي علم بالقلم (٤) علم الإنسان ما لم يعلم (٥) ﴾ [العلق: ١ - ٥] .. أصبح «داعي الله» ونبيه ورسوله إلى العالمين، الذين غدوا - على مر الزمن، وتوالى الأجيال - هم «أمة الدعوة» - الذين تتوجه إليهم دعوة الإسلام ورسالته - والذين تتكون منهم «أمة الإجابة» - التي استجابت فآمنت بالدعوة الإسلامية..

ولقد بدأت دعوة الإسلام سرا.. وكانت خديجة بنت خويلد [٦٨ - ٣ق. هـ ٥٥٦ - ٦٢٠ م] زوج رسول الله، ﷺ، ورضى عنها.. أول من آمن بدعوة الإسلام.. ثم استجاب لهذه الدعوة: زيد بن حارثة.. وعلى بن أبى طالب.. وأبو بكر الصديق.. وسعد بن أبى وقاص.. والزبير بن العوام.. وطلحة بن عبيد الله.. وعبد الرحمن بن عوف.. وعثمان بن عفان.. وسعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل.. وأبو عبيدة بن الجراح.. وكوكبة من السابقين إلى دعوة الإسلام..

وعندما نزل الوحى على الرسول، ﷺ، بقول الله، سبحانه وتعالى: ﴿ وأنذر عشيرتك الأقربين ﴾ [الشعراء: ٢١٤].. دعا الرسول عشيرته الأقربين.. لكنهم قد قابلوا دعوته بالرفض والاستنكار والصدود..

وفى السنة الرابعة من البعثة - سنة ٦١٤م - اتخذ الرسول، ﷺ لدعوته السرية ناديا يلتقى فيه بمن استجاب للدعوة، ومن هو مدعو إليها، يعلمهم فيه القرآن وعقائد الدعوة وشعائر الدين.. فكانت دار الأرقم بن أبى الأرقم، بمكة، ناديا لدعوة الإسلام..

وفى السنة التالية - الخامسة من البعثة - سنة ٦١٥ م- . .
وثمرة للاضطهاد الذى أوقعه رؤس الشرك على من آمن -
والمستضعفين منهم خاصة - أطلت الدعوة- للمرة الأولى- خارج
شبه الجزيرة العربية ، وذلك بواسطة أحد عشر رجلا وأربع نسوة
كانوا هم أول من هاجر إلى بلاد الحبشة من المسلمين . . فعبرت
الدعوة البحر الأحمر إلى البر الأفريقى . .

وكان إسلام عمر بن الخطاب - فى السنة السابعة من البعثة -
سنة٦١٧م - نقطة تحول فى أسلوب الدعوة . . فبه أعز الله
الإسلام ، فجهر المسلمون بها ، وتركوا طور السرية فى دار الأرقم
ابن أبى الأرقم . .

وكسراً لطوق الحصار الذى فرضه الشرك المكى على الدعوة
الإسلامية ، توجه الرسول ، ﷺ ، لفتح منافذ متعددة أمامها . .
فكان اهتباله مواسم الحج إلى المسجد الحرام لعرض دعوة الإسلام
على وفود الحجيج من غير قريش . . ثم كانت رحلته الشهيرة إلى
الطائف - عقب «عام الحزن» - الذى فقدت فيه الدعوة نصرة عمه
أبى طالب - بموته - . . وهى الرحلة التى انتهت بالصدود ! . .

لكن أهم الأبواب التى فتحها الله ، سبحانه وتعالى ، فى جدار
حصار الشرك المكي للدعوة ، كان ذلك الباب الذى تفذت منه إلى
حجاج مكة القادمين من يثرب - من قبيلتى الأوس والخزرج - . .
فعلى مدار سنوات ثلاث - هى السنوات الثلاث التى سبقت
هجرة الرسول ، ﷺ ، من مكة إلى المدينة - وخلال مواسم
حجها ، تكرر لقاء الرسول بنفر من حجاج يثرب . . فدعاهم إلى
الإسلام ، واستجاب لدعوته بعضهم ، فبايعوه على الإيمان بالدين

الجديد . . وهذه هى البيعات التى اشتهرت فى تاريخ الدعوة بـ «بيعة العقبة» - الأولى . . والثانية . . والثالثة- . . ولقد تم التعاقد وتمت البيعة فى العامين الأولين على الإيمان بالدين الجديد . . وزادت بنوده فى البيعة الثالثة - بالعام الثالث - سنة ٦٢١ - على تأسيس دولة الإسلام بيثرب ، عندما يهاجر إليها رسول الله ، ﷺ . .

وكما تبلورت ، فى مجرى الدعوة الإسلامية ، «هيئة المهاجرين الأولين» ، التى ضمت قادة الرأى فى بطون قريش الذين سبقوا إلى الإسلام . . كذلك تبلورت ، فى بيعة العقبة الثالثة ، «هيئة النقباء الاثنى عشر» ، الذين اختارهم من حضر هذه البيعة ، ليعقدوا مع الرسول ، ﷺ ، عقد تأسيس الدولة الإسلامية الأولى ! . .

ومن هذا الباب الذى فتحه الله للدعوة فى جدار حصار الشرك ، دخل الإسلام إلى يثرب . .

ودخل إليها - مع من آمن من أهلها - الداعية مصعب بن عمير ، الذى اتخذ من دار أسعد بن زرارة قاعدة وناديا ومركزا للدعوة . . ثم اتخذ لها ناديا ثانيا فى دار بنى ظفر . .

وعندما هاجر رسول الله ، ﷺ ، من مكة إلى المدينة . . وقامت «للدعوة» «دولة» ، بدأت هذه الدعوة - فى حياتها - طورا جديدا ، عندما انفتحت أمامها آفاق الانتشار ، وتعددت فى حركتها سبل البلاغ . . بلاغ الدعوة إلى العالمين . .

لقد كانت الدعوة عربية اللسان . . عربية المرتكز والمنطلق . . عالمية التوجه . . إلهية المقاصد والغايات . . ﴿ وكذلك أوحينا إليك قرآنا عربيا لتنذر أم القرى ومن حولها ﴾ [الشورى : ٧] ﴿ وما أرسلناك

إلا رحمة للعالمين (١٠٧)﴾ [الأنبياء: ١٠٧] ﴿تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا﴾ [الفرقان: ١] ﴿وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾ [سبأ: ٢٨] ﴿هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون﴾ [الصف: ٩] وكذلك الحال - حال العلاقة بين المحلية والعالمية - عند الإشارة لكتاب الدعوة: القرآن الكريم: ﴿وإنه لذكر لك ولقومك وسوف تسألون﴾ [الزخرف: ٤٤] ﴿إن هو إلا ذكر للعالمين (٨٧) ولتعلمن نبأه بعد حين﴾ [ص: ٨٧، ٨٨]

هذا عن المنطلقات العربية.. والآفاق الإنسانية للدعوة الإسلامية..

وإذا كان قيام «الدولة» الإسلامية قد استحدث في حياة الجماعة الإسلامية ومجتمع أمة الدعوة جديدا، في التنظيمات.. والقوانين.. والمؤسسات.. ووسائل إقامة «الدولة» وحمايتها.. فإن سبل «الدعوة»، التي تنفي الإكراه، وتعتمد الحكمة والموعظة الحسنة، ظلت كما هي دون تغيير.. فبالحرب تقوم «الدولة» وتتأمن حدودها، وتمتد.. لكن العنف لا يقيم التصديق القلبي، البالغ مرتبة اليقين - أي الإيمان بالدين!..

ولذلك، اتفقت أساليب الدعوة الإسلامية - في طورها المكي وطورها المدني - ثم عبر تاريخها كله - في هذا المقام..

ففي العهد المكي - عهد الاستضعاف - تحدد الآيات القرآنية

«الحكمة» و «الموعظة الحسنة» و «الجدال بالتى هى أحسن» سبلا للدعوة ﴿ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ [النحل : ١٢٥] ﴿ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِن بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ (١٤) فَلِذَٰلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنتُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِن كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴾ [الشورى : ١٤ - ١٥]

وفى العهد المدنى - عهد الدولة التى تجرد السيف لرد العدوان ظلت الدعوة على عهدها الأول فى سبيل تحصيل الإيمان . . ﴿ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوا وَّإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴾ [آل عمران : ٢٠] ﴿ لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنَازِعُنَّكَ فِي الْأَمْرِ وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ (٦٧) وَإِن جَادَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [الحج : ٦٧ ، ٦٨] ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ﴾ [التوبة : ٦] ﴿ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٠٣) وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [آل عمران : ١٠٠ - ١٠٣]

لكن «الدولة» ، لأنها «إسلامية» . . كانت «دولة» «الدعوة» . . فأصبح من «عمالاتها» و «ولاياتها» و «وظائفها» العمالات والوظائف التي ينهض أصحابها بأمر الدعوة إلى الإسلام . . من تعليم للقرآن . . ففي المدينة كانت هناك «دار القراء» - والقراء- في ذلك العهد - كانوا هم حفظة القرآن وعلماؤه- . . ومن الذين اشتغلوا بتعليم القرآن : عبادة بن الصامت . . ومصعب بن عمير . . وعبدالله ابن أم مكتوم . . ومعاذ بن جبل . . وعمرو بن حزم بن زيد الخزرجي - في نجران - . . وبلحارث بن كعب - في نجران أيضا- .

وكذلك غدت «للكتابة» و «الفقه» و «الإفتاء» و «إمامة الصلاة» و «الأذان» عمالات وولايات ، ضمن ولايات دولة الإسلام . .

أما كتب رسول الله ، ﷺ ، ورسائله ، ومعاهداته وعهوده ، التي حملت في ثناياها الدعوة إلى الإسلام . . والتي بعث بها إلى الملوك والولاة ورؤساء القبائل والعمال ورؤساء الأديان الكتابية ، فإن المحفوظ من آثارها وأخبارها يقترب من الثلثمائة رسالة وعهد ومعاهدة . .

ولقد غدت المدينة - عاصمة الدولة والدعوة - قبلة الوفود الآتية من أقطار شبه الجزيرة . . وغدا مسجدها ساحة مناظرة وحوار بين الدعوة الإسلامية ومختلف ألوان الفكر الموروث ! . .

* * *

ولقد تميزت الدعوة إلى الإسلام ، عبر تاريخ هذا الدين ، بحركتها الحرة التطوعية . . فلم تقم لها مؤسسات - كما كان حال الدعوة في ديانات أخرى - ربما لانتفاء الكهانة والرياسة الدينية من نهج الإسلام - فلم تكن «حرفة» في أغلب تاريخها وعند أغلب أعلامها ، وإنما كانت فرض كفاية ينهض بها نفر من أبناء الأمة

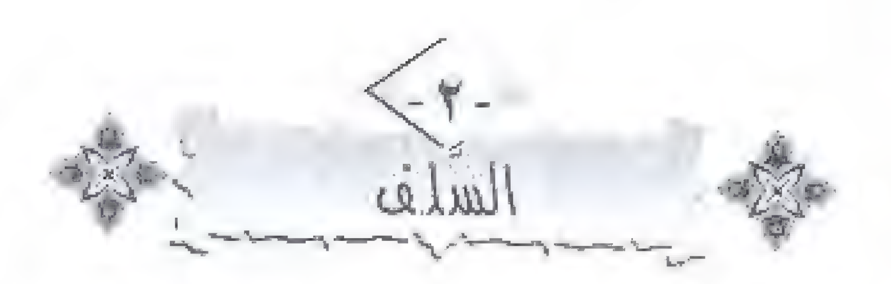
نيابة عن أمة الإسلام ﴿ وما كان المؤمنون لينفروا كافة فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون ﴾ [التوبة : ١٢٢] وكذلك الدعوة إلى المذاهب الفقهية . . على العكس من الدعوة للسياسة المذهبية ، فقد عرفت المؤسسات والاحتراف . .

ففى بدء الدعوة كان رسول الله ، ﷺ ، هو [داعى الله] . . وبعد أن انتقل إلى رحاب بارئه أصبحت الدعوة مهمة العلماء . . ذلك أن ختم رسالات السماء إلى الأرض برسالة محمد ، قد أنهى طور النبوات والرسالات المتجددة . . فأصبحت الدعوة إلى دين الله الواحد - دين الإسلام - هى مهمة العلماء . . وهذا هو معنى المأثورة النبوية التى تتحدث عن علماء الدعوة الإسلامية فتشبههم بأنبياء بنى إسرائيل - «علماء أمتى كأنبياء بنى إسرائيل» - فهم ليسوا مثلهم فى «النبوة» ، وإنما فى حمل رسالة الدعوة إلى الدين . . فتلك مهمة الأنبياء ، فى بنى اسرائيل ، كلما هلك نبى خلفه نبى . . وهى قد غدت - فى الإسلام - مهمة علماء الدعوة الإسلامية ، لأنه لانبى بعد محمد ، ﷺ . . ولأن هؤلاء العلماء - كما جاء فى المأثورة النبوية - هم - فى هذا الميدان - «ورثة الأنبياء» . . والأنبياء لم يورثوا درهما ولا دينارا ، وإنما ميراثهم هو الدعوة إلى دين الله[1] .

---

(١) مراجع :

- [الدعوة إلى الإسلام] للسير توماس . و . أرنولد . ترجمة : د . حسن إبراهيم حسن ، د . عبد المجيد عابدين ، إسماعيل النحراوى . طبعة القاهرة سنة ١٩٧٠ م . .
- [نهاية الإيجاز فى سيرة ساكن الحجاز] لرفاعة الطهطاوى - ضمن أعماله الكاملة - جـ ٤ - تحقيق : د . محمد عمارة - طبعة بيروت سنة ١٩٧٧ م . .
- [مجموعة الوثائق السياسة للعهد النبوى والخلافة الراشدة] جمعها وحققها : د . محمد حميد الله . طبعة القاهرة سنة ١٩٥٦ م .



- ٢ -
السلف

السلف -لغة - : هو الماضى ، وكل ما ومن ، تقدم ومضى عن الواقع والزمن الذى يعيش فيه الإنسان .

وفى الاصطلاح : هو العصر الذهبى الذى يمثل نقاء الفهم والتطبيق للمرجعية الفكرية والدينية ، قبل ظهور المذاهب والتصورات التى وفدت على الحياة الفكرية ، بعد الفتوحات التى أدخلت الفلسفات غير الإسلامية على فهم السلف الصالح للإسلام . .

والسلف - أيضا - : هو كل عمل صالح قدمه الإنسان .

وفى القرآن الكريم يرد مصطلح السلف بمعنى : الماضى ، وما سبق الحياة الحاضرة التى يحياها الإنسان ﴿ فمن جاءه موعظة من ربه فانتهى فله ما سلف ﴾ [البقرة : ٢٧٥] - ﴿ ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء إلا ما قد سلف ﴾ [النساء : ٢٢] ﴿ هنالك تبلو كل نفس ما أسلفت ﴾ [يونس : ٣٠] ﴿ فجعلناهم سلفا ومثلا للآخرين ﴾ [الزخرف : ٥٦]

فالسلف ، فى القرآن الكريم ، هو الماضى ، وما سبق وتقدم على الحياة الحاضرة للإنسان . .

ونفس هذا المعنى - لمصطلح السلف - نجده فى الحديث النبوى الشريف . ففى مسند الإمام أحمد ، عن فاطمة الزهراء ، رضى

الله عنها ، أن رسول الله ، ﷺ ، قال لها ، في مرض موته : «ولا أراه إلا قد حضر أجلى . إنك أول أهل بيتى لحوقا بى ، ونعم السلف أنالك» . وعن ابن عباس ، رضى الله عنهما : «لما ماتت زينب ، ابنة رسول الله ، ﷺ ، قال رسول الله : «الحقى بسلفنا الصالح الخيّر عثمان بن مظعون»

والسلف ، فى اصطلاح المال والتجارة ، هو : إقراض الأموال قرضا حسنا ، أى لا منفعة فيه للمقرض -بالدنيا- . وبهذا المعنى ورد فى الحديث النبوى ، فعن السائب بن أبى السائب «أنه كان يشارك رسول الله ، ﷺ ، قبل الإسلام ، فى التجارة ، فلما كان يوم الفتح جاء ، فقال النبى : مرحبا بأخى وشريكى ، كان لا يدارى ولا يمارى . يا سائب ، قد كنتَ تعمل أعمالا فى الجاهلية لا تُقْبَل منك ، وهى اليوم تُقْبَل منك . كان ذا سلف وصلة» . - رواه الإمام أحمد - .

أى كان يقرض المال قرضا حسنا ، ويصل الأرحام .

ولما كان كل ماض هو سلف ، فلقد شاع إطلاق هذا المصطلح مُعَرَّفًا - السلف - على الجيل المؤسس ، الذى أقام الدين ، وطبق منهاج الإسلام . جيل الصحابة الذين عاشوا عصر تنزّل الوحى ، وامتلكوا سليقة فهم مصطلحاته على النحو الذى كانت عليه فى عصر التنزيل ، وتلقوا عن المعصوم ، ﷺ ، البيان النبوى للبلاغ القرآنى ، وحوّلوا جميع ذلك إلى واقع حياتى معيش . . فغدوا - لذلك- السلف الصالح ، بتعميم وإطلاق . . ثم انضم إليهم - فى زمرة السلف - من اهتدى بهديهم وعمل بسنتهم من التابعين وتابعى التابعين . .

فالسلف ، هو : كل من يُقلَّد ويُقتَدى أثره في الدين . .

وبعد «السلف» - الذين يشملون الصحابة . . والتابعين . . والأئمة العظام للمذاهب الكبرى ، من تابعى التابعين - يأتى «الخَلَف» ، الذين يلونهم في التسلسل الزمنى . . وبعد الخلف تأتى أجيال «المتأخرين»[1] . .



---

(١) مراجع :

(١) [عقائد السلف] للأئمة . أحمد بن حنبل ، وابن قتيبة ، وعثمان الدارمى . جمعها ونشرها : د . علي سامى النشار ، ود . عمار الطالبى . طبعة الإسكندرية سنة ١٩٧١ م ؛

(٢) [الكليات] لأبى البقاء الكفوى . تحقيق د . عدنان درويش ، ومحمد المصرى . طبعة دمشق سنة ١٩٨٢م .

(٣) [تيارات الفكر الإسلامى] للدكتور محمد عمارة . طبعة القاهرة سنة ١٩٩٨ م .



- ٣ -
السلفية

السلفية : نسبة إلى «السلف» . . والسلف هو : الماضى . . وفى القرآن الكريم : ﴿ فمن جاءه موعظة من ربه فانتهى فله ما سلف ﴾ [البقرة : ٢٧٥] . . وفى [لسان العرب] - لابن منظور - : «السالف : المتقدم» أى الماضى . .

ولذلك كانت السلفية الدينية ، والسلفى فى الدين : هى الرجوع فى الأحكام الشرعية إلى منابع الإسلام الأولى ، أى الكتاب والسنة ، مع إهدار ما سواهما . .

ومع وضوح هذا التعريف للسلفية ، تعددت فصائل تيارها فى تراثنا وفكرنا الإسلامى . . فكل السلفيين يعودون فى فهم الدين إلى الكتاب والسنة ، لكن منهم فصيلا يقف فى الفهم عند ظواهر النصوص . . ومنهم من يُعمل العقل فى الفهم . . ومن الذين يُعملون العقل : مسرف فى التأويل . . أو متوسط . . أو مقتصد . .

ومن السلفيين : أهل جمود وتقليد . . ومنهم أهل التجديد ، الذين يعودون إلى المنابع لاستلهامها فى الاجتهاد لواقعهم الجديد - ومن السلفيين من سلفهم - ماضيهم - فكر عصر الازدهار الحضارى والخلق والإبداع . . ومنهم من سلفهم - ماضيهم ومثالهم الذى يحتذونه - فكر عصر التراجع الحضارى والتقليد والجمود . .

ومن السلفيين «مقلدون» لكل التراث، دونما تمييز بين «الفكر» وبين «التجارب».. و دونما تمييز فى «الفكر» بين «الثوابت» وبين «المتغيرات».. ومنهم «مستلهمون» لثوابت التراث، مع «الاسترشاد» بتجارب ومتغيرات التاريخ..

ومن السلفيين من يعيشون فى الماضى والسلف.. ومنهم من يوازن بين «السلف - الماضى» وبين «الحاضر - المعاصر»..

وهذا التنوع، الذى يقترب أحيانا من درجة التناقض، فى مناهج فصائل السلفية، هو الذى أحاط مضامين هذا المصطلح، وخاصة فى فكرنا المعاصر، بكثير من الغموض، وسوء الفهم، بل وسوء الظن أيضا!.. فكل إنسان هو سلفى، بمعنى أن له سلف وماض ينتسب إليه ويرجع له، لكن التفاوت يأتى من الخلاف حول: من هو سلفك؟.. وكيف تتعامل مع ماضيك؟.. تهاجر إليه؟.. أم تستدعيه؟.. تقلده؟.. أم تجتهد فيه؟؟..

وأشهر المدارس الفكرية التى حاولت الاستئثار، بمصطلح السلفية هى مدرسة «أهل الحديث»، التى هالها الوافد اليونانى - فلسفة ومنطقا - وأفزعتها عقلانية اليونان المنفلتة من النقل الدينى، فاعتصمت بالنصوص، مقدمة ظواهرها، بل وحتى ضعيفها على «الرأى» و «القياس» و «التأويل» وغيرها من ثمرات النظر العقلى.. وهى المدرسة التى انعقدت زعامتها للإمام أحمد بن حنبل [١٦٤ - ٢٤١ هـ ٧٨٠ - ٨٥٥ م] حتى ليحسبها البعض كل السلفية،

بينما هى فى الحقيقة واحدة من فضائل هذا الاتجاه . وفى منهاج هذه المدرسة يعلو النص على غيره ، بل ويكاد أن ينفرد بالحجية . . . فالنص . . وفتوى الصحابة . . والمختار من فتوى الصحابة عند اختلافهم . . والحديث المرسل والضعيف . . ثم القياس للضرورة - هى الأصول الخمسة التى حددها الإمام أحمد بن حنبل أركانا لمنهج هذه المدرسة . . رافضا ، بذلك الرأى ، والقياس ، والتأويل ، والذوق ، والعقل ، والسببية فى الفكر الدينى . .

وعن هذا المنهج النصوصى «السلفية - النصوصية» - كما صاغه الإمام أحمد بن حنبل - يقول واحد من أعلامها هو الإمام ابن قيم الجوزية [٦٩١ - ٧٥١ هـ ١٢٩٢ - ١٣٥٠ م] :

«الأصل الأول : النصوص . فإذا وجد النص أفتى به ، ولم يلتفت إلى ما خالفه ولا من خالفه ، كائنا من كان . . ولم يكن يقدم على الحديث الصحيح عملا ولا رأيا ولا قياسا ولا قول صاحب ولا عدم علمه بالمخالف .

الأصل الثانى : ما أفتى به الصحابة . فإنه إذا وجد لبعضهم فتوى ، لا يُعْرَفُ له مخالفٌ منهم فيها ، لم يَعْدُها إلى غيرها . . ولم يقدم عليها عملا ولا رأيا ولا قياسا . .

الأصل الثالث : إذا اختلف الصحابة تخيَّر من أقوالهم ما كان أقربها إلى الكتاب والسنة ، ولم يخرج عن أقوالهم . فإن لم يتبين له موافقة أحد الأقوال حكى الخلاف فيها ، ولم يجزم بقول .

الأصل الرابع : الأخذ بالمرسل والحديث الضعيف ، إذا لم يكن فى الباب شىء يدفعه ، وهو الذى رجحه - [أى الحديث الضعيف] - على القياس . .

الأصل الخامس : القياس للضرورة . فإذا لم يكن عنده فى المسألة نص ، ولا قول الصحابة ، أو واحد منهم ، ولا أثر مرسل أو ضعيف ، عدل إلى القياس ، فاستعمله للضرورة . .»

هذا هو المنهج النصوصى لأشهر فصائل السلفية - فى تراثنا الفكرى وواقعنا المعاصر .

وهناك سلفيون جمعوا ما بين السلفية والتجديد ، حتى لقد وجدنا سلسلة المجددين عبر تاريخ الإسلام يجمعون بين السلفية فى فهم الدين ، وذلك عندما يعودون فى فهم الدين إلى الكتاب والسنة وفهم السلف الصالح لهذه المنابع الجوهرية والنقية ، ثم يجددون فى فهم الواقع ومستجداته ، مع عقد القران بين فقه الأحكام وفقه الواقع . . فلا يقفون - فقط- عند ظواهر النصوص ، وإنما يعملون فيها أدوات النظر العقلى . . وعن المنهاج التجديدى لهذه «السلفية - العقلانية » يعبر الإمام محمد عبده [١٢٦٥ - ١٣٢٣هـ ١٨٤٩ - ١٩٠٥م] عندما قال : «لقد ارتفع صوتى بالدعوة إلى تحرير العقل من قيد التقليد ، وفهم الدين على طريقة سلف الأمة ، قبل ظهور الخلاف ، والرجوع فى كسب معارفه إلى ينابيعها الأولى ، واعتباره من ضمن موازين العقل البشرى التى

وضعها الله لترد من شططه، وتقلل من خلطه وخبطه، لتتم حكمة الله في حفظ نظام العالم الإنساني، وإنه على هذا الوجه يعد صديقا للعلم، باعثا على البحث في أسرار الكون، داعيا إلى احترام الحقائق الثابتة، مطالبا بالتعويل عليها في أدب النفس وإصلاح العمل . . »

ففي منهاج هذه السلفية العقلانية تآخي النص والعقل، وتزامل العلم والدين، وتآزرت السلفية والتجديد[1].



---

(1) مراجع:

(1) [عقائد السلف] للإمام أحمد بن حنبل - وآخرين - تحقيق : د. علي سامي النشار، ود. عمار طالبي. طبعة الإسكندرية سنة ١٩٧١م.

(٢) [إعلام الموقعين] لابن القيم. طبعة بيروت سنة١٩٧٣ م.

(٣) [الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده] دراسة وتحقيق : د. محمد عمارة. طبعة دار الشروق. القاهرة سنة ١٩٩٣ م.

(٤) [تيارات الفكر الإسلامي] للدكتور محمد عمارة. طبعة دار الشروق. القاهرة سنة ١٩٩٨ م



- ٤ -
السلفيون

السَّلَفِيُّون – ومفردها : سَلَفِى – هم : الذين يحتذون حذو السلف ، الذين سلفوا ، أى سبقوا ومضوا .

وإذا استثنينا تيار «الحداثة» ، بالمعنى الغربى ، والتى تقيم ويقيم أصحابها «قطيعة معرفية» مع الموروث ، فإن أغلب تيارات الفكر ومذاهبه ومدارسه يمكن – بدرجات متفاوتة ، ومعانى متمايزة – أن تدخل فى إطار السلفيين ، لأن لها ماضيا ومرجعية ونموذجا ترجع إليه وتنتسب له ، وتحتذيه ، وتستصحب ثوابته ومناهجه . . فليس هناك – فى الحقيقة – صاحب فكر بلا ماضى ، مهما كان فى هذا الفكر من إبداع . . وإذا كان السلف هو الماضى ، فكلنا سلفيون . .

لكن السلفيين أنواع . . فمن السلفيين من «يقلد» السلف . . وهؤلاء هم أهل الجمود والتقليد . . ومن السلفيين من يرجع إلى السلف ، فيجتهد فى ميراثهم وتراثهم ، مميزا فيه «الثوابت» عن «المتغيرات» ، والصالح للاستصحاب والاستلهام عن ما تجاوزته الوقائع المتغيرة والعادات المتبدلة والأعراف المختلفة والمصالح المستجدة . .

ومن السلفيين من يستلهم من فقه السلف ما يتطلبه فقه الواقع الجديد . . ومنهم من يهاجر من واقعه المعيش إلى واقع السلف الذى تجاوزه الزمان وإلى تجاربهم التى طوتها القرون . . ومن

السلفيين من سلفه عصر الازدهار والإبداع فى تاريخنا الحضارى . .
ومنهم من سلفه عصر الركاكة والتراجع فى مسيرتنا الحضارية . .
ومن السلفيين من سلفه تراثنا وحضارتنا وثقافتنا الوطنية والقومية
والإسلامية . . ومن السلفيين من سلفه تراث «الآخر» الحضارى
ومذاهبه وتياراته الفلسفية والاجتماعية ، وبهذا المعنى يمكن إدخال
«الليبراليين»- الذين يحتذون حذو «الليبرالية» الغربية -
والماركسيين- الذين يحتذون حذو الماركسية الغربية - وأمثالهم من
المتغربين - فى عداد السلفيين ، الذين أصبح الموروث والماضى
الغربى سلفالهم يحتذونه . أحيانا مع قدر من التحوير ، وأحيانا
بجمود وتقليد . .

ومن السلفيين من سلفه المذاهب والتيارات «النصوصية -
الحرْفيّة» فى تراثنا . . ومنهم من سلفه تيارات العقلانية فى
تراثنا . . أو النزعات الصوفية فى موروثنا الحضارى . . ومن
السلفيين من سلفه مذهب تراثى بعينه يتعصب له ولا يتعداه . .
ومن السلفيين من مرجعيته تراث الأمة ، على اختلاف مذاهبها ،
يحتضنها جميعا ، ويعتز بها ، ويتخير منها .

❊ ❊ ❊

لكن . . ومع صدق وصلاحية إدخال أغلب تيارات الفكر تحت
مصطلح السلفيين ، إلا أن هذا المصطلح قد ادعاه واشتهر به وكاد
يحتكره أولئك الذين غلّبوا النص ، وفى أحيان كثيرة ظاهر النص ،
على الرأى والقياس وغيرهما من سبل وآليات النظر العقلى ، فوقفوا
عند «الرواية» أكثر من وقوفهم عند «الدراية» ، وحرّموا الاشتغال

«بعلم الكلام» فضلا عن الفلسفات الوافدة على حضارة الإسلام . . وهؤلاء هم الذين يطلق عليهم - أحيانا- : «أهل الحديث» ، للاشتغالهم بصناعة المأثور وعلوم الرواية ، ورفضهم علوم النظر العقلى . .

وإمام هذه المدرسة ، هو أبو عبدالله أحمد بن حنبل [١٦٤ - ٢٤١ هـ ٧٨٠ - ٨٥٥م] . . وفيها نجد أبرز الأئمة الذين اشتغلوا بصناعة الرواية وعلومها ، من مثل : ابن راهويه [٢٣٨ هـ ٨٥٢ م] - إمام علم الجرح والتعديل - وأصحاب الصحاح والجوامع والمسانيد : البخارى [٢٥٦ هـ ٨٧٠م] ، وأبو داود [٢٧٥ هـ ٨٨٨ م] ، والدارمى [٢٨٠ هـ ٨٩٣ م] ، والطبرانى [٣٦٠ هـ ٩٧١ م] ، والبيهقى [٤٥٨ هـ ١٠٦٦] . . الخ ... الخ . .

ولقد تطورت هذه المدرسة - فى مرحلة ابن تيمية [٦٦١ - ٧٢٨ هـ ١٢٦٣ - ١٣٢٨م] وابن قيم الجوزية [٦٩١ - ٧٥١ هـ ١٢٩٢ - ١٣٥٠ م] - فضمت إلى المأثور بعضا من أدوات النظر العقلى ، وإن ظلت الغلبة والأولوية ، عندها للنصوص والمأثورات . .

فالمنهاج النصوصى ، لهؤلاء السلفيين ، قد صاغه الإمام أحمد ابن حنبل- شعرًا - قال فيه :

دين النبى محمد آثار … نعم المطية للفتى الأخبار

لا تُخدعن عن الحديث وأهله … فالرأى ليل والحديث نهار

وعبَّر عنه أحد أعلامهم - شعرا أيضا - فقال :

العلم : قال الله قال رسوله قال الصحابة ، ليس خُلْف فيه
ما العلم نَصْبُك للخلاف سفاهة بين النصوص وبين رأى سفيه
كلا ، ولا ردّ النصوص تعمدا حذرا من التجسيم والتشبيه

وعن هذا المنهاج يعبر ابن القيم ، فيقول : «إن النصوص محيطة بأحكام الحوادث ، ولم يُحلْنا الله ولا رسوله على رأى ولا قياس . . وإن الشريعة لم تُحوجنا إلى قياس قط ، وإن فيها غنية عن كل رأى وقياس وسياسة واستحسان ، ولكن ذلك مشروط بفهم يؤتيه الله عبده فيها » .

فلقد ظل النص وحده هو المرجع عند هؤلاء السلفيين . .

لكن التطور قد أصاب هذا المنهاج النصوصى - فى مرحلة ابن تيمية وابن القيم - فحدث إعمال الفهم والعقل فى النصوص ، دون الاكتفاء بالوقوف عند ظواهر هذه النصوص . .

ولقد كان غلو هؤلاء السلفيين فى الانحياز إلى «النص» وحده ، ثمرة لعوامل كثيرة ؛ منها مخافة غلو مضاد انحاز أهله - وهم فلاسفة العقلانية اليونانية ، من المشائين - إلى عقلانية غير مضبوطة بالنص الدينى . . وأيضا النزعة الصوفية الباطنية الإشراقية ، التى انحازت إلى الذوق والحدس ، دونما ضابط من النص ولا من العقل . .

ولأن هذه النزعات جميعها - النصوصية منها والعقلانية والباطنية - قد شابها قدر ، كثير أو قليل ، من الغلو ؛ فلقد ظلت عاجزة عن استقطاب جمهور الأمة ، وانحاز هذا الجمهور إلى النزعة الوسطية فى السلفية ، تلك التى جمعت بين «النقل»

و«العقل» ، ووازنت بينهما ، وهى «الأشعرية» ، التى أسسها إمامها أبو الحسن الأشعرى ، على بن إسماعيل [٢٦٠ - ٣٢٤ هـ ٨٧٤ - ٩٣٦ م] . . ففى هذه المدرسة - من مدارس السلفيين اجتمع النقل والمأثور مع النظر العقلى والاشتغال بعلم الكلام - الذى حرّم السلفيون النصوصيون الاشتغال به - مع علم أصول الفقه - الذى يمثل فلسفة العقلانية الإسلامية فى التشريع - ثم تطورت هذه المدرسة - بعد مرحلة التأسيس - على يد كوكبة من أئمتها ، فى مقدمتهم الباقلانى ، أبو بكر محمد بن أبى الطيب [٤٥٣ هـ - ١٠١٣ م] وإمام الحرمين ، الجوينى ، أبو المعالى عبد الملك بن عبدالله بن يوسف [٤١٩ - ٤٧٨ هـ ١٠٢٨ - ١٠٨٥م] وحجة الإسلام أبو حامد الغزالى [٤٥٠ - ٥٠٥ هـ ١٠٥٨ - ١١١١ م] . .

وعلى امتداد تاريخ الحضارة الإسلامية ، ظلت هذه الصورة وهذه الموازنة . . ملحوظة فى مدارس ومذاهب السلفيين . . فالنزعة النصوصية تمثلها فى عصرنا الحديث وواقعنا المعاصر دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب [١١١٥ - ١٢٠٦ هـ ١٧٠٢ - ١٧٩٢ م] - «الوهابية» ، بينما لا تزال «الأشعرية» - الممثلة «للعقلانية - النصوصية» - تستقطب جمهور المسلمين[1] .

---

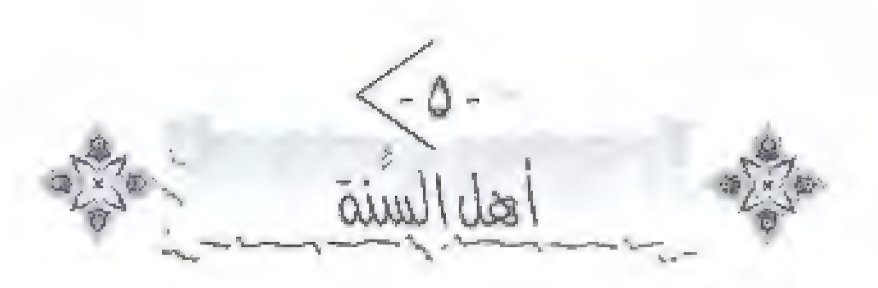
(١) مراجع :

(١) [عقائد السلف] للإمام أحمد بن حنبل ، وابن قتيبة ، وعثمان الدارمى . جمعها ونشرها : د . على سامى النشار ، ود . عمار الطالبى . طبعة الإسكندرية سنة ١٩٧١ م .

(٢) [إعلام الموقعين] لابن القيم . طبعة بيروت سنة ١٩٧٣ م .

(٣) [مقالات الإسلاميين] للأشعرى . تحقيق : محمد محيى الدين عبد الحميد . طبعة القاهرة سنة ١٩٦٩ م .

(٤) [تيارات الفكر الإسلامى] للدكتور محمد عمارة . طبعة القاهرة سنة ١٩٩٨ م .



- ٥ -
أهل السُّنة

ويقال لهم « أهل السُّنة والجماعة » . . والمراد بهم من عدا الشيعة والخوارج من فرق الإسلام ، لتأسيهم بسنة الرسول ، ﷺ ، وطريقته ، ولاجتماع الأمة على أصول مذهبهم ، رغم التمايز فى الفروع والتفاصيل . .

وفى إطار أهل السنة يتمايز فصيلان : «أهل الحديث» الذين مالوا إلى «المأثور» من السنة - [انظر : «أهل الحديث»] - . . و «الأشعرية» الذين وازنوا بين «المأثور» وبين «الرأى» ، فتوسطوا ، فى «التأويل» ، بين منكريه وبين المغالين فيه - [انظر «الأشعرية»] - . .

والأشعرية - ومعهم «الماتريدية» - الذين لا يتميزون عنهم كثيرا - هى الفرقة التى تبعها جمهور الأمة . . فهم الأقرب إلى جدارة التسمية بأهل السنة والجماعة . . وهم قد استقطبوا جمهور الأمة - فى الأصول والفروع - لقربهم من منهاج الوسطية الإسلامية ، الذى هو خصيصة فلسفة الإسلام وحضارته . . فهم مع «التنزيه» للذات الإلهية - فى مسألة الصفات - على نحو من التصور الوسط بين «التعطيل» وبين «التجسيم والتجسيد والتشبيه» . .

وهم مع «علم الكلام» ، على نحو توسط بين أهل الحديث وأهل الاعتزال . .

وهم مع عقلانية متوسطة بين غلو الفلاسفة وتنكر أهل الحديث . .

وهم - فى القدر - مع نظرية «الكسب» - التى تثبت للإنسان قدرة تتوسط بين «الجبر الخالص» وبين «التفويض الكامل» . .

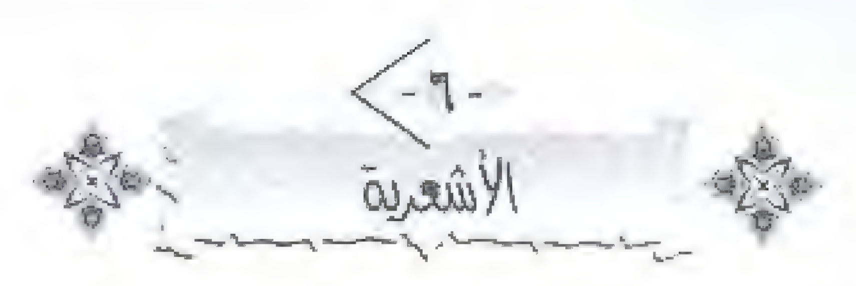
وكذلك كان توسطهم فى كل المشكلات التى تناقض فيها رأى أهل الحديث ورأى المعتزلة على نحو حاد[1] .



(١) مراجع:

(١) [مقالات الإسلاميين] للأشعرى - طبعة القاهرة سنة ١٩٦٩ م .

(٢) [تيارات الفكر الإسلامى] للدكتور محمد عمارة - طبعة القاهرة سنة ١٩٩١ م



هى أكثر الفرق الإسلامية جمهورا بين المسلمين .. حتى ليطلق عليها . فى أحيان كثيرة : أهل السنة .. أو أهل السنة والجماعة .

ولقد اشتهرت هذه الفرقة باسم «الأشعرية» ، نسبة إلى إمامها الأول والمؤسس : الأشعرى ، أبو الحسن ، على بن إسماعيل بن إسحاق بن سالم بن إسماعيل بن عبدالله بن موسى بن بلال بن أبى بردة بن أبى موسى الأشعرى [٢٦٠ - ٣٢٤ هـ ٨٧٤ - ٩٣٦ م] .

وكان الأشعرى - الذى ولد ونشأ فى البصرة - حاضرة الفكر الاعتزالى - فى بداية حياته معتزليا ..

لكنه خرج على المعتزلة أواخر القرن الهجرى الثالث .. ثم قضى نحو ربع قرن فى محاورتهم ، وفى تأسيس المذهب الجديد ..

ولقد كان المناخ الفكرى الذى أثمر هذا التحول وهذه النشأة للمذهب الجديد ، قد تميز بسيادة الاستقطاب الحاد بين «العقلانية- الاعتزالية» - التى كانت قد مالت بعض الميل عن توسطها الأول بتأثير الفلسفة اليونانية ، التى اكتمل حضورها - بعد ترجمتها للعربية - فى القرن الثالث الهجرى .. الاستقطاب الحاد بين هذه «العقلانية - الاعتزالية» وبين «النصوصية -

الحَرْفية» لأهل الحديث . . الذين ازدادوا جمودا على ظواهر النصوص بمقدار ما أحدثت الفلسفة اليونانية فى الحياة الفكرية الإسلامية من تأثيرات : . .

فى ظل هذا الاستقطاب الحاد كانت الحياة الفكرية الإسلامية بحاجة إلى من يذكر علماء الأمة وجمهورها بالوسطية الإسلامية ، التى تنقذ العقلانية من الميل نحو مذهب اليونان فيها ! . .

وتنقذ النصوص من الوقوف عند ظواهرها ! . . فكان الأشعرى هو إمام هذا الإنجاز . . وكانت الأشعرية هى صورة الوسطية الإسلامية فى ذلك المناخ وفى تلك الملابسات . .

ولقد نجحت الأشعرية فى تقديم صورة جديدة للوسطية الإسلامية ، كسرت حدة الاستقطاب «الاعتزالى - السلفى - الحرفى» ، واستدعت سمات عديدة من المذهبين ، فألفت بينها . . وكان نجاحها الأعظم فى تحقيق وحدة جمهور الأمة حول هذا الاتجاه . .

● لقد رأت أن المعتزلة قد غلوا فى «التنزيه» إلى حد «التعطيل» . . وأن «الحشوية» - العاجزين عن تجاوز ظواهر النصوص - قد بلغوا فى «التشبيه» إلى حد «التجسيد والتجسيم» فسلكت بين السبيلين طريقا وسطا . . يثبت للذات الالهية الصفات التى وصف بها ذاته ، ولكن مع ضبط العبارات بالضوابط التى تصرف المعنى عن «التجسيم والتجسيد» .

● ورأت إحجام الفقهاء عن علم الكلام - كراهة فى المعتزلة، الذين أسسوه! - .. كما رأت إهمال المتكلمين لمنهج أصول الفقه - الذى أبدعه خصوم الاعتزال: - .. فجمعت الأشعرية بين الفقه وأصوله وبين علم الكلام ..

● ورأت الأشعرية نفور «السلفية - النصوصية» من أدوات النظر العقلى.. وميل الفلاسفة إلى العقل على حساب النقل.. فأرادت التوسط بين العقل والنقل، على نحو أعلى سلطان النقل على العقل فى كثير من الأحيان!.. لأن الخطر الماثل كان - فى رأيها - هو خطر الاعتزال، الذى هضم حق النقل لحساب العقل! ..

● ورأت «الجبرية - الخُلّص» - أصحاب الجبر المحض - قد أنكروا أن يكون للعبد شىء فى أفعاله - فهو - عندهم - كالريشة فى مهب الريح! بينما المعتزلة يقولون إنه خالق أفعاله، على سبيل الحقيقة لا المجاز!.. فتقدمت الأشعرية بنظرية «الكسب» طريقا وسطا بين الفريقين، وفيه حاولت التمييز بين «الفعل الجبرى» وبين «الفعل الاختيارى» للإنسان.. وأثبتت للإنسان «قدرة» و «استطاعة» مع الفعل.. مع التحفظ على هذه «القدرة» و «الاستطاعة» بالقول إن تأثيرها لا يرقى إلى درجة الخلق والإحداث! ..

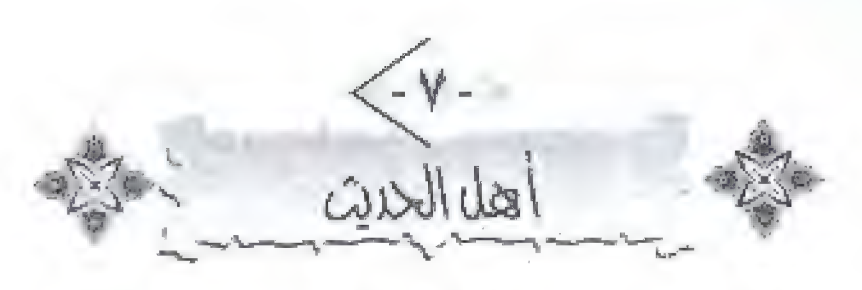
● ورأت الأشعرية أن «المشبهة» يثبتون «رؤية الناس لله بالأبصار»، على نحو يؤدى إلى تحديد الذات الإلهية وتجسيمها وتجسيدها.. بينما المعتزلة ينكرون الرؤية البصرية بإطلاق.. فحاولت التوسط بين المذهبين، فقالت برؤية بصرية من غير تحديد ولا تجسيم! ..

● ورأت الأشعرية أن «الحشوية» - من «السلفيين - النصوصيين» - يقولون بقدم القرآن، معنى وحروفا وأصواتا .. بينما المعتزلة يقولون إنه مخلوق .. فتوسطت بينهما فقالت بقدم الكلام النفسى، وبحدوث الحروف والأصوات! ..

● وفى تفسير الآيات التى تتحدث - فى حق الله سبحانه وتعالى - عن «الوجه» و «اليد» و «المجىء» و «الاستواء» .. رأت الأشعرية إحجام «السلفية - النصوصية» عن التأويل، وذلك دون تفويض فى معناها، أو تنزيه لله عن شبه المخلوقات .. بينما أكثر المعتزلة وبالغوا فى تأويل هذه الآيات .. فحاولت التوسط بين النهجين، بإثبات «الوجه» و «اليد» و «المجىء» و «الاستواء»، ولكن بلا «كيف» .. فاختارت «الإثبات» دون «التشبيه»! ..

● ورأت الأشعرية غلو «السلفية - النصوصية» فى رفضها أن يكون «العقل» مصدرا للمعرفة الدينية .. وغلو المعتزلة فى الركون إليه، حتى لقد قال فريق منها «بالشريعة العقلية» .. فسلمت بالعقل، كمصدر من مصادر المعرفة، مع اختصاص الوحى بالمرجعية فى «الوجوب» و «التكليف»! ..

هكذا .. وعلى هذا النحو، صاغ أبو الحسن الأشعرى معالم الوسطية الأشعرية، التى برزت فى مناخ الاستقطاب «الاعتزالى - السلفى»، فجمعت جمهور الأمة وحققت وحدتها ..



هم - فى الأخبار - : أهل الرواية والجمع لحديث رسول الله ، ﷺ . . وفى علم الكلام : التيار الذى جعل النصوص المرجع الوحيد للدين ، مع رفض «الرأى» و «العقل» و «القياس» و «التأويل» ، وغيرها من أدوات النظر العقلى - رفض أن تكون لها مرجعية أو مدخل فى المعرفة الدينية . . بل لقد رفضوا ، فى أحيان كثيرة ، أن يكون للنظر العقلى مدخل فى سبر أغوار النصوص ، وفضلوا الوقوف عند ظواهرها ، أو قريبا من هذه الظواهر ! . .

ولقد كان العصر العباسى هو الحقبة التى تبلورت فيها هذه المدرسة الكلامية ، بزعامة إمامها أبو عبدالله أحمد بن حنبل [١٦٤ - ٢٤١هـ ٧٨٠ - ٨٥٥م] . .

ولقد صاغ الإمام أحمد بن حنبل أصول هذا «المنهاج النصوصى» الخمسة . . والتى عرضها ابن القيم [٦٩١ - ٧٥١هـ ١٢٩٢ - ١٣٥٠م] بهذا الترتيب :

«الأصل الأول : النصوص . . والأصل الثانى : ما أفتى به الصحابة . . والأصل الثالث : إذا اختلف الصحابة تخير من أقوالهم . . والأصل الرابع : الأخذ بالمرسل والحديث الضعيف ، وتقديمهما على «الرأى» و «القياس» . . والأصل الخامس : القياس للضرورة . .» كما صاغ الإمام أحمد هذا المنهج شعرا ، فقال :

دين النبى محمد أثار نعم المطية للفتى الأخبار
لا تُخدعن عن الحديث وأهله فالرأى ليل والحديث نهار
ولربما جهل الفتى طرق الهدى والشمس طالعة لها أنوار

وبتطبيق هذا المنهج ، فى ميدان العقيدة ، أثمر هذه المعالم فى الاعتقاد :

أ - **الإيمان** : قول وعمل . . وهو يزيد وينقص ، تبعا لنقاء العقيدة أو شوبها ، وتبعا لزيادة العمل أو نقصانه .

ب - **والقرآن**: كلام الله ، وفقط . . فليس بمخلوق - كما تقول المعتزلة - وليس شريكا فى قِدَمه كما يُلْزِمُ المعتزلةُ نُفاةَ القول بخلق القرآن .

جـ - **وصفات الله**: سبحانه وتعالى ، التى وصف بها نفسه ، وأثبتها لذاته ، نصفه بها ونثبتها لذاته ، على النحو الذى وردت عليه فى النصوص المأثورة ، لانلجأ فى بحثها إلى «رأى» أو «تأويل» . .

د - **وعالم الغيب**: لا ينبغى أن نخوض فى بحث شيء منه ، بل يجب أن نفوض حقيقة علمه إلى الله سبحانه . .

هـ - **ورؤية أهل الجنة لله** : عقيدة حق يجب أن يؤمن بها المؤمن ، دون «تأويل» أو «تمثيل» كما وردت بها ظواهر النصوص . .

و - **وعلم الكلام**: منكر ، منكرا . . الاشتغال به منكر ، وأخذ العقائد بأدلته منكر . . بل ومجالسة أهله منكر ، مهما كان دفاعهم به عن الإسلام . .

ز- **والقضاء والقدر**: لا يكتمل الإيمان بدون الاعتقاد بهما.. وهما من الله، سبحانه وتعالى.

ح- **والذنوب الكبائر**: لا تجعل المؤمن كافرا، ولا تخلده فى النار: على عكس قول الخوارج فى الأمرين، وقول المعتزلة فى الثانى..

ط- **وخلافات الصحابة**: لا يصح الخوض فيها، بل يجب العدول عن ذكرها، والوقوف عند محاسنهم وفضائلهم..

ى- **وترتيب الخلفاء الراشدين فى الفضل**: وفق ترتيبهم فى تولّى الخلافة..

ك- **وطاعة ولى الأمر**: واجبة حتى ولو كان فاجرا فاسقا، والخروج عليه منكر، لما يجلبه ذلك من الأخطار، وما يعطله من مصالح الناس فى حياتهم اليومية..

ل- **والفرائض**.. والمعاملات.. والجهاد: نؤديها ونمارسها على النحو الذى جاءت به النصوص فى القرآن والسنة.. وكما شهدت «الأشعرية» - بعد مرحلة التأسيس - تطورا مثله الغزالى والباقلانى والجوينى - فلقد مثل ابن تيمية [٦٦١ - ٧٢٨ هـ ١٢٦٣ - ١٣٢٨ م] وتلميذه ابن القيم مرحلة جديدة فى مدرسة أهل الحديث، زادت فيها جرعة العقلانية الإسلامية، عندما أصبح الخطر الأكبر على الفكر الإسلامى هو الجمود والتقليد.. وليس الاعتزال المشبع بالفلسفة اليونانية، كما كان الحال على عهد الإمام أحمد بن حنبل.

وتعد الوهابية - المنسوبة إلى الشيخ محمد بن عبد الوهاب [١١١٥ - ١٢٠٦ هـ ١٧٠٣ - ١٧٩٢ م] امتدادا لمدرسة أهل الحديث، تناسب مع التحديات والآفاق التى حكمت أوضاع بادية نجد، فى شبه الجزيرة العربية، فى القرن الثانى عشر الهجرى - الثامن عشر الميلادى[1] -



(١) مراجع:

(١) [إعلام الموقعين] لابن القيم، طبعة بيروت سنة ١٩٧٣ م.

(٢) [تيارات الفكر الإسلامى] للدكتور محمد عمارة - طبعة دار الشروق - القاهرة سنة ١٩٩١م.



- ٨ -
الحَشْوِيَة

الحَشْوِيَّة - بفتح الحاء وسكون الشين - وقد تفتح وتضم - وكسر الواو وتشديد الياء مفتوحة - من الحَشْو - : بمعنى : مالا فائدة فيه!.

ولقد أطلق هذا المصطلح - الحَشْوِيَّة - أو أهل الحَشْو - فى علم الكلام الإسلامى كصفة تحقير وازدراء على الذين قصرت بهم مداركهم العقلية عن التفلسف والتقدم فى صناعة الحكمة ، فوقفوا عند ظواهر النصوص ، عاجزين عن إدراك أسرارها .. ومن ثم فإنهم - وخاصة فى النصوص الموهمة ظواهرها للتشبيه والتجسيد والتجسيم لله سبحانه وتعالى قد عجزوا عن التجريد والتنزيه للذات الإلهية ، فكانوا ، لذلك ، مشبهة ومجسمة ..

وفى تراث المعتزلة - وهم فرسان العقلانية الإسلامية - نراهم يعممون إطلاق مصطلح «الحَشْوِيَّة» على «أهل الحديث» ، لإحجامهم عن «التأويل» للنصوص الموهم ظاهرها للتجسيم والتشبيه ..

بينما لا يعمم غير المعتزلة إطلاق هذا المصطلح على كل «أهل الحديث» ، لأنهم لايصرحون بالانحياز إلى التشبيه والتجسيم .. بل ويميلون إلى رفضه عندما ينفون «الكيف» عن الذات الإلهية .. فهم يثبتون له - مثلا - «الوجه» و «اليد» و «المجىء» و «الاستواء»

ولكن «بلا كيف» ، أى على نحو مغاير لما لهذه الجوارح والصفات من شكل وجسم فى المخلوقات والمحدثات ! . .

وهناك اتفاق فى إطلاق مصطلح «الحشوية» و «أهل الحَشْو» على الذين يؤدى بهم التمسك بظواهر النصوص إلى القول بالتجسيم والتجسيد والتحيز فى المكان بالنسبة للذات الإلهية . . واتفاق على أن القائلين بذلك هم من الفرق الضالة . .

وفى تعريف الإمام تاج الدين السبكى [٧٢٧ - ٧٧١ هـ ١٣٢٧ - ١٣٧٠م] لهذه الطائفة يقول عنها : «الحشوية : طائفة ضلوا عن سواء السبيل ، يُجرون آيات الله على ظاهرها ، ويعتقدون أنه المراد . .»

ثم نراه يعلل إطلاق هذا المصطلح - الحَشَوية - بفتح الشين - فيقول : «سموا بذلك لأنهم كانوا فى حلقة الحسن البصرى [٢١ - ١١٠هـ ٦٤٢ - ٧٢٨ م] فوجدهم يتكلمون كلاما ، فقال : ردوا هؤلاء إلى حشاء الحلقة . فنسبوا إلى حشاء ، فهم حَشَوية ، بفتح الشين» !

بينما يعلل آخرون تسميتهم بالحشوية لعلاقة التجسيم بالجسم ، والجسم حَشْو ، فالنسبة إلى الحَشْو . . ولذلك فهم حَشْويَّة - بسكون الشين - . .

وهناك آراء شاذة فى تعليل هذه التسمية بهذا المصطلح ، يرى أصحابها أن المراد بالحَشْو هو الدين ، لأن مصدره الكتاب والسنة ، وهما واسطة بين الله ورسوله وبين الناس . . والواسطة فى الشىء هى حَشْوه ؟!

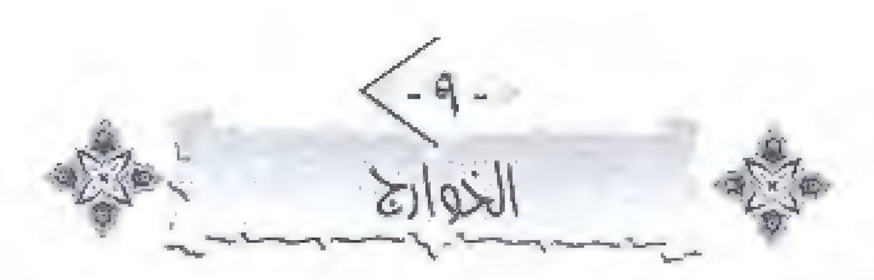
وإذا كان «الحَشْو» - فى الأفكار والمعانى - هو الزائد الذى لا معنى له ولا داعى لوجوده .. فإن الحَشْوِيَّة - فى الفرق الإسلامية - على أصح الآراء وأكثرها منطقية - هم الذين قصرت بهم مداركهم العقلية عن أن يبدعوا ما هو مفيد .. فوقفوا عند ظواهر النصوص وقوف العامة ، حتى لقد وقعوا فى مستنقع التجسيم والتشبيه والتجسيد بحق الذات الإلهية ، عندما عجزوا عن التجريد والتأويل والتنزيه[1] .



(١) مراجع :

(١) [كشاف اصطلاحات الفنون] للتهانوى - طبعة الهند سنة ١٨٩٢ م .

(٢) [تيارات الفكر الإسلامى] للدكتور محمد عمارة - طبعة بيروت سنة ١٩٨٥ م .



- ٩ -
الخوارج

ويسمون بـ «المحكّمة» - لقولهم : لا حكم إلا لله - . . وبـ «الشُراة» - لقولهم إنهم اشتروا الآخرة بالأولى - الدنيا - . . والجنة بأرواحهم و «بالحرورية» - لاجتماعهم أولا بـ «حروراء» - على مقربة من «الكوفة» - . . لكن غلبت عليهم تسمية «الخوارج» - التى لم يختاروها هم لأنفسهم ابتداء ؟ ! . .

والخوارج هم أولى الفرق الإسلامية التى تبلورت فى مجرى الصراع الذى دار حول الخلافة ، وحول الموقف من قتلة عثمان بن عفان ، والذى بلغ حد القتال بين أنصار على بن أبى طالب ومعاوية بن أبى سفيان . . فبعد التحكيم الذى أعقب وقف القتال فى موقعة «صفين» [٣٧ هـ ٦٥٧ م] رفض فريق من أنصار الإمام على نتائج هذا التحكيم ، وحكموا بكفر من قبلوا به ، وأعلنوا الحرب على طرفى الصراع . .

ولقد مثل الخوارج ، فى التاريخ الإسلامى : «ثورة مستمرة» ونزيفا داخليا ، أضعف الدولة الإسلامية ، دون أن يتمكنوا من إقامة دولة مستقرة لفرقتهم طوال هذا التاريخ . .

وكما جمعتهم «مبادئ ومقولات» . . فلقد فرقت صفوفهم «مسائل» ، جعلتهم ينقسمون إلى فرق بلغ تعدادها ، عند بعض المؤرخين ، سبعا وعشرين فرقة . .

لقد اجتمعوا جميعا على :

١ - أن الخلافة لمن تجتمع فيه شروطها ، عربيا كان أو أعجميا ، قرشيا كان أو غير قرشى . . وكان أول أمرائهم أزديا - غير قرشى - وهو عبدالله بن وهب الراسبى [٣٨ هـ - ٦٥٨ م] . . وكذلك كان أغلب أمرائهم من غير قريش .

٢ - وفى الثورة إجتمعوا على نظرية «الثورة المستمرة» . . فمتى بلغ الثوار أربعين ثائرا «وجب» عليهم الخروج ، وكانوا على «حد الشراء» - شراء الجنة بأرواحهم - . .

٣ - وفى تقويم التاريخ الإسلامى : يتولون خلافة أبى بكر وعمر . . وخلافة عثمان قبل أحداث سنوات حكمه الأخيرة . . وخلافة علىّ قبل التحكيم - مع البراءة من عثمان وعلى بعد الأحداث والتحكيم . . ومع البراءة من بنى أمية - خلا عمر بن عبد العزيز - ومن بنى العباس . .

٤ - وفى طريق تعيين الخليفة والإمام : هم مع الشورى والاختيار والبيعة ، ككل أهل السنة . . وضد نظرية «النص . . والتعيين» التى يقول بها الشيعة .

٥ - وفى مرتكبى الذنوب الكبائر : يقولون بكفرهم وخلودهم فى النار ، إن ماتوا غير تائبين منها . .

٦ - وفى «العدل» - مبحث «الحرية . . والاختيار» - انحاز الخوارج إلى حرية الإنسان واختياره ، ضد الفكر الجبرى . .

٧ - وفى «التوحيد» : كانوا مع تنزيه الذات الإلهية عن مشابهة

المحدثات ، ومع نفى مغايرة صفات الله لذاته ، أو زيادتها على الذات . . ولقد أدى نفيهم قدم الصفات ، كى لا يتعدد القدماء . . أدى ذلك إلى نفيهم قدم «الكلمة» ، فقالوا - كالمعتزلة - بخلق القرآن .

٨ - وفى الوعد والوعيد : قالوا بصدق وعد الله للمطيع . . وصدق وعيده للعاصى . . دون تخلف الوعد أو الوعيد لسبب من الأسباب .

٩ - وفى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر : قالوا بوجوب إقامة هذه الفريضة - التى هى جماع الفكر السياسى الإسلامى - إقامتها ولو بالثورة ، لتغيير المنكر وإزالة نظم الجور والفساد . .

أما الفِرَق التى انقسموا إليها . . فلقد اشتهر منها :

ا - الأزارقة . . ب - والنجدات . .

جـ - والإباضية . . د - والصفرية . .

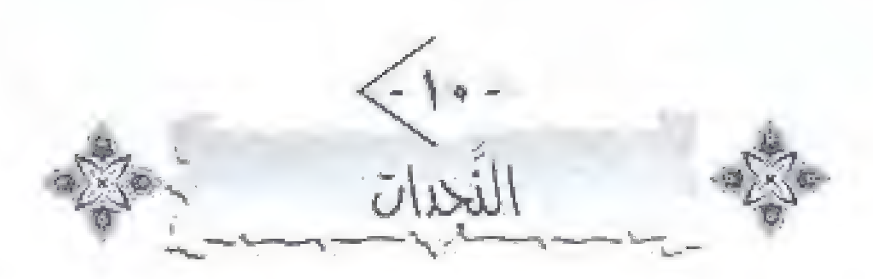
ولقد بقيت منهم ، حتى الآن ، بقايا من الإباضية : فى عُمان . . وتونس . . وزنجبار . . مع تطور فى الفقه . . وابتعاد عن نظرية الأوائل فى الثورة والخروج[1] .

---

(١) مراجع :

(١) [الكامل] للمبرد - طبعة دمشق سنة ١٩٧٢ م .

(٢) [تيارات الفكر الإسلامى] للدكتور محمد عمارة - طبعة دار الشروق - القاهرة سنة ١٩٩١ م .



- ١٠ -
النَّجدات

إحدى فرق الخوارج . . تنسب إلى زعيمها نجدة بن عامر الحنفى - الحرورى - [٣٦ - ٧٢ هـ ٦٥٦ - ٦٩١ م] . . تكونت بعد انقسام الخوارج إلى فرق [٦٤ هـ - ٦٨٤ م] . .

والنجدات يتفقون مع كل الخوارج فى أمور ويتميزون بأمور . . فجميع فرقهم متفقة على أن :

١ - الخلافة والإمامة يتولاها من توفرت فيه شروطها ، عربيا كان أم أعجميا ، قرشيا كان أم غير قرشى . .

٢ - والثورة فريضة ضد أئمة الجور والضعف والفساد . . ووجوبها فرع عن فريضة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .

٣ - وهم يتولون أبا بكر وعمر . . وعثمان بن عفان قبل الأحداث التى أحدثها فى السنوات الأخيرة من حكمه ، ويبرأون منه فيها وبسببها . . ويتولون على بن أبى طالب فيما سبق «التحكيم» بينه وبين معاوية بن أبى سفيان ، ويبرأون منه بسببه وفيما بعده . .

٤ - وطريق الخلافة هو الشورى والاختيار والبيعة من ممثلى الأمة . .

٥ - والإنسان حر مختار . .

٦ - والله ، سبحانه وتعالى ، منزه عن مماثلة ومشابهة المخلوقات والمحدثات . .

في هذه المقولات والأصول تتفق النجدات مع فرق الخوارج الأخرى . . ثم ينفردون عنهم بأمور ، أهمها أن الدين أمران ، هما :

أ - معرفة الله ، سبحانه ، ومعرفة رسوله ، ﷺ ، وتحريم دماء المسلمين وأموالهم .

ب - والإقرار بما جاء من عند الله جملة . . أما تفاصيل الحلال والحرام والشرائع فالجاهل بها معذور .

كما تنفرد النجدات ، في الفكر السياسي ، بالقول إن «الدولة» - أي الإمامة والخلافة - واجبة بالعقل ، وليس بالشرع . . فإقامتها معللة بالحكْمة الغائية منها ، وليست تعبدية ، فإذا قام العدل والتناصف بين الناس ، دون دولة ، لا تجب عليهم إقامتها . . واستندوا في رأيهم هذا إلى عدم وجود نص في الكتاب والسنة يوجب الإمامة والخلافة . . وغيبة النص المتواتر لا تجعل الإجماع على إقامتها شرعيا ، لأن شرعية الاجماع تقتضي استناده إلى نص شرعي . .

والشهرستاني [٤٧٩ - ٥٤٨ هـ ١٠٨٦ - ١١٥٣ م] - وهو أدق من وعى حقيقة مذهبهم هذا - يتحدث عنه فيقول : لقد رأوا «أن الإمامة غير واجبة في الشرع وجوبا لو امتنعت الأمة عن ذلك استحقوا اللوم والعقاب ، بل هي مبنية على معاملات الناس ، فإن تعادلوا وتعاونوا وتناصروا على البر والتقوى ، واشتغل كل واحد من

المكلفين بواجبه وتكليفه ، استغنوا عن الإمام ومتابعته ، فإن كل واحد من المجتهدين مثل صاحبه فى الدين والإسلام والعلم والاجتهاد ، والناس كأسنان المشط .. فمن أين يلزم وجوب الطاعة لمن هو مثله؟!» .

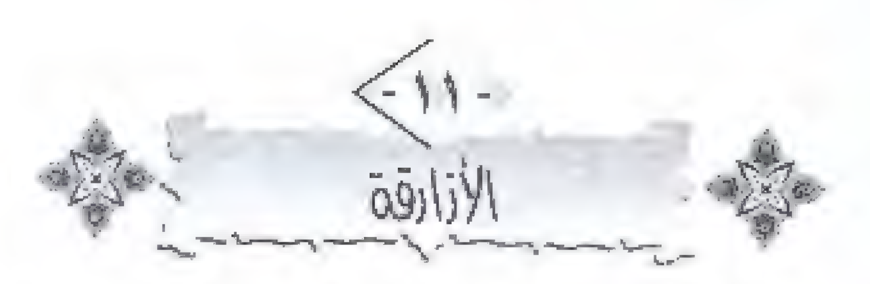
وهذه النظرية فى «الدولة» تشبهها نظريات حديثة تتنبأ بذبول «الدولة» وزوالها فى مراحل قادمة من مستقبل التطور الإنسانى[1] !.



(١) مراجع :

(١) [تاريخ الطبرى] جـ٥ ص ٦٤ . طبعة دار المعارف . القاهرة .

(٢) [تيارات الفكر الإسلامى] للدكتور محمد عمارة - طبعة دار الشروق - القاهرة سنة ١٩٩٦ م .



- ١١ -
الأزارقة

واحدة من أهم فرق الخوارج ، تنسب إلى زعيمها نافع بن الأزرق ابن قيس الحنفى الحرورى [٦٥ هـ ٦٨٥م]

وهم - ككل الخوارج - يرون :

● الإمامة والخلافة فيمن تتوفر فيه شروطها ، بصرف النظر عن جنسه وعن قبيلته . . فلا يشترطون فى الخليفة عروبة ولا قرشية . .

● وطريق الإمامة الشورى والاختيار والبيعة . . فيرفضون قول الشيعة إنها بالنص والتعيين من الله سبحانه وتعالى .

● ويتولون ويوالون أبا بكر الصديق وعمر بن الخطاب ، كخلفاء راشدين . . وكذلك عثمان بن عفان فى السنوات الأولى من عهده . . ويبرأون منه فى السنوات السبع الأخيرة من حكمه ، لما يرون فيها من أحداث مخالفة لرشادة الخلافة ومنهجها . . ومثل ذلك موقفهم من الإمام على بن أبى طالب ، يتولونه فيما قبل «التحكيم» بينه وبين معاوية عقب موقعة صفين ، ثم يبرأون منه بعد التحكيم . .

● ويبرأون من الدولة الأموية ، باعتبارها اغتصابا للخلافة ،

ويرون في خلفائها مرتكبين للذنوب الكبائر ومصرين عليها - أى كفارا - . .

● ويغالون في الحكم على مرتكب الكبائر، المصر عليها، الذى يموت دون توبة منها، فيقولون بكفره، وبخلوده فى النار . . على حين قال البعض بإيمانه، والبعض بنفاقه، والبعض بفسقه وبأنه فى منزلة وسط بين منزلتى الكفر والإيمان، مع خلوده فى النار . - والكفر عندهم منه ما هو «كفر شرك» . . ومنه ما هو «كفر نعمة»، أى جحود لأنعم الله .

● ويقولون بحرية الإنسان واختياره، رافضين «الجبر» الذى كان الفكر التبريرى للمتغيرات التى أحدثها الأمويون فى نظام الحكم الإسلامى . .

● ويشددون على فريضة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وينطلقون منها إلى مايمكن تسميته نظرية «الثورة المستمرة» وتجريد السيف ضد ولاة الجور والضعف والفسق . .

فعندهم أن الثورة تجب إذا بلغ عدد الثائرين أربعين رجلا - وهذا هو «حد الشُّراء»، أى الذين اشتروا الجنة عندما باعوا أرواحهم - . . أما إذا بلغ الثوار ما فوق الثلاثة ودون الأربعين، فهم على «حد الدفاع» - يقفون من أعدائهم موقف الدفاع، لا موقف الخروج - . . فإن كان العدد أقل من الثلاثة جاز لهم

«القعود» - وكانوا على «مسلك الكتمان» - . . أما فى حالة قيام «دولتهم» فإنهم يكونون عندئذ على «حد الظهور» . . فمراتبهم من الثورة والسلطة تتراوح ما بين : «مسلك الكتمان» ، و «حد الدفاع» ، و«حد - الشراء» ، و «حد الظهور» .

وكانت ثورة الأزارقة - بالبصرة وما حولها - أهم أسباب إضعاف الدولة الأموية ، والتى أفضت إلى سقوطها فى يد العباسيين بواسطة الجند الخراسانيين[1] .



---

(١) مراجع :

(١) [تاريخ الطبرى] جـ ٥ .طبعة دار المعارف - القاهرة - .

(٢) [تيارات الفكر الإسلامى] للدكتور محمد عمارة - طبعة القاهرة - سنة ١٩٩١ م .

- ١٢ -

المعتزلة

المعتزلة : واحدة من أبرز وأخطر وأقدم الفرق الإسلامية .. تبلورت ، كمدرسة فكرية ، ذات نظرية متميزة فى الفكر الفلسفى الإسلامى أواخر القرن الهجرى الأول ..

والاعتزال - الذى اشتق منه الاسم - المعتزلة - الذى اشتهرت به هذه الفرقة - يعنى : الانشقاق .. فهذا التيار الفكرى بدأ ، بقيادة واصل بن عطاء الغزال (٨٠ - ١٣١ هـ ٦٩٩ - ٧٤٨ م) فى صورة انشقاق وتميز عن مدرسة فكرية أوسع هى مدرسة «أهل العدل والتوحيد» ، التى كان يقودها - فى البصرة - إمام عصره الحسن البصرى (٢١ - ١١٠ هـ ٦٤٢ - ٧٢٨ م) - فاحتفظ المعتزلة بأبرز المعالم الفكرية لأهل العدل والتوحيد .. مع التميز عنهم والاختلاف معهم فى أصل واحد هو «المنزلة بين المنزلتين» ... ولذلك ، فكثيرا ما يسمى المعتزلة - أيضا - بـ «أهل العدل والتوحيد» !..

وفى إطار المعتزلة ، وعلى يدى أعلامهم ، تبلور فى علوم الحضارة العربية الإسلامية «علم الكلام» الذى مثل الفلسفة الإسلامية - فلسفة «التوحيد» - المتميزة عن فلسفات ذلك العصر ، التى مثلت مواريث اليونان والفرس والهنود فى ذلك التاريخ . فكان علم

الكلام الإسلامى ، الذى ارتاد المعتزلة ميدان إبداعه ، التجسيد لعقلانية إسلامية متميزة عن مذاهب الأمم الأخرى فى مجالات النظر العقلى والإبداع الفلسفى . .

ولقد تميز المناخ الفكرى الذى تبلور فيه الفكر الاعتزالى بعدد من التيارات التى مثلت تحديات فكرية وعملية دخل معها المعتزلة فى عديد من المعارك والصراعات . . ومن أبرز هذه التحديات . .

أ - المؤسسات الفكرية واللاهوتية التى مثلت فلسفات وديانات البلاد التى دخلت فى إطار الدولة الإسلامية بعد الفتوحات . . مؤسسات المسيحية واليهودية ومذاهب الفرس واليونان والهنود . .

ب - والتيار «النصوصى - الحرفى - الإسلامى» ، الذى فزع من «العقلانية اليونانية» - المتحللة من الوحى والنص - فتمسك بالنص وحده ، مهملا سبل النظر العقلى . . حتى لقد عجز عن مواجهة التيارات والمؤسسات المسلحة بهذه العقلانية اليونانية ، ومن ثم عجز عن نشر الإسلام فى البلاد التى تميزت ثقافاتها بالمواريث الفكرية ذات الطابع العقلانى ..

جـ - وتيار «التشيع لآل البيت» الذى وإن أخذ فى الفلسفة بقدر من العقلانية ، إلا أنه ، فى الفكر السياسى - ونظرية «الإمامة» - قد وقع أسير المواريث الفارسية القديمة ، المحملة بمقاصد شعوبية معادية للعرب ، والغارقة فى «نصوصية - حرفية» حول قضية «الإمامة» بالذات ! . .

د - وفرقة الخوارج .. التى وإن تميزت بثورية فى الفكر السياسى، إلا أن «البداوة الفكرية» والاستغراق فى الثورات والهبات والانتفاضات المستمرة قد أعجزتها عن الإبداع الفكرى الذى كان الإسلام فى أمس الحاجة إليه، ليمثل تميزه الفلسفى، فى مناخ احتدم فيه الصراع الفكرى، بعد عصر الفتوحات، وخاصة فى ظلال المبدأ الإسلامى [لا إكراه فى الدين] ..

فى هذا المناخ .. وفى مواجهة هذه التحديات الفكرية والسياسة، تبلورت نظرية المعتزلة، واكتمل نسقهم الفكرى، الذى تمثل فى «الأصول الخمسة»، التى كانت الإطار الجامع لكل من انتسب إلى هذا التيار .. وهذه الأصول الخمسة هى :

١ - **العدل**: ويعنى، فى فكر المعتزلة، تقرير حرية الإنسان واختياره فى ميدان الأفعال الإنسانية المقدورة للإنسان .. ومن ثم تقرير مسئولية الإنسان عن أفعاله، وعن نتائجها .. الأمر الذى يجعل حسابه وجزاءه على أفعاله عدلا إلهيا لا جور فيه ..

ولهذا الأصل من أصول الاعتزال بعد سياسى واسع النطاق .. ذلك أن الفكر الجبرى، الذى ينفى حرية الإنسان واختياره، كان يُستخدم آنذاك لتبرير التحولات السياسية التى أخرجت الخلافة الإسلامية من إطار الشورى - التى تجسد الحرية الإنسانية - إلى دائرة «الملك العضود» .. الذى هو «وراثة» تنتقص من حرية الأمة فى تقرير نظامها السياسى وعلاقة الحاكم بالمحكوم فى دولتها وقواعد توزيع السلطة الإدارية والثروة المالية بين رعيتها ..

٢ - **التوحيد** : ويعنى : تنزيه الذات الإلهية عن مماثلة أو مشابهة أى من المخلوقات والمحدثات وكل ما يدخل فى التصورات - فالله ليس كمثله شيء . . وكل ما خطر على بالك ، فالله ليس كذلك ! . .

ولقد كان لهذا الأصل - الذى بلغ بتصور المعتزلة للذات الإلهية قمة التنزيه والتجريد - أبعادا حضارية ، إلى جانب أبعاده الفلسفية والفكرية - فلقد كان مواجهة رافضة لكل مذاهب «التشبيه» و «التجسيد» و «الحلول» و «الاتحاد» التى طبعت لاهوت وفلسفات المسيحية واليهودية ومذاهب الفرس ونظريات التصوف والنزعات الإشراقية والغنوصية فى ذلك التاريخ . . كان صياغة للتنزيه الإسلامى ، وتمييزا له عن مذاهب الحضارات الأخرى فى تصور الذات الإلهية ، ومحاولة لتنقية الفكر الفلسفى الإسلامى من تأثيرات تلك المذاهب والتصورات . .

٣ - **الوعد والوعيد** : ويعنى استحالة تخلف «وعد» الله للمؤمنين الطائعين بالنجاة والنعيم . . و «وعيده» للكافرين والعصاة بالخسران والجحيم .

ولقد كانت لهذا الأصل ، أيضا ، أبعاده السياسية . . فهو يربط بين «الإيمان» وبين «العمل» الذى يترجم عن هذا «الإيمان» . . الأمر الذى يعنى إدانة أهل الظلم والجور الذين حاولوا ، يومئذ ، الإفلات من هذه الإدانة بواسطة فكر «الإرجاء» ، الذى كان

يكتفى بـ «الإيمان» مرجئا تقييم «العمل» إلى يوم الدين! . . فكأن هذا الأصل - الوعد والوعيد - قد كان - هو الآخر - رفضا للفكر الذى رام أن تفلت النظم الجائرة من الإدانة فى هذه الحياة الدنيا ! . .

٤ - **المنزلة بين المنزلتين**: ويعنى رفض موقف الخوارج ، الذى كان يحكم بـ «الكفر» على مرتكب الكبيرة من الذنوب ، إذا مات غير تائب منها . . ورفض موقف المرجئة ، الذى كان يحكم بـ «إيمان» مرتكب الكبيرة . . وكذلك رفض موقف الحسن البصرى فى هذه القضية . . وهو الذى كان يعتبر مرتكب الكبيرة «منافقا» . .

لقد رفض المعتزلة هذه المواقف . . واعتبروا مرتكب الكبيرة «فاسقا» ، وقالوا إنه فى منزلة ثالثة بين منزلتى «الكفر» و«الإيمان» ، وأنه مخلد فى النار بدرجة دون درجات الكافرين . .

ولقد كان لهذا الأصل ، أيضا ، بعده السياسى . . فالجدل الذى كان قائما حول «مرتكب الكبيرة» قد فجرته التحولات السياسية التى غيرت فلسفة نظام الحكم فى الخلافة الإسلامية من «الشورى» إلى «المُلك العضوض» ، والتى استبدلت الأثرة المالية بالعدالة الإسلامية والإيثار الإسلامى . . فالكبائر السياسية هى التى كان يدور حولها الجدل ، ونظم الجور هى التى كانت موضوعا للتقييم ! . .

٥ - الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر: وهو أكثر أصول المعتزلة ارتباطا بالفكر السياسى الذى صاغوه.. فتحت هذا الأصل يرد:

● وجوب اهتمام الإنسان بأمر الأمة والمجتمع والدولة وكل شئون العمران.. ووجوب الاشتغال بما يجلب المصالح للأمة ويدفع المفاسد عنها.. بما فى ذلك تأييد العدل ومعارضة الجور.. وتنظيم التأييد والمعارضة فى «الأمة».. أى «الجماعة».. التى تنهض بأداء هذه الفريضة الكفائية - الاجتماعية - الإسلامية.. [ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر] - آل عمران ١٠٤ -..

● ويرد: الموقف من وسائل التغيير لنظم الجور والعجز والفسق.. وعلى وجه التحديد، الموقف من استخدام القوة فى هذا التغيير.. فعلى حين رفض الأشعرية وأهل الحديث تجريد السيف فى عملية التغيير هذه.. وعلى حين اشترط الشيعة لجوازه ظهور «الإمام المعصوم» وقيادته لهذا التغيير.. وعلى حين أفرط الخوارج فى استخدام القوة دون ضوابط تذكر.. كان موقف المعتزلة متميزا فى وسطيته.. فهم يشترطون لتجريد السيف فى عملية التغيير لنظم الجور: التحقق من أنها نظم جور ومنكر.. واستنفاد السبل الأخرى للتغيير.. والإعداد الذى يصل إلى حد «التمكن» ليكون النصر مؤكدا، أو غالبا على الظن.. وذلك ضنا بالجهود والطاقات عن الضياع فى التمردات التى لا تأتى إلا بمزيد من الجور

والويلات! . . كما يشترطون اجتماع القوى الساعية إلى التغيير على «إمام» يختارونه بالشورى . . أى على «دولة» بديلة للدولة الظالمة التى يغيرون ! . .

● ويرد - تحت هذا الأصل من أصول المعتزلة الخمسة - الممارسات السياسية التى نهضوا بها - سلمية كانت أو ثورية - فلقد عارضوا دولا . . وأعانوا أخرى . . وقادوا ثورات . . وأيدوا أخرى . . ولم يقفوا - فى هذا الميدان - عند حدود النظر الفكرى المجرد . . لأنهم كانوا ، منذ تبلور تنظيمهم تحت قيادة واصل بن عطاء ، تيارا فلسفيا ، ومعارضة سياسية ، وتوجها حضاريا . . وكان من أعلامهم : الثوار . . والزهاد . . والفلاسفة . . ورجال الدولة . . والعلماء المشتغلون بمختلف علوم النظر وعلوم التجريب . .

لقد مثلوا «العقلانية الإسلامية» ، التى جمعت بين العقل والنقل ، فتميزت عن «العقلانية اليونانية» التى لاتعترف بالنقل . . وعن الغنوصية ، التى لاتعترف بغير «الحدس» و «العرفان» . . وعن «النصوصية - الحرفية» ، التى وقفت عند ظواهر النصوص . . ومثلوا المدرسة الفكرية ، التى كان «الموالى» فى إطارها أعداء الشعوبية وفرسان الدفاع عن عروبة الحضارة الإسلامية ! . .

ومثلوا طلائع الفكر السياسى الذى أقام نظرية الإمامة الإسلامية على فلسفة الشورى والبيعة والاختيار ، فى مواجهة فلسفة «النص - والتعيين» ! . .

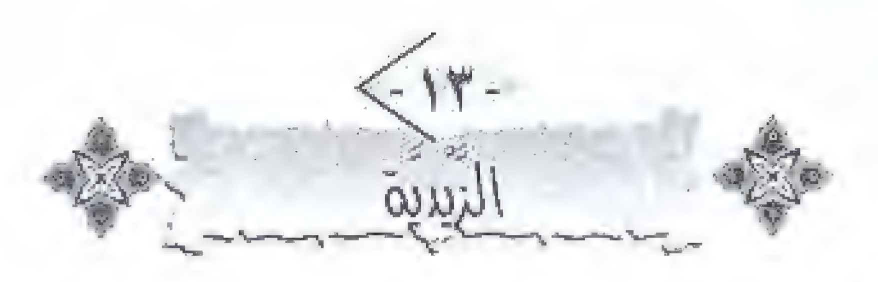
وكانوا فرسان الدفاع عن «حرية الإنسان واختياره ومسئوليته» ، على النحو الذى تميز به الإسلام ، عندما ميز بين خلق الله ، الذى لايقدر عليه سواه . . وبين الخلق المقدر للإنسان ، كخليفة عن الله[1] ! . .



---

(١) مراجع :

- [المغنى فى أبواب التوحيد والعدل] لقاضى القضاة عبد الجبار بن أحمد الهمدانى - طبعة القاهرة - الهيئة العامة للكتاب .
- [الإسلام وفلسفة الحكم] د. محمد عمارة - طبعة القاهرة سنة ١٤٠٩ هـ سنة ١٩٨٩م .
- [المعتزلة ومشكلة الحرية الإنسانية] - د محمد عمارة - طبعة القاهرة سنة ١٩٨٨ م .



- ١٣ -
الزيدية

الزَّيدِيَّة : واحدة من الفرق الإسلامية ، التي تميزت - إلى حد ما - بمسائل ومقالات في نظرية الإمامة ، وعلم الكلام ، والفكر السياسي ، والاجتهادات الفقهية .. والتي مارست العمل السياسي ، والثوري ، وأقامت الدول ، ولا يزال لها جمهور يتمذهب بمذهبها حتى الآن .

ولقد أخذت الزيدية اسمها من اسم إمامها وفيلسوفها وفقيهها وثائرها الأول : الإمام زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب [٧٩ - ١٢٢ هـ ٦٩٨ - ٧٤٠ م] الذي ثار - في الكوفة .. من أرض العراق - ضد الدولة الأموية سنة ١٢٢ هـ سنة ٧٤٠ م ، على عهد الخليفة هشام بن عبد الملك [٧١ - ١٢٥ هـ ٦٩٠ - ٧٤٣م] .

وبعد أن هُزمت ثورة زيد بن علي ، واستشهد هو وأغلب الذين صمدوا معه في القتال ، استمرت معارضة أنصاره ، وتواصلت ثوراتهم ضد الدولة الأموية ، ثم ضد العباسية ، بعد أن زال حكم الأمويين .

ولقد كان زيد بن علي واحدا من قيادات شباب آل البيت : الثائرين على استئثار الأمويين بالدولة والسلطان وحرمان العلويين منهما .. ولقد تبنى الأصول الخمسة للمعتزلة ، وأخذ مذهبهم عن زعيمهم واصل بن عطاء [٨٠ - ١٣١ هـ ٧٠٠ - ٧٤٨م] مخالفا

بذلك تيارا من آل البيت يتزعمه جعفر الصادق [٨٠ - ١٤٨ هـ ٦٩٩ - ٧٦٥ م] - وهو تيار الشيعة الإمامية - .. فلما أعلن زيد ثورته ، التى ساندته فيها المعتزلة ، تبلورت له توجهات سياسية إلى جانب توجهاته الفلسفية ، مضافة إلى عطائه فى الفقه والزهد وعلوم الإسلام .. فكان تراثه هو الفكر الذى تواصلت من أجله ثورات أتباعه ، والمسائل والمقالات التى تبلورت حولها فرقة الزيدية بعد ذلك ، كواحدة من الفرق التى انتصرت لآل البيت ، وتدعو إلى أن تكون الإمامة والخلافة فى نسل على بن أبى طالب من زوجه فاطمة الزهراء ، بنت رسول الله ، ﷺ ، والتى تسلك إلى الإمامة سبيل الجهاد والثورة على ولاة الجور والتَّغلُّب ، وتتبنى فى علم الكلام أصول المعتزلة الخمسة ..

ففى الفكر السياسى ، انطلقت الزيدية من المبادئ التى حددها زيد بن على فى إعلان ثورته :

١ - الالتزام بكتاب الله وسنة رسوله ، ﷺ .

٢ - والجهاد ضد السلطة الظالمة وأعوانها ..

٣ - ونصرةَ المستضعفين فى الأرض ..

٤ - وإنصاف المحرومين الذين أجحف بهم الظلم الأموى ..

٥ - والعودة إلى نهج الإسلام فى التسوية بين الناس فى قسمة الفيء ..

٦ - وإغلاق المعسكرات النائية التى جعلت الدولة منها منافى للمناوئين لها ..

٧ - ونصرة آل بيت الرسول ، ﷺ ، الذين استأثر الأمويون دونهم بالخلافة والسلطان . .

كان هذا هو الفكر السياسي الذى انطلقت منه ثورات الزيدية ، والذى تبلورت حوله الزيدية كفرقة من فرق المسلمين . .

فهم يدعون إلى نصرة آل البيت ، ويرون أن الأولى بالخلافة ، هم أبناء على بن أبى طالب من فاطمة الزهراء ، لكنهم يتميزون عن فرق الشيعة الأخرى التى تقول بذلك ، برفضهم أن يكون طريق الإمامة هو الوراثة ، يوصى بها الإمام للذى يليه ، ودعوتهم إلى أن يكون الجهاد والخروج على ولاة الجور هو طريق الإمامة . . وبعبارة زيد بن على : «ليس الإمام منا من أرخى عليه ستره . . وإنما الإمام من شهر سيفه» .

كذلك تميزت عقيدة الزيدية فى الإمامة عن غيرهم من فرق الشيعة ، برفضها فكرة وجود «نص ووصية وتعيين» لذوات الأئمة الاثنى عشر - كما هو الحال عن الشيعة الاثنى عشرية - فلقد قالت الزيدية إن «النَّص» إنما كان على «صفات» الإمام ، وليس على «ذات» الإمام . . وأن النص على الصفات قد اقتصر على الأئمة - الثلاثة الأول - على بن أبى طالب ، والحسن والحسين - . . وبعد هؤلاء الثلاثة فالإمام هو المجاهد الثائر العالم من أبناء فاطمة الزهراء . . كذلك تميزت الزيدية عن بقية الشيعة برفضهم الغلو فى العداء للخلفاء الراشدين والصحابة الذين قدَّموا أبا بكر وعمر وعثمان على علىّ فى ترتيب الخلافة ، فبرئت الزيدية من اتهام الصحابة بالكفر أو الفسوق . . وأكثر ما قالوه : إن الصحابة تأولوا فأخطأوا فى تأخير ولاية علىّ للخلافة . .

انطلاقا من هذا الفكر السياسى ، وعلى أساسه توالت ثورات الزيدية ، عقب استشهاد زيد بن على . .

● ففى الجوزجان - من بلاد همذان - ثاروا بقيادة ابنه يحيى ابن زيد بن على سنة ١٢٦ هـ سنة ٧٤٤ م ، ضد حكم الخليفة الأموى الوليد بن يزيد [٨٨ - ١٢٦ هـ ٧٠٧ - ٧٤٤ م] . .

● وبعد هزيمة يحيى واستشهاده ، ثارت الزيدية- فى الكوفة - بقيادة عبدالله بن معاوية بن عبد الملك بن جعفر بن أبى طالب سنة ١٢٧ هـ سنة ٧٤٤ م فى عهد آخر الخلفاء الأمويين مروان بن محمد [٧٢ - ١٣٢ هـ ٦٩٢ - ٧٥٠م] .

● وفى سنة ١٤٥ هـ سنة ٧٦٢ م ثارت الزيدية - بالمدينة المنورة - بقيادة النفس الزكية ، محمد بن عبدالله بن الحسن بن على بن أبى طالب [٩٣ - ١٤٥ هـ ٧١٢ - ٧٦٢م] ضد الخليفة العباسى أبو جعفر المنصور [٩٥ - ١٥٨ هـ ٧١٤ - ٧٧٥م] . . وبعد قمع هذه الثورة ، واستشهاد قائدها ، تواصلت وقائعها - فى البصرة وما حولها - بقيادة أخيه إبراهيم بن عبدالله بن الحسن [٥٧ - ١٤٥ هـ ٧١٦ - ٧٦٣ م] إلى أن هزمت أيضا . .

● وفى خلافة المأمون العباسى [١٧٠ - ٢١٨ هـ ٧٨٦ - ٨٣٣م] ثارت الزيدية - ببلاد الطالقان ، بخراسان - بقيادة الإمام الزيدى محمد بن إبراهيم بن طباطبا [١٩٩ هـ - ٨١٤م] . . وبعده تولى إمامتهم محمد بن محمد بن زيد بن على . . ثم انتقلت إمامتهم إلى محمد بن القاسم بن عمر بن على بن الحسين [٢١٩ هـ - ٨٣٤ م] .

● وفى سنة ٢٥٠ هـ سنة ٨٦٤ م عـادت الزيدية إلى الثـورة -بالكوفة - خلف إمامها يحيى بن عمر بن الحسين بن عبدالله بن إسماعيل بن جعفر بن أبى طالب . .

● وفى طبرستان نجحت ثورتهم فى أن تقيم لهم دولة استمرت خمسة وسبعين عاما - من سنة ٢٥٠ هـ سنة ٨٦٤ م حتى سنة ٣١٦ سنة ٩٢٨ م . .

● ومن المؤرخين من يدخل «ثورة الزنج» ، التى قادها على بن محمد [٢٧٠ هـ - ٨٨٣م] بالعراق - فى زمرة الثورات الزيدية ، وهى الثورة التى أقامت دولة حاربت الخلافة العباسية لأكثر من عشرين عاما [٢٤٩ - ٢٧٠هـ ٨٦٣ - ٨٨٣ م] . .

● أما أشهر ثورات الزيدية ، التى أقامت أكبر دولهم وأطول هذه الدول عمرا ، فهى الثورة التى قادها إمامهم الهادى إلى الحق ، يحيى بن الحسين [٣٤٠ - ٤٢٤ هـ ٩٥٢ - ١٠٣٣م] والتى أسست دولتهم فى اليمن سنة ٢٨٨ هـ سنة ٩٠١ م . . وهى التى توالى على حكمها واحد وسبعون إماما زيديا ، كان آخرهم المنصور بالله ، محمد البدر بن أحمد بن يحيى حميد الدين ، الذى أطاحت به وبالإمامة الزيدية ودولتها الثورة اليمنية فى ٢٦ ربيع ثانى سنة ١٣٨٢ هـ ٢٦ سبتمبر سنة ١٩٦٢ م . .

فإذا أضفنا عدد أئمة الزيدية فى اليمن إلى أئمة فرقتهم منذ مؤسسها زيد بن على بلغ تعدادهم تسعة وثمانين إمام ، يضاف

إليهم على بن أبى طالب ، والحسن ، والحسين ، ليصل عدد أئمة الزيدية إلى اثنين وتسعين إماما . .

* * *

وكما تبلور الفكر السياسى للزيدية انطلاقا من مبادئ ثورة إمامها زيد بن على . . كذلك انحازت فى المقالات الكلامية إلى أصول المعتزلة الخمسة - التى تبناها زيد بن على - واستمرت هذه الأصول الاعتزالية قسمة ملحوظة فى فلسفة علماء الزيدية منذ انتساب زيد بن على إلى المعتزلة ، وتتلمذه على واصل بن عطاء ، حتى أن دولة الزيدية باليمن هى التى حفظت تراث المعتزلة بعد أن اضطهدوا منذ عصر الخليفة العباسى المتوكل [٢٣٣ - ٢٤٧ هـ ٨٤٧ - ٨٦١م] ، وظل هذا التراث مغلقة على مخطوطاته صناديق مكتبة الجامع الكبير فى صنعاء حتى اكتشفته البعثة المصرية التى ذهبت إلى هناك - من دار الكتب المصرية وجامعة فؤاد الأول - القاهرة سنة ١٩٥١ م . . فكانت الإضافة الفكرية التى أتاحت للباحثين الكتابة عن المعتزلة بالاستناد إلى مصادرهم هم ، وليس بالرجوع إلى مصادر خصوم الاعتزال . .

وعن تمذهب الزيدية بأصول المعتزلة الخمسة ، يقول الشهرستانى [٤٧٩ - ٥٤٨ هـ ١٠٨٦ - ١١٥٣م] : «إن زيد بن على قد اقتبس الاعتزال من واصل بن عطاء ، وصارت أصحابه كلها معتزلة ، يرون فى الأصول رأى المعتزلة . . ويعظمون أئمة المعتزلة أكثر من تعظيمهم أهل البيت» الذين يعظمهم الشيعة الإمامية . . وهذه الأصول الخمسة هى :

١ - **التوحيد**.. أى تنزيه الذات الإلهية إلى الحد الذى يجعل صفات الله عين ذاته، حتى لاتكون هناك شبهة للتعدد أو مماثلة المخلوقات والمحدثات.. وفى هذا التنزيه رفض لمذاهب الحلول والاتحاد والتشبيه والتجسيم..

٢ - **والعدل**.. الذى يعنى أن الإنسان حر مختار صانع لأفعاله الاختيارية مسئول عنها، ومن ثم فإن محاسبته عليها عدل.. وذلك حتى لايؤدى الجبر إلى شبهة إلحاق الجور بالذات الإلهية، إذا هى حاسبت الإنسان على ماهو مجبر على فعله.. وفى هذا العدل رفض للفكر الجبرى، بمختلف درجاته..

٣ - **والوعد والوعيد**.. وهو يعنى عدم الفصل بين «الإيمان» و«العمل».. فوعد الله للطائعين صدق لايمكن أن يتخلف عن الوقوع، وكذلك وعيده للعصاة.. وفى ذلك رفض لفكرة «الشفاعة» للفسقة، مع تجويزها للمؤمنين.. وفيه - أيضا - رفض لفكر «المرجئة» الذى يمد حبال الأمل للظالمين فى النجاة يوم الدين..

٤ - **والمنزلة بين المنزلتين**.. ويعنى هذا الأصل أن مرتكبى الذنوب الكبائر، غير التائبين منها، ليسوا مؤمنين - كما قالت المرجئة - وليسوا كفارا - كما قالت الخوارج - وإنما هم - إذا لم يتوبوا قبل موتهم - فى منزلة بين منزلتى المؤمنين والكفار..

٥ - **والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر**.. وهو جماع الفكر السياسى، والمشاركة الإيجابية فى أمر الأمة والمجتمع.. ومنه الانطلاق إلى وجوب تغيير المنكر السياسى، المتمثل فى سلطة

الجور وولاية التَّغلُّب ، بالثورة والجهاد . . وفيه رفض لفكر «أهل الحديث» - من السلفية - الذين قالوا - بعبارة الإمام أحمد بن حنبل [١٦٤ - ٢٤١ هـ ٧٨٠ - ٨٥٥م] - : «إن من غلب بالسيف حتى صار خليفة ، وسُمّى أمير المؤمنين ، فلا يحل لأحد يؤمن بالله واليوم الآخر أن يبيت ولا يراه إماما عليه ، برًا كان أو فاجرا ، فهو أمير المؤمنين » . .

وفى هذا الأصل - أيضا - رفض لموقف الشيعة الإمامية ، الذين يحرّمون الثورة والخروج على ولاة الجور إلا إذا ظهر إمامهم الغائب .

تلك هى الأصول الخمسة ، التى مثلت جماع المذهب الكلامى للزيدية ، والتى احتذوا فيها حذو المعتزلة . .

* * *

أما فى الفقه - علم الفروع - فإن الزيدية هم أقرب إلى مذهب أبى حنيفة [٨٠ - ١٥٠ هـ ٦٩٩ - ٧٦٧ م] مع موافقة لمذهب الشافعى [١٥٠ - ٢٠٤ هـ ٧٦٧ - ٨٢٠ م] فى بعض المسائل . . وإن كانوا قد صاغوا هذا المذهب صياغة متميزة فى اجتهادات أئمتهم ، وفى مقدمتهم زيد بن على فى كتابه [مجموع الفقه] - والهادى إلى الحق ، يحيى بن الحسين - فى فتاواه التى جمعت فى كتاب [الوافى فى فقه الهادوية الزيدية] - ومن أتى بعدهم من فقهائهم العظام . .

* * *

ولأن الزيدية قد عاشت عمرا طويلا - منذ القرن الهجرى الأول

حتى عصرنا الراهن - وقامت ثوراتها وأقامت دولها فى أقاليم مختلفة ، فلقد كان طبيعيا أن تتمايز التيارات الفكرية فى إطارها ، حتى ليذهب بعض الذين أرخوا لها إلى الحديث عن انقسامها إلى اثنتى عشرة «فرقة» . . لكن المؤكد أنه قد تمايزت فى إطارها فرق ثلاث :

١ - **الصالحية**: نسبة الى الحسن بن صالح بن حى الهمذانى [١٠٠ - ١٦٨ هـ ٧١٨ - ٧٨٤ م] وهى أكثر ميلا إلى فكر أهل السنة . . وأكثر نقدا لأفكار الشيعة الإمامية الاثنى عشرية . .

٢ - **والسليمانية**: وهم أصحاب سليمان بن جرير الرقى ، الذى انفصل عن الشيعة الإمامية الاثنى عشرية ، وكان - هو وأصحابه - قريبين من فكر أهل السنة ، ناقدين لفكر الاثنى عشرية . . مع خلاف للمعتزلة فى قضية الصفات . .

٣ - **والجارودية**: أصحاب أبى الجارود ، زياد بن أبى زياد المنذر الهمدانى [المتوفى سنة ١٥٠ هـ سنة ٧٦٧ م أو سنة ١٦٠ هـ سنة ٧٧٧ م] . . ولقد كان - فى الأصل - من الاثنى عشرية ، ثم تركهم والتحق بالزيدية ، وهو ممن ثار وحارب مع زيد بن على . . ولقد مثل - فى الزيدية - التيار الأقرب إلى فكر الشيعة الإمامية . .

وكما تمايزت هذه «الفرق» فى إطار الزيدية - بناء على القرب أو البعد عن كل من أهل السنة والشيعة الاثنى عشرية - شهدت الزيدية تمايزا آخر بناء على الموقف من فكر الاعتزال وأصول المعتزلة الخمسة . . فكان فيهم معتزلة انتسبوا إلى الزيدية - مثل الحاكم

الجشمى [٤١٣ - ٤٩٤ هـ ١٠٢٢ - ١١٠١ م]- . . وزيدية اعتزلوا - مثل أحمد بن يحيى بن المرتضى [٧٦٤ - ٨٤٠ هـ ١٣٦٣- ١٤٣٦م] - . . ومنهم من تحققت فى فكره الموازنة والامتزاج بين الزيدية والمعتزلة - مثل المؤيد بالله ، أبو إدريس يحيى بن حمزه [٦٦٩ - ٧٤٩ هـ ١٢٧٠ - ١٣٤٨ م] - . . ومنهم من عارض المعتزلة ، بسبب الخلاف حول نظرية الإمامة- مثل حميدان بن يحيى بن حميدان [٦٥٦ هـ - ١٢٥٨م] - . .

كذلك شهدت الزيدية ، فى عصورها المتأخرة ، كوكبة من أعلام علمائها ، اقتربت أكثر وأكثر من أهل السنة ، حتى أصبحت اجتهاداتهم ضمن مرجعية أهل السنة ، فحققوا همزة الوصل بين الزيدية وأهل السنة . . وهو هؤلاء المجتهدين المجددين : ابن الوزير ، محمد بن إبراهيم بن على بن المرتضى [٧٧٥ - ٨٤٠هـ ١٣٧٣ - ١٤٣٦م] . .وابن الأمير ، محمد بن إسماعيل بن صلاح بن محمد بن حفظ الدين الأمير [١٠٩٩ - ١١٨٢ هـ ١٦٨٨ - ١٧٦٨م] . . وأشهرهم الشوكانى ، محمد بن على بن محمد بن عبدالله الشوكانى [١١٧٣ - ١٢٥٠ هـ ١٧٥٩ - ١٨٣٤م] . . ففى المشاريع الفكرية والاجتهادات الفقهية لهؤلاء الأعلام التحمت الزيدية مع أهل السنة تحت مظلة التجديد للفكر الإسلامى ، وهو التجديد الذى سبق عصر الزحف الاستعمارى الأوربى على بلادنا ، والذى عاجله هذا الاستعمار ، حتى يحل نموذجه الغربى محل نموذج الإسلام فى التقدم والنهوض . .

* * *

ولأن اليمن قد شهدت أطول دول الإمامة الزيدية عمرا ، والمكان الذى استقرت فيه الزيدية كفرقة . . فلقد انحصر الوجود الزيدى - تقريبا- فى اليمن ، ويبلغ تعدادهم - وفق إحصاء سنة ١٩٩٠ م - ٤,٠٠٠,٠٠٠ (أربعة ملايين) أى نحو ٣٥٪ من تعداد سكان اليمن - وهو ١١,٥٠٠,٠٠٠ نسمة - . .

ولقد تراجع تأثير الزيدية - كفرقة - بسبب الجمود الفكرى الذى ساد فى العصور المتأخرة من عمر دولتها باليمن ، ثم تراجع أكثر وأكثر عندما دالت دولتها ، بإلغاء نظام الإمامة ، وإعلان الجمهورية فى اليمن سنة ١٣٨٢ هـ سنة ١٩٦٢م[1] .



(١) مراجع :

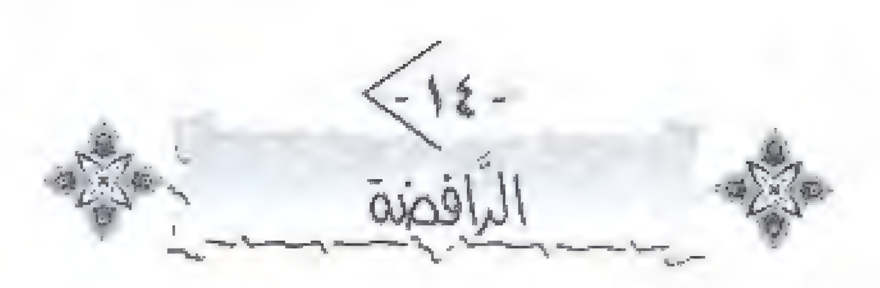
(١) [رسائل العدل والتوحيد] دراسة وتحقيق : د . محمد عمارة . طبعة القاهرة سنة ١٩٨٧م .

(٢) [الملل والنحل] للشهرستانى . طبعة القاهرة سنة ١٣٢١ هـ .

(٣) [الزيدية] للدكتور أحمد محمود صبحى . طبعة القاهرة سنة ١٩٨٤م .

(٤) [تيارات الفكر الإسلامى] للدكتور محمد عمارة . طبعة القاهرة سنة ١٩٩٨ م

(٥) [الإسلام وفلسفة الحكم] للدكتور محمد عمارة . طبعة القاهرة سنة ١٩٨٩ م



- ١٤ -
الرَّافضة

الرافضة- فى عرف أهل السنة والجماعة - بمذاهبهم ومدارسهم المختلفة - : هم الشيعة ، الذين ، سموا بذلك ، لرفضهم شرعية خلافة أبى بكر الصديق ، وعمر بن الخطاب ، وعثمان بن عفان ، رضى الله عنهم . . ومن ثم رفضوا شرعية التاريخ الإسلامى ، انطلاقا من دعواهم وجود «نص» و«تعيين» إلهى للإمام على بن أبى طالب ، كرم الله وجهه ، إماما للمسلمين وخليفة لرسول الله ، ﷺ . .

فرفض الشيعة - بجميع فروعها القائلة «بالنص» و «التعيين» للإمام على . . والرافضة للشورى والبيعة والاختيار للخليفة من الأمة . . ومن ثم رفضهم للخلفاء الراشدين : أبى بكر ، وعمر ، وعثمان - الذين تولوا الخلافة بالشورى والبيعة والاختيار . . هذا «الرفض» الشيعى ، هو الذى جعل هذا المصطلح - «الرافضة» - علما على أصحاب هذا الموقف الرافض لشرعية الخلافة الراشدة . . وللتاريخ الذى صنعته ، ولمذهب أهل السنة والجماعة فى هذا الموضوع . .

وفى كتاب [منهاج السنة] لشيخ الإسلام ابن تيمية [٦٦١ - ٧٢٨ هـ ١٢٦٣ - ١٣٢٨م] - وهو الذى عقده «لنقض كلام الشيعة والقدرية» - تجده يطلق مصطلح «الرافضة» على الشيعة الإمامية . .

فيقول ، فى مقدمته ، معللا تأليفه إياه : «أما بعد . فإنه أحضر إلىّ طائفة من أهل السنة والجماعة كتابا صنفه بعض شيوخ الرافضة فى عصرنا . . يدعو به إلى مذهب الرافضة الإمامية . .» . . ثم يمضى ابن تيمية مفتتحا أغلب فصول كتابه بعبارة : [فصل : قال الرافضى] . . .

وفى الوقت الذى اصطلح فيه أهل السنة والشيعة على أن مصطلح «الشيعة» هو المميز للقائلين من شيعة على وآل البيت «بالنص» و «الوصية» فى تعيين الإمام وتمييزه . . واصطلح فيه أهل السنة على وصف الشيعة «بالرافضة» ، فلقد تحفظ الشيعة على قبول هذا المصطلح ، وإن لم يتحفظوا على الموقف الرافض لشرعية خلافة أبى بكر وعمر وعثمان ! . .

لكن الرفض الشيعى لمصطلح «الرافضة» علما على فرقتهم ، لم يمنع بعضا منهم - فرط اعتزاز منه بالمذهب - من القبول به . . كالشاعر الشيعى الذى قال :

إن كان رفضا حب آل محمد   فليشهد الثقلان أنى رافض ! . .

هذا عن المصطلح . . ودلالته . . وموضوعه . .

أما البدايات والملابسات التى شهدت ظهور هذا المصطلح وتداوله فى الحياة الفكرية والسياسية الإسلامية ، فإن أغلب المصادر الإسلامية تحدد مجتمع الكوفة إبان ثورة الإمام زيد بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب [٧٩ - ١٢٢ هـ ٦٩٨ - ٧٤٠م] ضد الحكم الأموى ، على عهد الخليفة هشام بن عبد الملك [٧١ -

١٢٥ هـ ٦٩٠ - ٧٤٣م] . . مكانا وزمانا لبدء ظهور وتداول هذا الاصطلاح . .

فزيد بن على كان واحدا من ثوار شباب آل البيت ، الذين خالفوا إمام الشيعة فى عصره الصادق ، جعفر بن محمد [٨٠ - ١٤٨ هـ ٦٩٩ - ٧٦٥م] عندما تمذهب ، فى الأصول ، بمذهب المعتزلة ، وتبع فى ذلك واصل بن عطاء [٨٠ - ١٣١ هـ ٦٩٩ - ٧٤٨ م] . . وعندما اتجه ، فى المعارضة لبنى أمية إلى طريق الثورة وتجريد السيف ، مخالفا نصيحة جعفر الصادق لشيعة آل البيت ، التى يقول فيها : «إن بنى أمية يتطاولون على الناس ، حتى لو طاولتهم الجبال لطالوا عليها! . وهم يستشعرون بغض أهل البيت . ولا يجوز أن يخرج واحد من أهل البيت حتى يأذن الله بزوال ملكهم ! . . »

خالف زيد بن على عمه جعفر الصادق ، عندما تمذهب بأصول المعتزلة الخمسة . . وعندما سلك سبيل الثورة فى تغيير النظام الأموى القائم . . فلما أعلن ثورته ضد هشام بن عبد الملك ، من الكوفة ، أواخر المحرم سنة ١٢٢ هـ - أواخر ديسمبر سنة ٧٣٩ م - رفض الشيعة الإمامية - أتباع جعفر الصادق - الانخراط فى القتال معه - بعد أن كانوا قد بايعوه - فسموا «رافضة» - لذلك - منذ ذلك التاريخ! . .

ومن المؤرخين من يعلل رفض الشيعة الإمامية للثورة خلف زيد ابن على بامتناعه عن إدانة أبى بكر الصديق وعمر بن الخطاب - رغم تفضيله على بن أبى طالب عليهما - . .

ولقد شارك فى «رفض» الثورة خلف زيد بن على فريق آخر من شيعة آل البيت ، الذين كانوا يدعون لبنى العباس . . فكتب محمد بن على [٦٢ - ١٢٥هـ ٦٨١ - ٧٤٣ م] إلى داعيته فى العراقين بكير بن ماهان طالبا تحذير شيعته من الثورة مع زيد . . فرفضوه هم أيضا ! . .

وسواء أكانت بداية ظهور المصطلح بسبب رفض الشيعة الإمامية طريق الثورة يومئذ . . أو بسبب اعتراف زيد بن على بشرعية خلافة أبى بكر وعمر ، وإنكاره رفضهم لشرعية خلافتهما . . فيبقى «رفض» الشيعة الإمامية لشرعية الخلافة الراشدة ، وشرعية التاريخ الإسلامى وشرعية مذهب أهل السنة والجماعة فى سبل تعيين الخليفة ، بواسطة الشورى والبيعة والاختيار . . يبقى هذا «الرفض» السبب فى إطلاق هذا المصطلح على فرقتهم من قبل أهل السنة والجماعة . .

كما تبرز أحداث ثورة زيد بن على الملابسات والتاريخ الذى ظهر فيه هذا المصطلح إلى ميدان الحياة الفكرية والسياسة فى تاريخ الإسلام والمسلمين[١] .

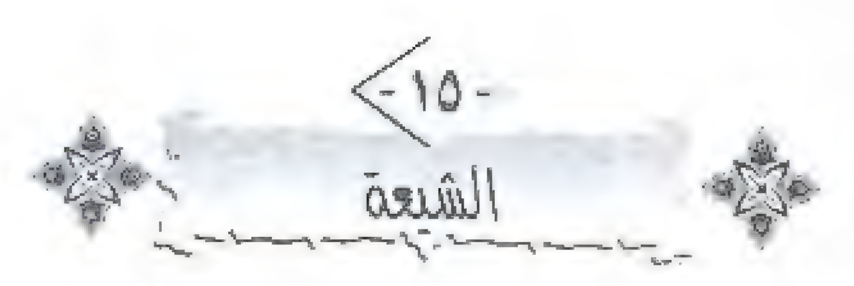
---

(١) مراجع :

(١) [الملل والنحل] - للشهرستانى - طبعة القاهرة سنة ١٣٢١ هـ .

(٢) [ثورة زيد بن على] - لناجى حسن - طبعة بغداد سنة ١٩٦٦ م

(٣) [تيارات الفكر الإسلامى] للدكتور محمد عمارة - طبعة بيروت سنة ١٩٨٥ م .



-١٥-
الشيعة

الشيعة - لغة - : القوم الذين يجتمعون على الأمر . . والفرقة من الناس . . وأتباع الرجل وأنصاره . . وهى من المشايعة ، أى المطاوعة والمتابعة . .

وجمع الشيعة : شِيَع . وجمع الجمع : أشياع .

ولقد اشتهرت كلمة الشيعة - فى الاصطلاح - للدلالة على الفرقة : أو الفرق - الذين يتولون ويشايعون الإمام على بن أبى طالب ، كرم الله وجهه ، وآل بيته : حتى صار مصطلح الشيعة اسما خاصا بهم .

ولقد بدأت شيعة علىّ والتشيع له فى صورة أولية ، تمثلت فى الميل إليه ، وتمنى تقديمه فى ترتيب تولى الخلافة بعد رسول الله ، ﷺ ، وكان ذلك من قبل بعض بنى هاشم ، ونفر من الصحابة ، يذكر فيهم المقداد بن الأسود ، وسلمان الفارسى ، وأبو ذر الغفارى . .

أما المعيار الفارق الذى يميز الشيعة - كفرقة من الفرق الإسلامية - فلقد تجاوز الميل إلى علىّ والتفضيل له وتقديمه فى الترتيب بين الخلفاء الراشدين . . وأصبح هذا المعيار- فى مذهب الشيعة - هو دعوى وعقيدة أن إمامة على بن أبى طالب والأئمة من بنيه إنما هى «بالنص والوصية والتعيين» ، أى النص الإلهى والوصية

الدينية ، التى بلّغها رسول الله ، ﷺ ، للأمة ، كما بلّغ أصول الدين . . فهى ، عندهم ، المرادة بقول الله ، سبحانه وتعالى ﴿ يا أيها الرسولُ بلّغ ما أُنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلّغت رسالته ﴾ [المائدة: ٦٧] . .

فكل من عدا الشيعة - من الفرق الإسلامية - قد قالوا إن الإمامة ، والخلافة طريقها الشورى والاختيار والبيعة من الأمة أو نوابها . . بينما انفردت الشيعة - بفرقها المتعددة - بادعاء أن الإمامة سبيلها «النص والوصية والتعيين» ، فهى شأن دينى سماوى ، وهى من أمهات العقائد الدينية ، ولا مدخل للأمة أو الشورى فيها . .

والشيعة قد قاسوا «الإمامة» على «النبوة» ، فجعلوها - كالنبوة- اصطفاء إلهيا ، لا اختيارا بشريا ، وجعلوا للإمام العصمة التى للأنبياء ، بل ورفعوا مكانتها على مكانة النبوة ، لأن النبوة ، عندهم ، «لُطف خاص» أى انتهى دورها - بينما الإمامة «لُطف إلهى عام» - لأنها مستمرة بأداء رسالة النبوة ، بعد انتهاء طور النبوات . . حتى ليقول الإمام آية الله الخمينى - عن علو مقام الأئمة على الملائكة المقربين والأنبياء المرسلين : «إن من ضرورات مذهبنا أن لأئمتنا مقاما لا يبلغه ملك مقرب ولا نبى مرسل»! . .

ولقد انعكست هذه العقيدة ، التى ميزت نظرية الإمامة عند الشيعة ، والتى ميزت الشيعة عن من عداها من الفرق الإسلامية ،

انعكست عل صفات الإمام عندهم ، وعلى السلطات التى اختصوه بها . .

* * *

وباستقراء المصادر الأصلية ، التى كتبت فى نظرية الإمامة - من قبل مختلف الفرق الإسلامية - وفى مقدمتها المصادر الشيعية - لا نجد ذكرا ولا مجرد إشارة لعقيدة «النص والوصية» قبل عصر إمامهم السادس - الصادق - أبو عبدالله جعفر بن محمد [٨٠ - ١٤٨ هـ ٦٩٩ - ٧٦٥م] . . وأقدم عناوين المؤلفات التى كتبت فى الإمامة - والتى أحصاها ابن النديم [٤٣٨ هـ - ١٠٤٧م] فى [الفهرست] - والتى أشارت إلى فكرة «الوصية» بالإمامة : منسوب إلى عالمهم هشام بن الحكم [١٩٠ هـ ٨٠٥م] . . فمن مؤلفاته [كتاب الوصية والرد على من أنكرها] . .

ويشهد لهذه الحقيقة - حقيقة الظهور المتأخر لعقيدة الشيعة فى «النص والوصية والتعيين» - خلو تاريخ الصراع على الإمامة قبل ذلك التاريخ من أية إشارة للاحتجاج بهذه العقيدة فى ذلك الصراع . . فلقد اختلف المسلمون حول من يتولى الخلافة - عقب وفاة رسول الله ، ﷺ - فى سقيفة بنى ساعدة ولم يذكر أحد من الفرقاء الذين اختلفوا أن هناك نصا وتعيينا لمن يليها . . وتأخرت بيعة على بن أبى طالب لأبى بكر الصديق عدة أشهر ، ثم بايع ، ولم يؤثر عنه فى ذلك التاريخ تعليل لتأخر بيعته بأن هناك نصا يعينه هو للخلافة بدلا من الصديق . . ثم شارك علىّ فى شورى

البيعة لكل من عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان ، دون أن يشير إلى أن هناك نصا إلهيا ووصية نبوية باختصاصه هو ، دون غيره ، بالإمامة والخلافة . وبعد مقتل عثمان ، عقدت البيعة بالخلافة لعلى بن أبى طالب ، وتلقاها وتولاها هو بالبيعة ، ولم يؤثر عنه أنه قال لمبايعيه : لست فى حاجة إلى بيعتكم ، لأن هناك نصا على إمامتى ، يخرجها عن الشورى والاختيار والبيعية . . بل إن كتاب [نهج البلاغة] ، الذى جمعه الشيعة - بواسطة إمامهم «الشريف الرضى» [٣٥٩ - ٤٠٦ هـ ٩٧٠ - ١٠١٥ م] - باعتباره خطب ومراسلات وأحاديث وحكم الإمام على بن أبى طالب ، لا أثر فيه لإشارة - مجرد إشارة - إلى عقيدة «النص والتعيين» . . الأمر الذى يجعل استقراء التاريخ ، واستقراء الفكر من صدر الإسلام إلى عصر جعفر الصادق ، شاهدا على أن هذه العقيدة - التى ميزت الشيعة كفرقة ، بالمعنى الاصطلاحى للتشيع - لم تظهر قبل تأليف هشام بن الحكم فيها ، وتبنى الشيعة للاعتقاد بها منذ ذلك التاريخ .

* * *

وإذا كانت الشيعة - على اختلاف فرقهم - معتدلين كانوا أم غلاة - اتفقوا على نظرية «النص والوصية والتعيين» الإلهى لإمامة على بن أبى طالب ، خليفة ووصيا وإماما بعد رسول الله ، ﷺ ، فإنهم قد اختلفوا إلى فرق متعددة ، بعد هذه العقيدة التى جعلوها أهم عقائد الإيمان الدينى ، يكفر - فى نظرهم - من جحدها .

فالشيعة الإثنى عشرية - وهم أغلبية الشيعة المعاصرين - يقولون إن عليا قد أوصى بالإمامة لابنه الحسن ، الذى أوصى بها إلى

أخيه الحسين . . وهكذا استمرت فى أبناء علىّ من فاطمة الزهراء حتى إمامهم الثانى عشر . . ولقد سموا بالاثنى عشرية لقولهم بإمامة هؤلاء الأئمة الاثنى عشر :

١ - أبو الحسن ، على بن أبى طالب - «المرتضى» - [٢٣ ق هـ - ٤٠ هـ ، ٦٠٠ - ٦٦١ م] .

٢ - أبو محمد ، الحسن بن على - «الزكى» - [٣ - ٥٠ هـ ٦٢٤ - ٦٧٠م] .

٣ - أبو عبدالله ، الحسين بن على - «سيد الشهداء» - [٤ - ٦١ هـ ٦٢٥ - ٦٨٠م] .

٤ - أبو محمد ، على بن الحسين - «زين العابدين» - [٣٨ - ٩٤ هـ ٦٥٨ - ٧١٢ م] .

٥ - أبو جعفر ، محمد بن على - «الباقر» - [٥٧ - ١١٤ هـ ٦٧٦ - ٧٣٢م]

٦ - أبو عبدالله ، جعفر بن محمد - الصادق» - [٨٠ - ١٤٨هـ ٦٩٩ - ٧٦٥ م].

٧ - أبو إبراهيم ، موسى بن جعفر - «الكاظم» -[١٢٨ - ١٨٣هـ ٧٤٥ - ٧٩٩م] .

٨ - أبو الحسن ، على بن موسى - «الرضا» - [١٥٣ - ٢٠٣هـ ٧٧٠ - ٨١٨ م] .

٩ - أبو جعفر ، محمد بن على - «الجواد» - [١٩٥ - ٢٢٠ هـ ٨١١ - ٨٣٥م]

١٠ - أبو الحسن ، على بن محمد - «الهادى» . [٢١٤ - ٢٥٤ هـ ٨٢٩ - ٨٦٨م] .

١١ - أبو محمد ، الحسن بن على - «العسكرى» . [٢٣٢ - ٢٦٠هـ ٨٤٦ - ٨٧٣م] .

١٢ - أبو القاسم ، محمد بن الحسن - «المهدى» - [٢٥٦ - ٠٠٠٠ هـ ٨٧٠ - ٠٠٠٠م] الذى اختفى فى سرداب بمدينة «سامراء» - من أرض العراق - ولا يزال فى «الغيبة» - فهو «المهدى» ، الذى ينتظرون ظهوره ، ويدعون الله أن يعجل فرجه ؛ ليملأ الأرض عدلا بعد أن مُلئت جورا - وعنه ينوب ، فى عصور غيبته ، العلماء المجتهدون - .

أما الشيعة «الكيسانية» ، فإنهم لم يحصروا الإمامة فى أبناء فاطمة الزهراء ، وإنما قالوا إنها انتقلت من الإمام علىّ إلى ابنه محمد بن الحنفية [٢١ - ٨١ هـ ٦٤٢ - ٧٠٠م] . .

أما الإسماعيلية - وهم من الباطنية الغلاة . . حتى فى نظر الاثنى عشرية - ويوجد منهم فى عصرنا : البهرة . . والنصيريون . . والدروز - فلقد اتفقوا مع الاثنى عشرية على تسلسل الإمامة من على حتى جعفر الصادق ، ثم جعلوها - بعد الصادق - لابنه إسماعيل [١٤٣ هـ - ٧٦٠ م] . . وليس لابنه موسى الكاظم ، كما قالت الاثنى عشرية ، ثم انفرد الإسماعيلية - منذ إسماعيل - بسلسلة خاصة بهم فى الإمامة . .

أما الشيعة الزيدية - أتباع زيد بن على بن الحسين [٧٩ - ١٢ هـ

٦٩٨ - ٧٤٠م] فلقد تميزوا بالاعتدال الذى اقترب بهم من فكر أهل السنة ، فقالوا فى عقيدة «النص» : إن النص لم يكن على «ذات» الإمام ، وإنما كان على «صفاته» ، وأن هذا «النص» لم يتعد ثلاثة من هؤلاء الأئمة ، على والحسن والحسين . . والإمامة بعدهم لمن تجتمع فيه شروط الإمام من أبناء فاطمة - وهى شروط لا أثر فيها لغلو الفرق الشيعية الأخرى- . .

❋ ❋ ❋

ولأن الشيعة - فيما عدا الزيدية - قد قاسوا «الإمامة» على «النبوة» ، وليس على «الإمارة . . والولاية» ، كما صنع أهل السنة ، فلقد أضفوا على الإمام صفات فاقت حتى صفات الأنبياء . . فهو- عندهم - معصوم فى كل شىء - بينما الأنبياء معصومون فيما يبلغونه عن الله- . . وروح القدس «الذى حمل النبى به النبوة ، قد انتقل بعد النبى إلى الإمام» . . وهو يعلم - بالعلم اللدنى - كل مايريد علمه «بالقوة القدسية الإلهامية ، بلا توقف ، ولا ترتيب مقدمات ، ولاتلقين معلم . تتجلى فى نفسه المعلومات كما تتجلى المرئيات فى المرآة الصافية . .» حتى يستطيع علم كل العلوم ، والحديث بجميع اللغات ، والكتابة بكل الحروف ، دون معلم ولا مدرسة ولا كُتاب ولا كِتاب! . . «فالأئمة - كما يقولون- لم يتربوا على أحد ، ولم يتعلموا على يد معلم ، من مبدأ طفولتهم إلى سن الرشد ، حتى القراءة والكتابة . ولم يثبت عن أحدهم أنه دخل الكتاتيب أو تلمذ على يد أستاذ فى شىء من الأشياء ، مع مالهم من منزلة علمية لا تجارى ، وما سئلوا عن شىء

إلا أجابوا عليه فى وقته ، ولم تمر على ألسنتهم كلمة «لا أدرى» ، ولا تأجيل الجواب إلى المراجعة أو التأمل ، أو نحو ذلك -» ! . .

وهى صورة تعلو على صورة الرسل أولى العزم ، الذى كان خاتمهم ، ﷺ ، يُسأل فينتظر - أحيانا - وحى السماء . . والذى قال لصحابته «أنتم أعلم بشئون دنياكم » . .

ونعصمة الإمام عند الشيعة . . ولأن كل الأمة - برأيهم - يمكن أن تجتمع على ضلال ، كان الإمام وحده مصدر الشريعة ، والحجة والقيّم حتى على الدين والقرآن . .

* * *

أما سلطات الإمام عندهم فهى كل سلطات الرسول ، التى هى كل سلطات الله المفوضة إلى الرسول ، ولذلك ، فإن الراد على الإمام راد على الله تعالى ، وهو على حد الشرك بالله . . وللإمام كل الدنيا - وبعبارتهم «فإن الدنيا كلها للإمام ، على وجه الملك ، وأنه أولى بها من الذين هى فى أيديهم» . .

* * *

وغير عقيدة الإمامة - بما فيها من «النص والوصية والتعيين» . . وصفات الإمام . . وسلطاته - انفردت الشيعة بعقائد . . منها :

● التقية : أى إظهار الإنسان غير ما يبطن ، اتقاء لضرر محقق الوقوع . . وهى عندهم دين ، يروون فيه عن جعفر الصادق : «التقية دينى ودين آبائى . . ومن لا تقية له لا دين له» ! . .

● **والرَّجعة** : وتعنى – عندهم– أن الله سيعيد إلى الحياة ، قبل قيام الساعة – وعند قيام المهدى – قوما قد توفاهم ، فى صورهم التى كانوا عليها قبل موتهم ، وفى مقدمتهم أكثر المظلومين من آل البيت ، وأكثر الظالمين لهم ، وبعد ، إن يُعز المظلومين ويذل الظالمين يتوفاهم ثانية .

ثم ، إن الشيعة ، بعد ذلك – باستثناء الباطنية الغلاة – يتفقون مع العديد من الفرق الإسلامية الأخرى فى ثوابت العقائد الإسلامية وشعائر وعبادات الإسلام . . فهم جزء من الأمة الإسلامية . ولو أنهم جعلوا الإمامة – كما فعل أهل السنة – من الفروع ، وليس من أصول وأمهات العقائد ، لكان الخلاف بينهم وبين أهل السنة مجرد تنوع فى المذهب الفقهى – المذهب الجعفرى – الذى لاتزيد الاختلافات بينه وبين مذاهب الفقه السنية عن الاختلافات التى بين المذاهب السنية ذاتها . .

ولأن عقيدة الشيعة ، فى الإمامة والإمام ، هى «حلم مثالى» ، أفرزته معاناة الاضطهاد من قبل السلطة البشرية – فى الدولة الأموية – فلقد ظل هذا «الحلم» مستعصيا على التطبيق حتى عندما حكم الشيعة فى إيران عقب إسقاط النظام الشاهنشاهى سنة ١٩٧٩ م . . فلقد استمر الحكم بالمؤسسات الشورية ، والنظام النيابى ، والدستور ، وسلطة الأمة والرأى العام . . ولم يطرأ على هذا النظام الديمقراطى – مع المرجعية الإسلامية – إلا منصب «ولاية الفقيه» – الذى هو محل خلاف بين مراجع الشيعة . . والذى تنبئ المساجلات الدائرة حوله عن أنه فى طريقه إلى الزوال . . .

أما التوزيع الجغرافى للشيعة الإمامية ، فهو فى إيران والعراق ولبنان واذربيجان وأفغانستان ، والإسماعيلية فى الهند وباكستان وتركيا وسوريا ولبنان . . أما شيعة اليمن فهم من الزيدية . .

وإذا كان تعداد الأمة الإسلامية يبلغ الآن مليارا وثلث المليار- ١,٣٧٤,٨٠٠,٠٠٠ - فإن نسبة أهل السنة تبلغ ٩٠٪ من هذا التعداد ، والباقى شيعة - بفرقها المختلفة- وخوارج وإباضيون[1] .



(١) مراجع :

(١) الكلينى [الأصول من الكافى] طبعة طهران سنة ١٣٨٨ هـ .

(٢) محمد رضا المظفر [عقائد الإمامية] طبعة بيروت سنة ١٩٧٣ م .

(٣) محمد باقر الصدر [التشيع ظاهرة طبيعية فى إطار الدعوة الإسلامية] طبعة القاهرة سنة ١٩٧٣ م .

(٤) ابن النديم [الفهرست] طبعة ليبزج سنة ١٨٧١ م .

(٥) د . محمد عمارة [تيارات الفكر الإسلامى] طبعة القاهرة سنة ١٩٩٨ م .

(٦) د . محمد عمارة [الإسلام وفلسفة الحكم] طبعة القاهرة سنة ١٩٨٩ م .



- ١٦ -
الكيسانية

إحدى فرق الشيعة الإمامية - منسوبة إلى داعيها «كيسان» - مولى على بن أبى طالب .

ولقد تميزت الكيسانية عن الاثنى عشرية .. وعن الإسماعيلية ، بفروعهما ، لأنها لم تحصر الأئمة فى أبناء على من فاطمة رضى الله عنها ، فجعلت الإمام - بعد الحسن والحسين - : محمد بن الحنفية [٢١ - ٨١ هـ ٦٤٢ - ٧٠٠م]وهو ابن على بن أبى طالب من زوجته خولة بنت جعفر - التى اشتهرت بـ «الحنفية» نسبة إلى بنى حنيفة ..

ولقد اعتقدت الكيسانية فى إمامها - ابن الحنفية - الغيبة - فرفضوا التسليم بموته - وقالوا إنه حى «بجبل رضوى» تراجعه الملائكة الحديث .. وأنه سيعود ليملأ الأرض عدلا بعد أن ملئت جورا؟! .. وفى هذه العقيدة يقول «كثير» الشاعر - عن على والحسن والحسين وابن الحنفية - :

ألا إن الأئمة من قريش	ولاة الحق أربعة سواء
على والثلاثة من بنيه	هم الأسباط ليس بهم خفاء
فسبط سبط إيمان وبر	وسبط غيبته كربلاء
وسبط لاتراه العين حتى	يقود الخيل يتبعها اللواء
تَغَيَّبَ لا يُرَى فيهم زمانا	«برضوى» عنده عسل وماء! ..

كذلك يعتقد الكيسانية فى إمامهم الإحاطة بالأسرار، من علوم التأويل والباطن والآفاق والأنفس. وقالت الكيسانية بأن الدين هو طاعة الإمام، وبلغ بهم الغلو فى التأويل الفاسد إلى تأويل الأركان الشرعية والعقائد على نحو عطلها وأسقطها.. ولقد ثارت الكيسانية بالكوفة، بقيادة المختار بن أبى عبيد بن مسعود الثقفى [١ - ٦٧ هـ ٦٢٢ - ٦٨٧م] انتقاما لمقتل الحسين، وأقاموا دولة استمرت سلطتها ستة عشر شهرا.

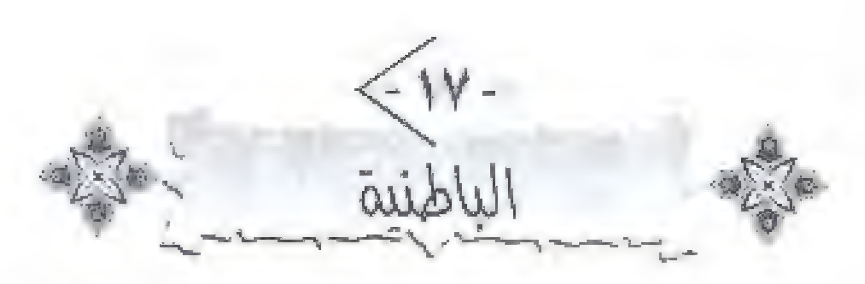
ولقد انقسمت الكيسانية إلى إحدى عشرة فرقة، ومنهم من قال بالتناسخ، والحلول، والرجعة بعد الموت. وهم من الفرق الغالية التى بادت منذ قرون[1]..



(١) مراجع:

[الملل والنحل] للشهرستانى. طبعة القاهرة سنة ١٩٦٤ م.

[تيارات الفكر الإسلامى] للدكتور محمد عمارة - طبعة القاهرة سنة ١٩٩١م



- ١٧ -
الباطنية

الباطنية مصطلح عام - نسبة إلى «الباطن» - المقابل «للظاهر» - يطلق على العديد من الفرق - الإسلامية وغير الإسلامية - التى لم تقف فى قضية «التأويل» عند حدود الاعتدال ، وإنما ذهبت فيها مذاهب الغلو والتعميم والإطلاق . .

فـ «التأويل» - فى مصطلح العربية - هو - كما يقول أبو الوليد ابن رشد [٥٢٠ - ٥٩٥ هـ ١١٢٦ - ١١٩٨م] : «إخراج دلالة اللفظ من الدلالة الحقيقية إلى الدلالة المجازية ، من غير أن يخل ذلك بعادة لسان العرب فى التَّجَوُّز . . »

وهو - بهذا المعنى ، وبهذا الضبط - قد لجأت إليه كل تيارات الفكر الإسلامى ، مع اختلاف فى الإكثار منه أو الاقتصاد فيه . . لكنها جميعا ، وبإزاء بعض ظواهر النصوص ، التى لاتتفق مع المقاصد الشرعية أو الكليات الاعتقادية ، لجأت إلى التأويل ، فأخرجت دلالة اللفظ من الدلالة الحقيقية إلى الدلالة المجازية . . وبعبارة الغزالى [٤٥٠ - ٥٠٥ هـ ١٠٥٨ - ١١١١م]- عن التأويل : فإنه «ما من فريق من أهل الإسلام إلا وهو مضطر إليه . .»

لكن الباطنية قد تميزوا عن الفرق المعتدلة فى الموقف من التأويل ، عندما لم يجعلوه «ضرورة واستثناء» وإنما جعلوه «القاعدة - والأصل» ذات «العموم - والإطلاق» . . لقد رأوا أن لكل ظاهر

باطنا ، ولكل تنزيل تأويلا . . ومن ثم فإنهم لا يقفون عند الظاهر - أى ظاهر - إلا ليتجاوزوه إلى الباطن . . ولا يقفون عند التنزيل - كل التنزيل - إلا ليتجاوزوه إلى التأويل! . . وهم يعممون ذلك فى العقائد والعبادات والمعاملات . . فى الثوابت والمتغيرات . . فى أخبار عالم الغيب وعالم الشهادة . . فضلا عن الإغراق والمغالاة فيما ادعوه أسرارا ورموزا للحروف والأعداد ! . .

ذلك هو الإطار الجامع للفرق الباطنية ، التى تعددت بسبب تشعب الطرق التى أثمرها هذا الغلو فى التأويل ، ولأسباب أخرى كثيرة . . وهذا هو المعيار الذى استحقت بسببه هذه التسمية ، سواء فى إطار الفرق الإسلامية أو فى النحل غير الإسلامية . .

وفى الإطار الإسلامى نجد تفاوت علماء الفرق فى تعداد فصائل الباطنية . . وإن كنا نستطيع أن نقول إن خلاصة أبحاثهم ، عند المقارنة ، تقول إن الفرق والجماعات الباطنية فى الإسلام هى :

١ - **الإسماعيلية**: وهم فرقة من الشيعة الإمامية انشقوا عن الإمامية الاثنى عشرية عندما وقع الخلاف على من يكون الإمام بعد جعفر الصادق [٨٠ - ١٤٨ هـ ٦٩٩ - ٧٤٨م] فقال الاثنا عشرية إنه موسى الكاظم [١٢٨ - ١٨٣هـ ٧٤٥ - ٧٩٩م] بينما قالت الإسماعيلية إنه إسماعيل بن جعفر الصادق [١٤٣ هـ - ٧٦٠ م] .

ولقد تفرعت الإسماعيلية فصائل ومذاهب كانت جميعها باطنية . . خلطت الإسلام بالمذاهب الغنوصية الفارسية القديمة وبالأفلاطونية الحديثة وبكثير من الإسرائيليات .

٢- القرامطة: وهم من أبرز فصائل الإسماعيلية الباطنية - وتسميتهم بالقرامطة قد أتت من اسم أحد دعاتهم - حمدان قرمط - . . ويسمون أيضا بـ «السبعية» ، لاعتقادهم بأن أدوار الإمامة سبعة ، كما أن تدبير العالم السفلى منوط بالكواكب السبعة - [انظر مادة القرامطة] -

٣- الدروز: - نسبة إلى مؤسس فرقتهم محمد بن اسماعيل الدرزى [٤١١ هـ - ١٠٢٠ م] . . وهم يعتقدون أن الخليفة الفاطمى الحاكم بأمر الله [٣٧٥ - ٤١١ هـ ٩٨٥ - ١٠٢١] هو الناسوت الذى حل فيه اللاهوت . . ويسمون أنفسهم «الموحدين» !

٤- النصيرية : نسبة إلى داعيهم محمد بن نصير [٢٥٩ هـ - ٨٧٣م] . . وهم يعتقدون أن للإمام على بن أبى طالب جانبا لاهوتيا حل فيه .

٥- البابية.. والبهائية : التى أسسها السيد على محمد الشيرازى [١٢٣٦ - ١٢٦٦ هـ ١٨٢١ - ١٨٥٠م] الذى ادعى أنه باب العلم بالحقيقة الإلهية ، وسمى نفسه بـ «الباب» [١٢٩٠ هـ ١٨٤٤م] . . وعن البابية تولدت البهائية ، التى أسسها ميرزا حسين على نورى [١٢٣٢ - ١٣٠٩هـ ١٨١٧ - ١٨٩٢م] وسمى نفسه «بهاء الله» ! . .

وجميع هذه الفرق باطنية ، لإغراقها فى التأويل لظاهر التنزيل . . وغالية فى تشيعها لأئمة آل البيت . . وذات تاريخ سياسى مشبوه ، لعدائها لوحدة الأمة ، وتعاون كثير منها مع أعداء الأمة ، من التتر والصليبيين والاستعمار الغربى الحديث . .

٦ - **البابكية** : نسبة قائد ثورتها بابك الخرمى [٢٢٣ هـ ٨٣٨م] ، الذى خرج على الدولة العباسية فى خلافة المعتصم العباسى [٢١٨ - ٢٢٧ هـ ٨٣٣ - ٨٤٢م] من بعض الجبال بناحية أذربيجان . . والبابكية فرقة باطنية من فرق المزدكية - وهو مذهب من مذاهب الفرس القديمة . . وليسوا شيعة ولا من فرق الإسلام . .

تلك هى أبرز فرق وفصائل التيار الباطنى . . تفرقت بها سبل وصور وأسباب الغلو . . وجمعها إطار الاعتقاد بالباطن . . والتأويل . . والخاص والعام . . والتقية[1] . .

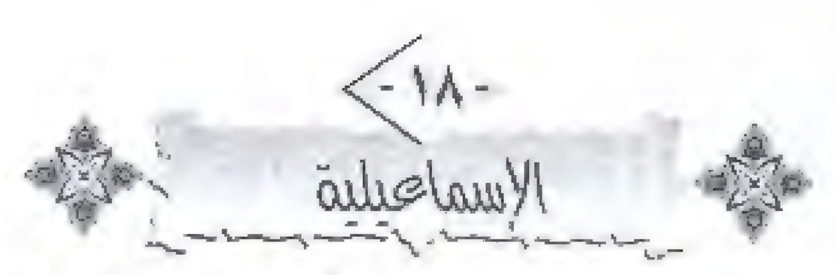


---

(١) مراجع :

[مذاهب الإسلاميين] للدكتور عبد الرحمن بدوى - طبعة بيروت سنة ١٩٧٣ م .

[دائرة المعارف الإسلامية] الطبعة العربية الثانية - القاهرة - مؤسسة دار الشعب .



١٨ - الإسماعيلية

هم الشيعة الباطنية ، الذين غالوا فى التأويل على نحو لم يلتزموا فيه قواعد العربية ولا منطق الشريعة . . كما جعلوه قاعدة مطلقة ، وليس ضرورة واستثناء . . فلكل ظاهر عندهم باطن ، ولكل تنزيل تأويل ، يعممون ذلك فى العقائد والعبادات والمعاملات والقيم ، فى الثوابت والمتغيرات ، فى أخبار عالم الغيب وعالم الشهادة ، مع الإغراق فيما سموه وادعوه أسرارا ورموزا للأسماء والحروف والأعداد .

وفى عقائد الإسماعيلية تمتزج الفلسفة اليونانية - وخاصة الأفلاطونية الحديثة - بفلسفة الإشراق - الغنوصية - بالإسلام . .

ولقد بدأت الإسماعيلية فى صورة انشقاق عن الشيعة الإمامية ، عندما قالوا إن الإمام بعد جعفر الصادق [٨٠ - ١٤٨ هـ ٦٩٩ - ٧٤٨م] هو ابنه الأكبر إسماعيل [١٤٣ هـ ٧٦٠م] وليس موسى الكاظم [١٢٨ - ١٨٣هـ ٧٤٥ - ٧٩٩م] . . ومن الإسماعيلية تفرعت انشقاقات عديدة ، أو غلبت عليها أسماء متميزة فى بعض المواطن . . ففيها تعد : القرامطة . . والدروز . . والنصيرية . . والبابية والبهائية . . والبهرة . .

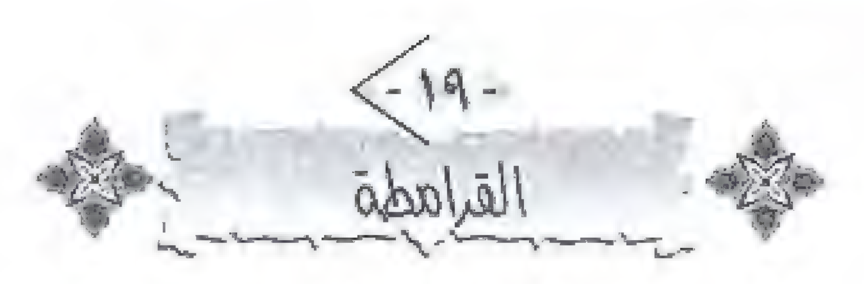
ولا يزال لهم وجود فى أنحاء متفرقة من مشرقى الوطن العربى والعالم الإسلامى[1] .

---

(١) مراجع :

[مذاهب الإسلاميين] للدكتور عبد الرحمن بدوى - طبعة بيروت سنة ١٩٧٣ م .

[كشاف اصطلاحات الفنون] للتهانوى - طبعة الهند سنة ١٨٩٢ م .



- ١٩ -
القرامطة

القرامطة واحدة من أهم وأخطر وأشهر الفرق الباطنية الإسماعيلية الشيعية . . ولقد جاءها هذا الاسم من اسم واحد من أشهر دعاتها : حمدان قرمط - أو قرمطويه - الذى كان من الأنباط فى سواد - [ريف] - العراق . .

ومن أسماء هذه الفرقة - ذات الصلات بعقائدها - اسم : «السبعية» - نسبة إلى العدد سبعة . . ذلك أن من عقائدهم :

● أن الرسل سبع : آدم ، ونوح ، وإبراهيم ، وموسى ، وعيسى ، ومحمد ، ومحمد المهدى - وهو محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق - . .

● وأن لأئمة - بعد محمد ، ﷺ ، سبع : على بن أبى طالب - وهو إمام رسول - والحسن ، والحسين ، وعلى بن الحسين ، ومحمد بن على ، وجعفر بن محمد ، ومحمد بن اسماعيل بن جعفر - وهو الإمام القائم المهدى ، وهو رسول - وهؤلاء رسل أئمة . .

● وأن النبى ، ﷺ ، قد انقطعت عنه الرسالة فى حياته ، وانتقلت إلى الإمام على بن أبى طالب ، فى يوم «غدير خم» ، عندما قال ، وهو عائد من حجة الوداع - سنة ١٠ هـ - : «من كنت مولاه فعلى مولاه» . . فخرج بذلك من الرسالة والنبوة ، وأصبح تابعا لعلى ، ومحجوجا به .

● وأن بين كل اثنين من «الرسل – الأئمة : النطقاء» سبعة أئمة يتممون الشريعة ، وبهم يُقتدى ، وهم : إمام يؤدى عن الله .. وحجة يؤدى عن هذا الإمام ، ويُحْمَلُ عليه ، ويُحْتَجُ به له .. وذو قصَّة – أى ذلك الذى يَمُصُّ العلم – أى يأخذه – من الحجة .. وأربعة أبواب ، هم الدعاة : الداعى الأكبر – وهو لرفع درجات المؤمنين – والداعى المأذون – الذى يأخذ العهود على الطالبين من أهل الظاهر فيدخلهم فى ذمة الإمام ويفتح لهم باب العلم والمعرفة – .. ومُكَلِّب – قد ارتفعت درجته فى الدين ، لكن لم يُؤْذَن له فى الدعوة ، بل فى الاحتجاج على الناس ، فهو يحتج ويُرَغِّب إلى الداعى – .. ومؤمن يتبعه – أى يتبع الداعى – وهو الذى أخِذَ عليه العهد وآمن وأيقن بالعهد ودخل فى ذمته وحزبه – ..

● وأن الشرائع منسوخة بشريعة القائم المهدى سابع النطقاء محمد بن إسماعيل .. الذى جعل الله له جنة آدم – وهى عندهم – فى تأويلهم – : الإباحة للمحارم وجميع ما خلق فى الدنيا .. وأن تأويل قوله تعالى : ﴿ وكُلا منها رغداً حيثُ شئتما ﴾ [البقرة : ٣٥] .. يعنى : محمد بن إسماعيل وأباه إسماعيل .. وتأويل : ﴿ ولا تقربا هذه الشجرة ﴾ [البقرة : ٣٥] أى موسى الكاظم بن جعفر الصادق ، ومن ادعى الإمامة من ولده .. فمحمد بن إسماعيل ، عندهم ، هو خاتم النبيين ..

● وأن جميع مافرض الله على العباد ، وسائر ماسن الرسول لهم لها ظاهر وباطن .. وأن جميع الظاهر هى أمثال مضروبة ،

والمراد منها المعانى الباطنة فيها ، وهى التى عليها العمل ، وفيها النجاة . . وأن الظاهر مَنْهِىٌّ عنه ، وفى استعماله الهلاك ، وهو جزء من العذاب الذى يعذب به الآخذون به ، لأنهم لم يعرفوا الحق الباطن .

● وهم يعللون هذا «النظام السبعى» الذى اعتقدوه ، بكون أولى العزم - عندهم - سبعة : نوح ، وإبراهيم ، وموسى ، وعيسى ، ومحمد ، وعلى ، ومحمد بن إسماعيل . . والسماوات سبع . . والأرضين سبع . . وبدن الإنسان سبع : يداه ، ورجلاه ، وظهره ، وبطنه ، وقلبه . . ورأس الإنسان سبع : عيناه ، وأذناه ، ومنخراه ، وفمه - وفيه لسانه ، وفمه بمنزلة صدره الذى فيه قلبه . . والأئمة سبع ، قلبهم محمد بن إسماعيل . .

ولقد بدأ ظهور القرامطة فى الكوفة ، ثم انتشر مذهبهم باليمن والبحرين واليمامة . . ودخلت دولهم فى صراعات مسلحة ضد كل من الدولتين العباسية والفاطمية . . فهاجمت جيوشهم أجزاء عديدة من الشام والعراق والحجاز ، حيث قتلوا الحجيج بمكة ودنسوا بيت الله الحرام وانتزعوا من الكعبة الحجر الأسود . . كما هاجموا مصر الفاطمية عدة مرات . .

والقرامطة - فى الفكر السياسى والاجتماعى - تيار ثورى اشتراكى فى إطار فصائل الإسماعيلية الباطنية - ولقد استهوت مبادئهم - كما يقول أبو حامد الغزالى - «الطبقات العاملة وأهل الصناعات والحرف!» . . وهم - فى المجتمعات التى أقاموها - قد تدرجوا فى الوصول إلى نظام «الاشتراك» فى الثروات والأموال . .

وينسب إليهم إباحة الاشتراك فى النساء، كما هو الحال فى الأموال.. ومن الشعر المنسوب إليهم، والذى ينم عن نزعة إلحادية ونظرة مادية، قول أحد شعرائهم:

تلوم على ترك الصلاة حليلتى	فقلت: اغربى عن ناظرى، أنت طالق
فوالله لا صليت لله مُفْلِسًا	يصلى له الشيخ الجليل وفائق
لماذا أُصلى؟ أين بغيى ومنزلى؟	وأين خيولى والحلى والمناطق؟!
أصلى ولا فِتْر من الأرض يحتوى	عليـــه يمينى؟ إننى لمنافق!
بلى. إن عَلَىَّ الله وَسَّع لم أزل	أصلى له ما لاح فى الجو بارق!

كما كان النظام السياسى، فى دولهم، أقرب إلى النظم الجمهورية، رغم قيام مذهبهم على الوصية والوراثة والنص والتعيين للإمام المعصوم.

وكان القرامطة يتدرجون فى الدعوة إلى مذهبهم، وفى الارتقاء بالمدعوين عبر مراتب دعوتهم.. فهناك:

أ - مرتبة الزرق.. وفيها يتم تفرس حال المدعو.. هل هو قابل للدعوة أو لا؟..

ب - ومرتبة التأنيس.. وفيها يستميلون المدعو بما يميل إليه هواه وطبعه، من الزهد أو الخلاعة أو غيرهما..

جـ - ومرتبة التشكيك فى أركان الشريعة..

د - ومرتبة التدليس.. وفيها يوهمونه بموافقه أكابر الدين والدنيا لمذهبهم حتى يزداد المدعو ثقة فى المذهب..

هـ – ومرتبة التأسيس . . وفيها يمهدون بمقدمات يسلم المدعو بها ؛ وتكون مفضية إلى الباطل الذى يقصدونه من بعد . .

و – ومرتبة الخلع . . وهو الاطمئنان إلى إسقاط الأعمال والتكاليف البدنية عن المدعو . .

ز – ومرتبة السلخ عن الاعتقادات الدينية – وفيها تكون الإباحة لكافة اللذات . . والحث على استعمالها . وتأويل سائر الشرائع . .

وفى بعض الدراسات أن مراتب الدعوة عندهم تسع لا سبع . .

ومن أمثلة التأويل للشرائع عندهم : تأويل الوضوء للصلاة . . بموالاة الإمام . . وتأويل التيمم بالأخذ عن المأذون عند غيبة الإمام – الذى هو الحجة – . . وتأويل الصلاة بالناطق – أى الرسول – وتأويل الاحتلام فى النوم بإفشاء شىء من أسرارهم إلى من ليس بأهل له ، دون قصد . . وتأويل الغُسل بتجديد العهد . . وتأويل الزكاة بتزكية النفس عن طريق معرفة ماهم عليه من المذهب . . وتأويل الكعبة بالنبى . . وتأويل الباب بالإمام على بن أبى طالب . . وتأويل الصفا بالنبى . . والمروة بالإمام على . . والميقات بالإيناس . . والتلبية بإجابة المدعو لدعوتهم . . والطواف بالبيت سبعا بموالاة أئمتهم السبعة . . وتأويل الجنة براحة الأبدان من التكاليف . . والنار بمشقة الأبدان بمزاولة التكاليف . . الخ . . الخ[1] . .

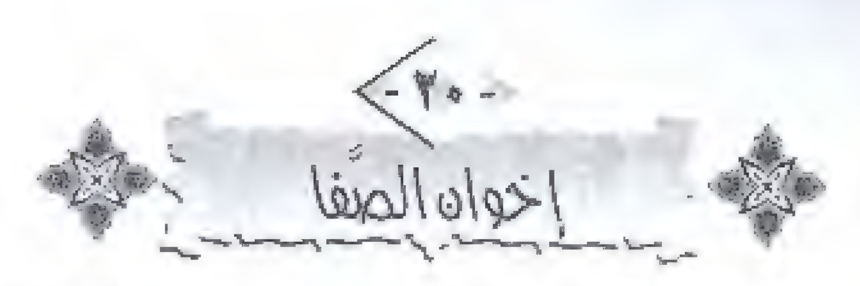
---

(١) مراجع :

– [كشاف اصطلاحات الفنون] للتهانوى – طبعة الهند سنة ١٨٩٢ م .

– [مذاهب الإسلاميين] للدكتور عبد الرحمن بدوى . طبعة بيروت سنة ١٩٧٣ م .

– [الإسلام والثورة] للدكتور محمد عمارة . طبعة القاهرة سنة ١٩٨٨ م



- ٣٠ -

إخوان الصفا

هم جماعة «إخوان الصفاء وخلان الوفاء» . . جماعة سرية . . شيعية . . إسماعيلية . . باطنية ، ذات توجه فلسفى تلفيقى ، جمعت فى نزعتها بين الإسلام- فى صورته التى تأوّلوها - وبين حكمة اليونان والفرس والهنود . . ولقد أخذوا من حكمة اليونان مثل الأفلاطونية ، وليس عقلانية المشائية الأرسطية . . ففيثاغورس [القرن السادس قبل الميلاد] وأفلاطون [٤٢٧ - ٣٤٧ ق . م] أنسب لعرفانهم الباطنى من أرسطو [٣٨٤ - ٣٢٢ ق . م] . . ولنظرية «الفيض» و «صدور» العالم عن الله بالتدريج- العقل ، فالنفس ، فالمادة ، فعالم الطبائع ، فالأجسام ، فالأفلاك ، فالعناصر ، ثم المعادن والنبات والحيوان- لهذه النظرية فى الفيض شيوع فى تصوراتهم للوجود وللعلاقة بين مكوناته . .

ولم تقف نزعتهم التلفيقية عند حدود مزج الإسلام- بعد تأويله- بفلسفة اليونان والفرس والهنود . . وإنما طمحت هذه النزعة إلى توحيد الأديان كذلك ، حتى تتفق مع فلسفتهم . .

ولقد «ظهرت» هذه الجماعة أول ما ظهرت فى «البصرة» فى النصف الثانى من القرن الرابع الهجرى . . وعرف المؤرخون لها من علمائها خمسة : أبو سليمان محمد بن مشير البُستى - المشهور بالمقدسى- . . وأبو الحسن على بن هارون الزَّنجانى ، وأبو أحمد

محمد بن أحمد النهرجورى ، وأبو الحسن العوفى ، وزيد بن رفاعة . .

وكان أبو حيان التوحيدى [٤٠٠ هـ ١٠١٠ م] عارفا بمذهبهم ، من طريق زيد بن رفاعة ، فنقل عنه سبب إقامتهم لهذه الجماعة . واتجاههم هذه الوجهة ، بأن «الشريعة قد دُنست بالجهالات ، واختلطت بالضلالات ، ولا سبيل إلى غسلها وتطهيرها إلا بالفلسفة ؛ لأنها حاوية للحكمة الاعتقادية والمصلحة الاجتهادية . . ومتى انتظمت الفلسفة الاجتهادية اليونانية والشريعة العربية فقد حصل الكمال . .»

فالفلسفة ، عندهم ، حاوية «للحكمة الاعتقادية والمصلحة الاجتهادية» . . ومعنى هذا أنها بديل يغنى عن الدين ؟ ! . .

ويؤكد هذا المذهب تفضيلهم الفلسفة على الشريعة ، على النحو الذى يجعلها تغنى عن الشريعة . . «فالشريعة : طب المرضى ، والفلسفة : طب الأصحاء . والأنبياء يطبون المرضى حتى لا يتزايد مرضهم ، وحتى يزول المرض بالعافية فقط . وأما الفلاسفة فإنهم يحفظون الصحة على أصحابها ، لايعتريهم مرض أصلا . فبين مدبر المريض وبين مدبر الصحيح فرق ظاهر وأمر مكشوف » !

ولقد أودعت هذه الجماعة فلسفتها فى «الرسائل» الاثنتين والخمسين - [رسائل إخوان الصفا]- والتى عرضت للرياضيات . . والمنطق . . والعلوم الطبيعية . . وعلم النفس . . وما بعد الطبيعة . .

والتصوف . . والتنجيم . . والسحر . . الخ . . الخ . .

أما تنظيمهم السرى ، فكانت فيه أربع مراتب :

١ - مرتبة ذوى الصنائع : وهم الشبان الذين اتموا سن الخامسة عشرة ، والمتميزون بصفاء جوهر النفس ، وجودة القبول وسرعة التصور . . ويسمونهم «الإخوان الأبرار والرحماء» . .

٢ - ومرتبة الرؤساء ذوى السياسات : وهم الذين أتموا سن الثلاثين ، وعرفوا بالحكمة والعقل ، ويسمونهم «الإخوان الأخيار والفضلاء» . .

٣ - ومرتبة الملوك ذوى السلطان : وتكون من الذين أتموا سن الأربعين ، وعرفوا بالقيام على حفظ الناموس - القانون - الالهى . . ويسمونهم «الإخوان الفضلاء الكرام» . .

٤ - والمرتبة العليا : التى يدعون الجميع إلى بلوغها ، وتتكون من الذين أتموا سن الخمسين . . وهم الذين أشبهوا الملائكة بقبول التأييد ، ومشاهدة الحق عيانا ، والوقوف على أحوال الآخرة .

ولقد تركت آراء إخوان الصفا آثارها فى فرق وحركات باطنية وإسماعيلية كثيرة ، من مثل الحشاشين ، والدروز[1] .

---

(١) مراجع :

(١) [رسائل إخوان الصفا] طبعة بيروت سنة ١٩٥٧ م .

- ٢١ -

العباسية

منذ تأسيس الدولة الأموية [٤١ - ١٣٢ هـ ٦٦١ - ٧٥٠م] أصبحت شيعة آل البيت -علويين وعباسيين- فى صفوف المعارضة ، التى لقيت من عنت الاضطهاد الأموى الشىء الكثير . . ولم يكن للعباسيين - ولد العباس بن عبد المطلب [٥١ ق . هـ - ٣٢ هـ ٥٧٣ - ٦٥٣ م]- طموح معلن فى الخلافة ، ولا وجود ظاهر فى دعوات الإمامة والمهدية وثوراتها على عهد الأمويين . . بل إن بعض أعلام البيت العباسى - ومنهم أبو العباس - السفاح - [١٠٤ - ١٣٦ هـ ٧٢٢ - ٧٥٤م] وأبو جعفر المنصور [٩٥ - ١٥٨ هـ ٧١٤ - ٧٧٥م] قد بايعا - أثناء اضطراب أمور الدولة الأموية- أواخر عهدها - لإمام علوى ، هو النفس الزكية ، محمد بن عبدالله بن الحسن [٩٣ - ١٤٥ هـ ٧١٢ - ٧٦٢ م] فى المؤتمر الذى عقدته المعارضة بمكة للنظر فى من يكون بديلا لبنى أمية فى حكم المسلمين . .

لقد كانت معارضة آل البيت ، وهى تجمع بيعة المعارضين ، لا تحدد اسم الإمام المرشح ، وإنما كانت تدعو لبيعة «الرضى من آل محمد» ؟ ! . . ولم يكن المبايعون يعلمون شخص الإمام الذى تعقد له البيعة السرية ، علويا هو أم من بنى العباس؟ . . وعندما انعقد مؤتمر مكة كانت البيعة لعلوى ، سبقت له الثورة خلف إمام

علوى سنة ١٢٢ هـ سنة ٧٤٠ م هو زيد بن على [٧٩ - ١٢٢ هـ ٦٩٨ - ٧٤٠ م] . .

لكن خضم الدعوة السرية قد شهد استقلالا عباسيا عن التيار العلوى ، منذ عهد محمد بن على بن عبدالله بن العباس [٦٢ - ١٢٥ هـ ٦٨١ - ٧٤٣ م] . . الذى ولد فى «الحميمة» - بين الشام والمدينة - بالقرب من معان - بأرض الشراة - . . فلقد بدأ دعوة سرية لإمامة عباسية منذ سنة ١٠٠ هـ سنة ٧١٨م . . وكان له دعاة ونقباء يجبون له الخمس من شيعته فى البلاد . . وبعد سنة ١٢٠ هـ سنة ٧٣٨ م أصبح محمد بن على هذا الإمام السرى للهاشميين . . واستمر كذلك حتى وفاته سنة ١٢٥ هـ سنة ٧٤٣م . .

وكان لمحمد بن على هذا أبناء ثلاثة : إبراهيم [٨٢ - ١٣١ هـ ٧٠١ - ٧٤٩م] وأبو العباس - السفاح - وأبو جعفر المنصور . . وبعد وفاته تولى إمامة الدعوة العباسية ابنه إبراهيم ، بوصية من أبيه . .

وكان دعاة الدعوة العباسية يركزون على الأطراف التى لم تنضج عروبتها من أقاليم الدولة . . لأن عصبية العرب كانت فى بنى أمية . . والاتجاه العربى فى المعارضة كان مع العلويين . . ومن هنا كان اختيار الإمام إبراهيم بن محمد بن على بن عبدالله بن العباس لأبى مسلم الخراسانى [١٣٧ هـ ٧٥٥ م] ليكون واليا فى الدعوة السرية ، على الدعاة والشيعة فى خراسان . .

فلما اضطرب أمر الدولة الأموية ، فى عهد خليفتها مروان بن محمد

[١٢٧ - ١٣٢ هـ ٧٤٤ - ٧٥٠ م] وازداد نشاط الدعوة العباسية وبلغ مروان خبر إمامها إبراهيم ، قبض عليه ، وسجنه فى حران ، إلى أن قتله فى سجنه سنة ١٣١ هـ سنة ٧٤٩ م . . أى قبل عام واحد من سقوط الدولة الأموية تحت ضربات الثورات التى اشتعلت فى كثير من أقاليمها . .

وبعد مقتل الإمام إبراهيم . . انعقد مؤتمر المعارضة ، بمكة ، الذى بايع للنفس الزكية : محمد بن عبدالله بن الحسن- وهو علوى- . . لكن التيار الخراسانى فى الثورة - بقيادة أبى مسلم الخراسانى - كان عباسى الهوى والاتجاه ، ينفر - لتوجهه الشعوبى - من التوجه العربى فى الثورة ، الذى يقوده العلويون . . وكان مع أبى مسلم فى قيادة جيوش الثورة قائد عربى هو أبو سلمة الخلال ، حفص بن سليمان الهمدانى [١٣٢ هـ ٧٥٠ م] - وكان يلقب فى حركة الثورة بـ «وزير آل محمد» - على حين كان يلقب أبو مسلم الخراسانى بـ «أمين آل محمد» . .

فأراد التيار الخراسانى ، ذو التوجه الشعوبى . . والذى كان ينفذ - فى الموقف من العروبة- وصية الإمام العباسى إبراهيم بن محمد ، الموجهة لأبى مسلم والتى تقول : « . . وإن استطعت ألا تدع بخراسان أحدا يتكلم بالعربية إلا وقتلته فافعل! . . وعليك بمضر ، فإنهم العدو القريب الدار ، فأبد خضراءهم ، ولا تدع على الأرض منهم ديارا ؟! ...» . .

أراد هذا التيار الشعوبى الخلاص من التيار العربى . . فاغتالوا

أبا سلمة الخلال ، وألقوا بثقلهم وراء الفرع العباسى ، مستبعدين النفس الزكية ، وعاقدين البيعة بالخلافة لأبى العباس السفاح ! . .

ولقد استمر النفوذ الشعوبى على الدولة العباسية ودعوتها ظاهرا حتى بعد قتل المنصور لأبى مسلم الخراسانى سنة ١٣٧ هـ سنة ٧٥٥ م . . ولم تبرأ هذه الدولة ودعوتها من سيطرة التيار «الخراسانى - الشعوبى» إلا بنكبة البرامكة [١٨٧ هـ ٨٠٣ م] على عهد هارون الرشيد [١٧٠ - ١٩٣ هـ ٧٨٦ - ٨٠٩ م] . . وعند ذلك انفتح الباب للتيار العربى ، الذى كان المعتزلة من قواه الفكرية والإجتماعية والسياسية ، فبرز تأثيرهم فى عهود المأمون [١٩٨ - ٢١٨ هـ ٨١٣ - ٨٣٣م] والمعتصم [٢١٨ - ٢٢٧ هـ ٨٣٣ - ٨٤٢م] والواثق [٢٢٧ - ٢٣٢ هـ ٨٤٢ - ٨٤٧ م] . . برز تأثيرهم على الدولة العباسية ودعوتها . .

ولقد ظلت الدعوة العباسية - فى ظل دولتها - تواجه خطر الانشقاق العلوى ، الذى تمثل فى الدعوة الزيدية ، وفى ثوراتها التى شقت عصا الطاعة ، وتمكنت من إقامة دول زيدية خارجة عن سلطة العباسيين . . حتى لقد أحدث هذا الانشقاق فى الهاشميين - الانشقاق : العباسى - العلوى - انشقاقا فى صفوف المعتزلة . . «فمعتزلة البصرة» - القدماء - هم الذين أيدوا الدولة ودعوتها . . بينما وقف «معتزلة بغداد» - المحدثون - مع العلويين والزيديين[1] ! .

---

(١) مراجع :

- [الإسلام وفلسفة الحكم] للدكتور/ محمد عمارة - طبعة القاهرة سنة ١٩٨٩ م .
- [تيارات الفكر الإسلامى] للدكتور / محمد عمارة - طبعة بيروت سنة ١٩٨٥ م

- ٢٢ -

الكرامية

من الفرق الإسلامية المبتدعة .. وتنسب إلى داعيها أبو عبدالله ، محمد بن كرّام بن عراق بن حزابة السجزى - أى السجستانى - [٢٥٥ هـ ٨٦٩م] .

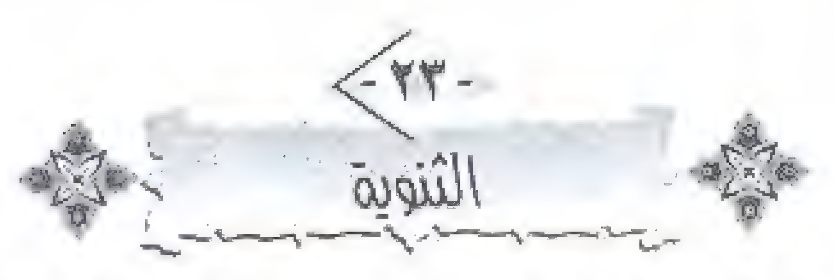
والكرامية فرع من «المرجئة» .. ولهم فى الإيمان مذهب يقول : إنه هو الإقرار والتصديق باللسان دون القلب ، ولذلك فالمنافقون - فى مذهبهم .. مؤمنون على الحقيقة ، لأنهم أقروا وصدقوا باللسان ، ولاعبرة بالكفر القلبى ..

والكفر ، عند الكرّامية ، هو الجحود والإنكار باللسان . لكنهم يفرقون بين تسمية المؤمن مؤمنا فيما يرجع إلى أحكام الظاهر والتكليف فى الدنيا ، وفيما يرجع إلى أحكام الآخرة والجزاء ، فالمنافق مؤمن فى الدنيا حقيقة ، ومستحق للعقاب الأبدى فى الآخرة .

وهم يثبتون الصفات للذات الإلهية على نحو يجعلهم «مُشَبِّهَةً ومُجَسِّمَةً» ..

وفى السياسة يقولون : إن الإمامة تثبت بإجماع الأمة - فيتفقون مع أهل السنة - ويخالفون الشيعة القائلين بالنص والتعيين- .. وهم يقرون البيعة لإمامين فى قطرين ، لاعترافهم بإمامة على - فى العراق - ومعاوية - فى الشام ..

ولقد انقسمت الكرامية إلى فرق بلغ عددها الاثنى عشرة ، من أهمها : العابدية ، والنونية ، والزرينية ، والإسحاقية ، والواحدية ، والهيصمية- نسبة إلى دعاتها .



- ٢٣ -
الثنوية

مذهب فارسى قديم ، يذهب فى تفسير العالم إلى القول بمبدأين متقابلين أزليين قديمين ، هما : النور والظلمة . . فالنور هو إله الخير والظلمة إله الشر . .

والثنوية فرق كثيرة ، تجتمع فى اعتقاد المبدأ ين الأزليين - النور والظلمة - إلهى الخير والشر - وتختلف فى فروع وتفاصيل . . ومن أشهر فرقهم «المانوية» - أتباع مانى بن فاتك الحكيم [٢١٥ - ٢٧٦م] - الذى ظهر فى عهد سابور بن أردشير [٢٤١ - ٢٧٢ م] وقتله بهرام بن هرمز بن سابور . . وكانت المانوية مزيجا من المجوسية والنصرانية . . وله كتاب «السابرقان» . . وأتباعه يقولون أنه خاتم الأنبياء ! .

ومن الثنوية : «المزدكية» - أتباع مزدك» - الذى ظهر فى زمن قباذ [٤٨٨ - ٥٣١م] والد كسرى أنو شروان [٥٣١ - ٥٧٩ م]- ولقد تبعه قباذ ، لكن ابنه أنو شروان قتله لفساد مذهبه - وخاصة دعوته إلى مشاعية الأموال والنساء . . .

ومن فرق الثنوية - غير المانوية والمزدكية - الديصانية ، والمرقيونية ، والماهانية ، والصيامية ، والمقلاصية . .

والثنوية من المذاهب الغنوصية ، ذات النزعة التلفيقية بين الفلسفات الباطنية العرفانية وبين الأديان - والنصرانية والمجوسية - بوجه خاص[1] .

---

(١) مراجع:

المغنى فى أبواب التوحيد والعدل؛ جـ ٥ للقاضى عبد الجبار بن أحمد الهمذانى - طبعة القاهرة.



- ٢٤ -
السمنية

فرقة من فرق الديانات الوضعية بالهند ، عرفها المسلمون عندما وصل الإسلام إلى شبه القارة الهندية ، وهم ينكرون النبوات والرسالات ، ويزعمون أن الأنبياء هم الذين فرقوا البشرية إلى فرق متناحرة . وفى المعارف وطرق اكتسابها هم ماديون دهريون ، ينكرون أن تكون للمعارف وسائل غير الحواس الخمس ، ولقد قادهم ذلك إلى إنكار وجود إله لا تدركه الحواس . .

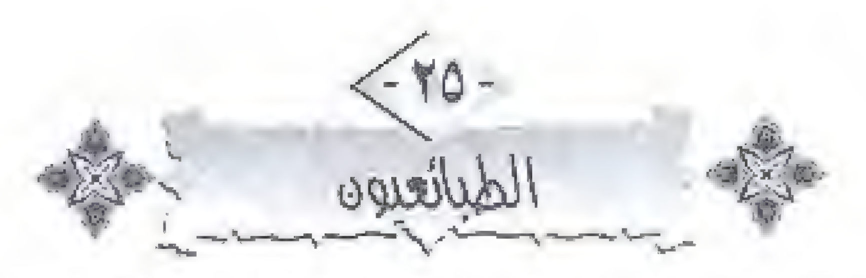
ولقد دارت بين سمنية «السند» وبين طوائف من علماء الإسلام مناظرات فى العهدين الأموى والعباسى . . وكانوا يتحدون المسلمين فى المناظرات . . ومنهم من أسلم كثمرة لهذه المناظرات ، وخاصة عندما كان طرفها الإسلامى من علماء المعتزلة ، الذين استخدموا العقل وبراهينه فى المناظرة ، وذلك على عكس علماء «أهل الحديث» ، الذين كانوا يحتجون بنصوص لا يؤمن السمنية بحجيتها[1] .

---

(١) مراجع:

[كشاف اصطلاحات الفنون] للتهانوى - طبعة الهند سنة ١٨٩١ م .

[تيارات الفكر الإسلامى] للدكتور محمد عمارة - طبعة دار الشروق سنة ١٩٩١ م



- ٢٥ -
الطبائعيون

هم الذين يجعلون الأسباب المركبة فى الطبيعة فاعلة - بشكل ذاتى ومستقل وكامل - للمسببات ، منكرين بذلك وجود خالق مسبب لهذه الأسباب ولمسبباتها . . فهم يرجعون نمو الأشياء وتغيرها وحركاتها إلى طبيعتها ذاتها . . ويقولون إن «نسمة الحياة الأولى» قد تخلقت ذاتيا- وطبيعيا - دونما فعل خالق مفارق للطبيعة ووراءها .

وفى مقابل الطبائعيين ، وعلى النقيض منهم ، القائلون بنفي الأسباب من الطبيعة نفيا تاما ، وإرجاع كل الأسباب والمسببات إلى الذات الإلهية وحدها . .

وبين هذين المذهبين يتوسط الإسلام ، الذى يرى الطبيعة ذاتها مخلوقة لله ، سبحانه وتعالى - بل إن مصطلح «الخليقة» - فى العربية - مرادف لمصطلح «الطبيعة» . . ويرى - الإسلام - أن خالق الطبيعة قد خلق فيها أسبابا وقوانين فاعلة لمسبباتها ، ولا تبديل ولا تحويل لعمل هذه الأسباب إلا بإرادة الخالق سبحانه وتعالى إذا أراد إحلال قوانين أخرى محلها . . وبهذا المذهب جمع الإسلام بين «الطبائع» وبين «التوحيد» لخالق الطبيعة وما فيها من قوى وأسباب . .

وتعبيرا عن المذهب الإسلامى - الذى توسط بين غلو مادى وغلو باطنى - يقول أبو عمرو عثمان بن بحر الجاحظ [١٦٣ -٢٥٥ هـ

٧٨٠ - ٨٦٩م] : «إن المصيب هو الذى يجمع تحقيق التوحيد وإعطاء الطبائع حقها من الأعمال . ومن زعم أن التوحيد لا يصلح إلا بإبطال حقائق الطبائع ، فقد حمل عجزه على الكلام فى التوحيد ، وكذلك إذا زعم أن الطبائع لاتصح إذا قرنها بالتوحيد ، ومن قال هذا فقد حمل عجزه على الكلام فى الطبائع . . وإنما ييأس منك الملحد إذا لم يدعك التوفر على التوحيد إلى بخس حقوق الطبائع ، لأن فى رفع أعمالها رفع أعيانها ، وإذا كانت الأعيان هى الدالة على الله ، فرفعت الدليل ، فقد أبطلت المدلول عليه! . .»

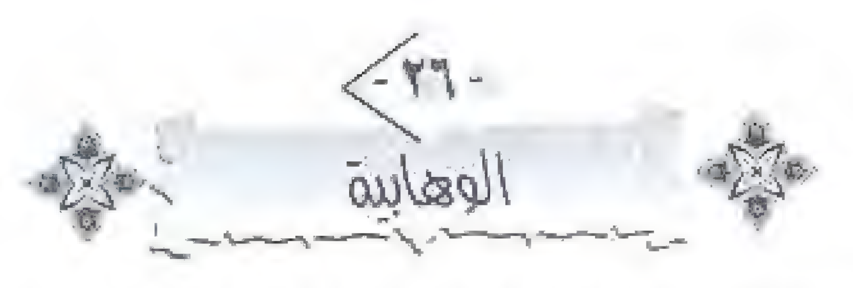
والطبائعيون هم الدهريون . . ولجمال الدين الأفغانى [١٢٥٤ - ١٣١٤هـ ١٨٣٨ - ١٨٩٧م] رسالة فى نقض مذهبهم ، وتعقب فكرهم عبر الحضارات الإنسانية ، غربية وشرقية ، مع إبراز دورهم فى انهيار هذه الحضارات . . ولقد كتبها - [رسالة الرد على الدهريين] - بالفارسية ، وترجمها إلى العربية الشيخ محمد عبده [١٢٦٥ - ١٣٢٣هـ ١٨٤٩ - ١٩٠٥م] بمساعدة خادم الأفغانى «أبو تراب»[1] . .

---

(١) مراجع :

[الإسلام وقضايا العصر] للدكتور . محمد عمارة - طبعة بيروت سنة ١٩٨٤م

[الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغانى] دراسة وتحقيق / د . محمد عمارة طبعة القاهرة سنة ١٩٦٨م .



- ٣٦ -
الوهابية

الوهابية . . مصطلح لا يرضاه أنصار هذه الدعوة علما على دعوتهم! . . ومع ذلك فلقد اشتهرت به . . ولقد جاءها بسبب اشتهار نسبتها إلى داعيتها وشيخها محمد بن عبد الوهاب [١١١٥ - ١٢٠٦ هـ ١٧٠٣ - ١٧٩٢م] . .

ففى القرن الثانى عشر الهجرى - الثامن عشر الميلادى - ولد ونشأ محمد بن عبد الوهاب ، فى «نجد» - من شبه الجزيرة العربية - وكانت أسرته عامرة بالفقهاء ، الذين أخذ عنهم علوم الدين ، قبل أن يستزيد منها على يدى علماء مكة والمدينة . .

وكانت بادية نجد ، التى تغلب عليها بساطة الفكر ، وخشونة الطبيعة ، تخضع - كغيرها من أنحاء شبه الجزيرة العربية لسلطان الدولة العثمانية ، وتسود فيها الفكرية التى سادت ذلك العصر ، والتى أدخلت فى التصورات الاعتقادية الإسلامية ، وكذلك فى شعائر الإسلام وعباداته الكثير من البدع والخرافات ، فتغبشت الصورة النقية لعقيدة التوحيد الإسلامى إلى حد كبير ، وأصبح العامة يتخذون الوسائل والوسائط شفعاء إلى الله ، بل ويتوجهون إلى الوسائط بالدعاء وطلب قضاء الحاجات عند الملمات! . .

ولما رأى ابن عبد الوهاب ذلك ، وعرض صورة «إسلام العامة» على حقيقة «إسلام السلف» وجد أن الإسلام الأول - إسلام

السلف- قد أصبح «غريبا»! . . فقرر أن يجاهد لتجديد وتصحيح عقائد الناس ، مقتديا بإمام السلفية الأول الإمام أحمد بن حنبل [١٦٤ - ٢٤١ هـ ٧٨٠ - ٨٥٥م] ومن أتى بعده من أئمة هذا الاتجاه ، الذى مثل فى تياراتنا الفكرية : النزوع إلى الوقوف عند النصوص ، والحذر من التأويل وغيره من أدوات النظر العقلى ، مخافة التأثر بالتصورات الوافدة من المواريث الفكرية للحضارات الأخرى ، وتشبثا بصورة الإسلام البسيطة التى سادت شبه الجزيرة العربية قبل عصر الفتوحات والتأثيرات الفكرية التى تلتها . .

ولقد كانت بيئة «نجد» ، البسيطة ، أكثر ملاءمة للإسلام السلفى البسيط ، فظواهر النصوص تكفى للإجابة على علامات استفهام إنسانها البسيط ، كما تكفى لتصحيح معتقداته وتصوراته وإعادة عباداته إلى إطار الإسلام الصحيح والبسيط ، دونما حاجة إلى العقلانية الكلامية أو الفلسفية ، وما أثمرت من «قياس» و «رأى» و «تأويل» . .

لقد انطلق ابن عبد الوهاب من تراث التيار السلفى ، وفكر الأئمة : أحمد بن حنبل ، وابن تيمية [٦٦١ - ٧٢٨ هـ ١٢٦٣- ١٣٢٨ م] وابن قيم الجوزية [٦٩١ - ٧٥١ هـ ١٢٩٢ - ١٣٥٠م] مركزا جهده على إصلاح «العقائد» وتقويم «التصورات» وتصحيح «العبادات» . . فحكم بالشرك ، الظاهر والجلى ، على المتوسلين إلى الله بالأولياء والصالحين والمشاهد والمزارات والرموز ، بل لقد رأى أن شركهم هذا هو أعظم من شرك الجاهلية الأولى . . ورفض - كما صنع أعلام السلفية الأولى - أن يحتكم لغير النصوص ، فهاجم

«القياس» ، حتى لو كان صحيحا ، وأعرض عن «التأويل» فى فهم النصوص وتفسيرها . . وأعلن أن «الرأى» لا وزن له بجانب النصوص . . ملتزما ، فى ذلك كله ، المنهج الذى صاغه الإمام أحمد ابن حنبل لهذا التيار . .

وكان طبيعيا أن تصطدم هذه الدعوة السلفية بالفكرية السائدة فى مناخ الدولة العثمانية ، والمنتشرة بين العامة ، والتى يرعاها سلاطين آل عثمان . .

بل إن هذا الصدام قد تعدى الحدود الفكرية . . فلقد كان ابن عبد الوهاب أكثر من «شيخ» ، وأعظم من «فقيه» ، وأكبر من «داعية» . . ومن ثم فإنه لم يشأ أن يقف بدعوته عند رسائل يؤلفها ، أو مواعظ يلقيها ، أو مذهب فقهى يبشر به ، أو حتى حلقة من الأتباع والمريدين . . لقد أراد أن تكون «لدعوته» «دولة» ، تضمن لها التطبيق والانتشار والاستمرار . . فالله يزع «بالسلطان» مالايزع «بالقرآن»! . . ولعله قد أدرك أن أعلام التجديد والاجتهاد ، الذين بقى تجديدهم واجتهادهم فى نطاق تأليف الكتب وحلقات الدرس ودائرة المريدين ، قد عجزت جهودهم عن تغيير واقع التخلف الحضارى . . ولعله ، أيضا ، قد أبصر ماتميز به عصره من تعاظم التحديات التى تواجه الاسلام والمسلمين ، فأراد لجهوده ولدعوته أن تكون «حركة» ، ولهذه «الحركة» أن لاتقف عند حدود «القلم» ، فطمح أن يكون «للقلم» «سيف» يضمن «للفكر» الفعل والصمود والانتشار والاستمرار ! . .

* * *

غادر ابن عبد الوهاب «حريملا» - التى بدأ فيها دعوته - إلى «العيينة» ، فعرض مذهبه عل رئيسها عثمان بن أحمد بن معمر ، الذى استجاب لدعوته ، فعقد معه عهدا أن ينصر دعوة التوحيد [لا إله إلا الله] ، ويسخر قوته لاقتلاع عقائد «الشرك» ورموزه ، مقابل أن يملكه الله نجدا وأعرابها» ! . . فتحرك جيش «العيينة» ، وفى مقدمته ابن عبد الوهاب ، لهدم القباب المقامة على مقابر الأولياء ، ولاقتلاع الأشجار وإزالة الرموز التى كانت مقدسة لدى العامة ، يتخذونها وسائط تقربهم - بزعمهم- إلى الله زلفى! . . وكان قبر الصحابى زيد بن الخطاب [١٢ هـ ٦٣٣ م] ، باليمامة ، من بين القباب التى قاد ابن عبد الوهاب عملية هدمها ، بعد أن أجفل وتردد حتى جند أمير «العيينة» عن الإقدام على هدمه! . . ولقد استفز هذا العمل أعراب ناحية اليمامة ، فخشى عثمان بن معمر عداءهم وتمردهم ، فطلب إلى ابن عبد الوهاب مغادرة المنطقة خوفا على حياته ، فغادر «العيينة» إلى «الدرعية» سنة ١١٥٨ هـ سنة ١٧٤٥م . .

وفى «الدرعية» تحالف ابن عبد الوهاب مع أميرها محمد بن سعود [١١٧٩ هـ ١٧٦٥م] . . فسادت الدعوة السلفية فيها وفى نجد وما تاخمها . . ثم أخذ يعرض دعوته على حجاج بيت الله الحرام وزوار مسجد الرسول ، ﷺ ، فى موسم الحج والزيارة . . وبدأ الحجاج يسمعون ويتناقلون آراءه التى تحكم «بالكفر» على المخالفين ! . .

وكان ابن عبد الوهاب يقود الجهاد ، فى طليعة جيش ابن سعود . . فهاجموا «كربلاء» ، بالعراق ، واستولوا على الكنوز

الذهبية والفضية النفسية لمشاهدها ومزاراتها سنة ١٢١٦ هـ سنة ١٨٠١م . . ودخلوا المدينة المنورة سنة ١٢٢٠ هـ سنة ١٨٠٥ م ، وأزالوا القباب والشواهد الخاصة بمزارات الصحابة فى مقابر البقيع . . وفى العام التالى ذهب ابن سعود إلى مكة ، حاجا ومستعرضا قوته ، فبايعه «شريفها» ، وطرد من كان بها من رجال الدولة العثمانية . . وهكذا تمت للوهابية - الدعوة والسلطة - السيطرة على الحرمين ونجد والحجاز ، فتصاعد تحديها للدولة العثمانية ، ولفكريتها المثقلة بالبدع والخرافات! . .

لكن العثمانيين ، بعد أن فشلوا فى مواجهة الوهابية ، استعانوا بمحمد على باشا [١١٨٤ - ١٢٦٥ هـ ١٧٧٠ - ١٨٤٩م] والجيش المصرى ، الذى أسقط الدولة الوهابية وأجهز عليها عندما احتل عاصمتها «الدرعية» فى ٧ ذى القعدة سنة ١٢٣٣ هـ ٨ سبتمبر سنة ١٨١٨م ، بعد سنوات طويلة من القتال وذلك بعد ثلاثة أرباع القرن على ظهور دعوة ابن عبد الوهاب- . . وبقيت الوهابية «دعوة» تسعى لإقامة «الدولة» ، حتى تيسر لها ذلك فى العقدين الثانى والثالث من القرن العشرين الميلادى ، على يد الملك عبد العزيز آل سعود [١٢٩٣ - ١٣٧٣هـ ١٨٧٦ - ١٩٥٣م] . .

* * *

لقد كانت الوهابية ، على جبهة «العقائد والشعائر الدينية» ، حركة تجديد سلفية ، انتقلت بالتجديد من إطاره الفردى إلى إطار «الدعوة» التى جاهدت لامتلاك «الدولة» لتتمكن من ترسيخ

فكرها وضمان انتشاره واستمراره . . وفى هذا الإطار مثلت أولى حركات اليقظة الإسلامية فى عصرنا الحديث . .

كذلك ، مثلت ، على «الجبهة الحضارية» دعوة إلى تميز الحضارة الإسلامية عن الفكر الوافد - اليونانى القديم . . والغربى الحديث- . . وإن تكن بداوة بيئتها ، وفقر الفكر الفلسفى عند أعلامها قد جعل إسهامها على هذه الجبهة متمثلا فى رفض التبعية الفكرية ، مع العجز عن الإبداع فى بلورة البديل وتطويره . .

وعلى الجبهة السياسية ، مثلت الوهابية حركة معارضة للدولة العثمانية ، بدأت بالرفض للفكرية الدينية المحملة بالبدع والشعوذة ، والتى كانت سائدة فى مناخ الدولة العثمانية ، ثم اصطدمت دولتها بالسلطنة العثمانية . . بل لقد كان تبنى الوهابية للموقف السلفى للإمام أحمد بن حنبل ، حول «قرشية» الإمام ، ومن باب أولى «عروبته» . . كان تبنى الوهابية لهذا الموقف يعنى ، فى الواقع ، الرفض لشرعية الخلافة العثمانية ، والدعوة إلى خلافة عربية قرشية ! . .

وهى قد تميزت كطليعة للحركات التجديدية الإسلامية الحديثة بإقامة العلاقة بين الدين والدولة . . بين الدعوة الإسلامية وإقامة المجتمع الذى يطبق منهاج الدعوة الإسلامية . . لكنها : بسبب من بداوة البيئة التى نشأت فيها ، وخصوصية التحديات المحلية التى واجهت إمامها - الشيخ محمد بن عبد الوهاب - قد اتخذت موقفا غير ودى من «العقلانية» ومن «التمدن» . . فظواهر النصوص كانت كافية للإجابة على ما تثيره بيئتها البدوية البسيطة من

مشكلات ، ومانطرحه من علامات استفهام . . ومواريثها السلفية ، التى بدأت بإمام السلفية أحمد بن حنبل ، قد رفضت «عقلانية المسلمين» ضمن رفضها «العقلانية اليونان» ! . . وجاءت الوهابية ، محكومة بأوضاع بيئتها البدوية ، وبالمنهاج النصوصى لمواريثها السلفية ، فرفضت «التمدن» عامة ، كجزء من رفضها ذلك «التمدن الغربى» ، الذى كان يتسلل إلى عالم الإسلام من تلك الثغرات التى فتحها الغرب فى جدار دولة آل عثمان ؟! . .

لقد كانت تجديدا للعقيدة الدينية . . وجمودا فى التمدن الدنيوى . . وصدق فى دعاتها قول الإمام محمد عبده [١٢٦٦ - ١٣٢٣ هـ ١٨٤٩ - ١٩٠٥م] : « . . إنهم ، وإن أنكروا كثيرا من البدع ، ونحوا عن الدين كثيرا مما أضيف إليه وليس منه ، إلا أنهم يرون وجوب الأخذ بما يفهم من لفظ الوارد ، والتقيد به ، بدون التفات إلى ما تقتضيه الأصول التى قام عليها الدين وإليها كانت الدعوة ولأجلها منحت النبوة ، فلم يكونوا للعلم أولياء ولا للمدنية أحباء؟! . . »

ولعل هذا الطابع الذى تميزت به الوهابية هو الذى حال دون انتشارها خارج البيئة البدوية التى نشأت فيها[1] .

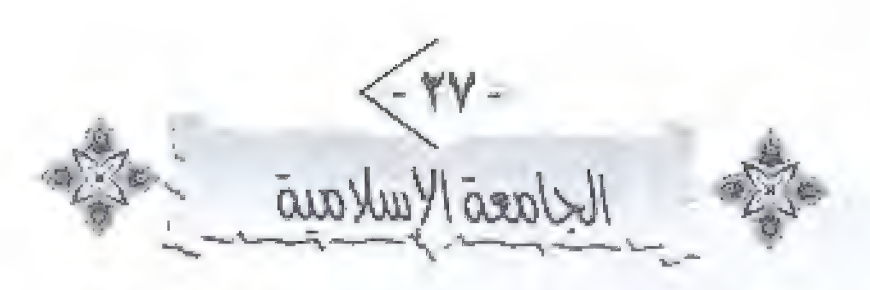
---

(١) مراجع:

[مجموعة التوحيد] - رسائل للإمام محمد بن عبد الوهاب - طبعة المكتبة السلفية- القاهرة .

[الدعوة الوهابية] لعبد الكريم الخطيب - طبعة القاهرة سنة ١٩٧٤ م .

[تيارات الفكر الإسلامى] للدكتور محمد عمارة - طبعة بيروت سنة ١٩٨٥ م .



- ٢٧ -
الجامعة الإسلامية

الجامعة الإسلامية : «دائرة انتماء» ، عقدى . . وحضارى . . وسياسى . . نبعت وتنبع لدى المسلمين من حقيقة إسلامية أقامت الوحدة بينهم عندما وحدت انتماءهم إلى خمسة جوامع أساسية ، لا تنفى وحدتها ما بداخلها من تمايزات فى «الانتماءات الفرعية» . . فالمسلمون توحدهم :

١ - العقيدة الدينية الواحدة . . وفى إطارها تتمايز مذاهبهم الكلامية والصوفية . .

٢ - والشريعة الإلهية الواحدة . . وفى إطارها تتمايز مذاهبهم الفقهية فى فروع العبادات والمعاملات . .

٣ - والحضارة الإسلامية الواحدة . . وفى إطارها تتمايز العادات والتقاليد والأعراف . .

٤ - والأمة الواحدة - بالمعنى العقدى والسياسى والحضارى للمتدينين بالإسلام - وبالمعنى السياسى والحضارى والثقافى للملل والنحل التى تعيش فى عالم الإسلام ، جزءا أصيلا فى الأمة والرعية - وفى إطار وحدة الأمة تتمايز شعوب الأمة وقبائلها وأقوامها وأجناسها ومللها . .

٥ - ووحدة دار الإسلام . . وفى إطارها تتمايز الأوطان والأقاليم والولايات . .

فالانتماء إلى الجامعة الإسلامية ، وإن اعترف واحترم واعتنى

بالانتماءات الفرعية ؛ إلا أنه لايكتفى بها ولايقف عند حدودها كنهاية للمطاف . .

فهو يعنى رفض الوقوف بفكرة «الوطن» عند حدود دائرة «الإقليم» ، بل ويتجاوز دائرة «الوطن القومى» إلى «عالم الإسلام» ، الذى يضم «الأقاليم» و «القوميات» . .

وهو يعنى وجود «طابع حضارى» لهذا «الانتماء الإسلامى» ، فعلاقات الأقاليم الإسلامية والقوميات التى يضمها عالم الإسلام لاتقف عند حدود حسن الجوار ، أو المصالح الأمنية والاقتصادية . . وإنما تعنى ، فوق ذلك ، ومع ذلك ، وجود «وحدة فى الحضارة الإسلامية» ، تجعل من عالم الإسلام هذا ، بأقاليمه وقومياته منظومة حضارية متميزة بين الحضارات الإنسانية الأخرى . .

فهو انتماء موحَّد إلى الجوامع الخمسة الموحِّدة للمسلمين ، يغتنى بما فى داخلها من تمايزات وانتماءات فرعية . .

* * *

وفى العصر الحديث ، أصبح شعار «الجامعة الإسلامية» العنوان والمظلة لذلك التيار الفكرى والسياسى العريض ، الذى أبصر قادته ودعاته وحركاته وأنصاره أن هناك عددا من التحديات التى تواجه الفكر الإسلامى وعالم الإسلام ، سواء أكانت تلك التحديات داخلية ، كالتخلف الفكرى والروحى والانحدار الحضارى والسياسى والصراعات الإقليمية والقبلية . . أو آتية من الخارج ، فى شكل المد الاستعمارى الغربى ، وما جاء فى ركابه من غزو فكرى يحتل العقل المسلم ، ونهب اقتصادى للثروات الإسلامية ، واحتلال عسكرى يلحق عالم الإسلام إلحاق التبعية بالمركز الغربى ، تأبيدا للتخلف ، وإعاقة للتقدم والنهوض . .

تيار الجامعة الإسلامية ، هو الذى أبصر أصحابه هذه التحديات ، ثم آمنوا بأن تشخيصها ، فى مختلف البلاد الإسلامية ، ومن ثم تحديد سبل الخروج منها ، لابد وأن ينطلق من المنهاج الإسلامى والمرجعية الإسلامية . . فالإسلام- عند هذا التيار- هو باعث النهضة ، ومنهاج التقدم ،لعودة المسلمين - مرة أخرى - إلى مكانتهم الحضارية التى سبق واحتلوها بهذا الإسلام .

* * *

ولكن وحدة شعار الجامعة الإسلامية ،لم تخف فى يوم من الأيام حقيقة تمايز تيار الجامعة الإسلامية إلى «مدارس» و «فصائل» و «دعوات» ، ميزت بينها «الفروق» ، كما جمعت بينها «الأشباه والنظائر» . . وذلك عندما اتفقت فى المقاصد - وجوهرها : إنهاض المسلمين بالإسلام- . . وتميزت فى الوسائل والسبل والتفاصيل- . .

● فنحن نستطيع أن نذكر الحركة الوهابية ، التى أسسها إمامها الشيخ محمد بن عبد الوهاب [١١١٥ - ١٢٠٦ هـ ١٧٠٣ - ١٧٩٢م] كأقدم فصيل فكرى وسياسى يمكن أن يندرج تحت شعار «الجامعة الإسلامية» فى عصرنا الحديث . . فلقد كانت الوهابية - فى الفكر- دعوة وحركة ترمى إلى تجديد شباب الإسلام والمسلمين ، عن طريق طرح ركام البدع والخرافات التى دخلت فى عقائد المسلمين . . ثم إنها لم تقف عند حدود «الدعوة» ، وإنما غدت لها «دولة» جسدتها فى الممارسة والتطبيق .

● وكانت الحركة السنوسية ، التى أسسها بالمغرب العربى إمامها الشيخ محمد بن على السنوسى [١٢٠٢ - ١٢٧٦هـ ١٧٨٧ -

١٨٥٩م] هى الامتداد الوهابى إلى بلاد الشمال الإفريقى ، بعد أن أدخلت فى بنيتها الفكرية ونشاطها العملى خصائص المكان وتحديات الاستعمار الغربى ، الذى واجهته . . ومن ثم ، فإن السنوسية التى تميزت عن الوهابية بمزج الصوفية بالسلفية ، وبمواجهة الاستعمار الغربى ، لا الدولة العثمانية . . كانت هى الأخرى فصيلا من فصائل الجامعة الإسلامية . . وغدت ، من خلال «الزوايا» ممارسة حياتية جسدت «الدعوة» فى واقع الحياة . .

● وكذلك الدعوة والحركة المهدية ، التى أسسها - بالسودان - إمامها محمد أحمد «المهدى» [١٢٠٦ - ١٣٠٢ هـ ١٨٤٤ - ١٨٨٥م] بما مثلت - فى الفكر - من تجديد . . وفى السياسة من تصد للغرب ، ومن دعوة لتحرير عالم الإسلام «من غانة إلى فرغانة» - كما قال المهدى - كانت هى الأخرى فصيلا من فصائل الجامعة الإسلامية ، تلاءمت مع ظروف السودان وواقعه فى ذلك التاريخ . . ولقد جسدت «الدعوة» من خلال «الثورة» و «الدولة» لعدة عقود .

● بل إن تيار الدعوة الإسماعيلية الحديثة ، التى كان من أبرز قادتها «أغاخان» [١٢٩٤ - ١٣٧٦ هـ ١٨٧٧ - ١٩٥٧م] قد عمل هو الأخر تحت شعار الجامعة الإسلامية ، وفى ذلك يقول أغاخان : «إن هناك جامعة إسلامية حقة صريحة ينضم إلى لوائها الحركل مسلم مؤمن مخلص ، أعنى بذلك الرابطة الروحانية الوجدانية ، والوحدة الجامعة بين أتباع صاحب الرسالة الإسلامية . فهذه الوحدة الإسلامية الروحانية التهذيبية يجب أن تتعهد فتنموا أبدا ، لأنها عند أتباع النبى أس الحياة وجوهر النفس» . .

فحتى عند الباطنية ، ارتفع هذا الشعار ، عنوانا على الرابطة «الروحية الوجدانية» الجامعة . .

● ومن فصائل الجامعة الإسلامية من دعته الظروف والملابسات والإمكانات إلى التركيز على العمل السياسى أكثر من الإحياء الدينى الشامل . . وذلك مثل «الحزب الوطنى» ، الذى قاده مصطفى كامل باشا [١٢٩١ - ١٣٢٦ هـ ١٨٧٤ - ١٩٠٨م] . . فلقد كانت معركته الكبرى هى إجلاء الاحتلال الإنجليزى عن مصر ، ومن ثم كان تركيزه على «الوطنية المصرية» ، ولكن فى إطار الانتماء للجامعة الإسلامية . . ولقد عبر عن هذه العلاقة بقوله : «إننا نطلب استقلال وطننا وحرية ديارنا . . ولا يمنعنا هذا من النظر إلى الوجهة الدولية للمسألة المصرية . . فمصر للمصريين . . ومحال أن نطلب مالكا أجنبيا عنا . . لكننا نود أن نكون قوة محالفة للدولة العلية (العثمانية) . . فمن ناموس الطبيعة أن من اتفقت مصالحهم يجتمعون ويتناصرون . . ونحن إذا اعتمدنا على الإسلام وقواعده وأوامره وإرشاداته ، وأخذنا من المدنية الغربية فوائدها ومنافعها . . بلغنا أقصى مايرام من مجد وعز وسؤدد ومقام رفيع . . فميل المسلم لأبناء دينه أمر طبيعى وشرعى ، يزكيه أن لتأخر الشعوب الإسلامية أسبابا واحدة . . وهذا هو معنى حركة الجامعة الإسلامية ...»

فالانتماء الفرعى - مصر للمصريين - والذى كان تحدى الاحتلال الإنجليزى سببا للتركيز عليه ، قد أصبح جزءا من الانتماء الإسلامى الجامع . .

● بل إن الدعوة والحركة والثورة العرابية - التى قادها أحمد عرابى باشا [١٢٥٧ - ١٣٢٩ هـ ١٨٤١ - ١٩١١م] . . فى مصر

١٢٩٩ هـ ١٨٨٢م]- والتى رفعت ، هى الأخرى ، شعارات وطنية . . لم تكن بمعزل عن الانتماء إلى تيار الجامعة الإسلامية . . فعرابى هو صاحب تشبيه العلاقة بين الأوطان والأقاليم الإسلامية وبين خلافة السلطان العثمانى بالمنزل ، الذى يختص كل ساكن بحجرة فيه ، دونما تناقض أو انفصال بين الحجرات ، وأيضا دونما إلغاء لهذا الاختصاص ! . . وهو ، أيضا ، الذى استنكر - فى رسالته إلى جورجى زيدان - أن يكون هدف الثورة العرابية إسقاط الجامعة الإسلامية من محيط الانتماء ، وقال : «إن هذا الادعاء هو من إرجاف المرجفين . . لأنى أرى فى ذلك ضياعا للإسلام عن بكرة أبيه » . .

● على أن أشهر وأفحل وأعظم فصائل تيار الجامعة الإسلامية ، كان ذلك الذى تبلور من حول جمال الدين الأفغانى [١٢٥٤ - ١٣١٤ هـ ١٨٣٨ - ١٨٩٧م] . . والذى تأسس شعبيا أهليا - وخاصة بين الصفوة من العلماء والقادة للرأى العام - ثم تحالف مع الدولة العثمانية لنصرة الدعوة إلى الجامعة الاسلامية . . كما تميز بشموله كل عالم الإسلام . . فلم يقف عند إقليم أو قضية وطنية ، مع ربطها بالجامعة الإسلامية . . وإنما انطلق من شمولية الدعوة للجامعة الإسلامية ، سالكا القضايا الوطنية والمشكلات الإقليمية فى سلكها العام ، دون إغفال للأوزان المتفاوتة للقضايا الوطنية ، لعلاقة هذه الأوزان بنصره المقصد العام . .

كذلك تميزت دعوة الجامعة الإسلامية ، عند هذا الفصيل ، بعدد من المميزات ، كان فى مقدمتها :

١ - الإصلاح الدينى ، من منطلق العقلانية التى توازن بين «الرأى» و «الأثر» ، إيمانا بأن الشرق لن ينتصر فى صراعه مع

الغـرب إلا إذا تسلح بسـلاح العـقل ، ذلك السـلاح الذى ضـمن للغرب تفوقه فى هذا الصراع .

٢- وتجديد الصلات الحضارية مع الغرب ، واقتباس المناسب من حضارته وعلومه - كما صنع العرب والمسلمون فى العصر العباسى - حتى يتمكن الشرق من العودة إلى التأثير والعطاء الحضارى مرة أخرى .

٣ - والمحافظة على بقاء السلطنة العثمـانية ، وتنمية جوانبـها الإيجـابيـة ، والعـمل على تجـديد شـبـابهـا ، لا من منطلق الإيمان بحيـازتها شـروط الخـلافة الإسـلامـيـة الكاملة ، وإنما من منطلق الضرورات التى يحتمها التصدى للعدو الرئيسى وهو الاستعمار الغربى الزاحف على ديار الإسلام . .

ولذلك ، كـان تحالف هذا الفصيل مع الدولة العثمـانيـة ، ومع السلطان عبد الحميد الثانى [١٢٥٨ - ١٣٣٦ هـ ١٨٤٢ - ١٩١٨م] فى الدعوة للجامعة الإسلامية ، جامعـا لمقاصد هذا التيـار فى التصدى للتحديات الاستعمارية المهددة للوجود المستقل للأمة . . وفى التجديد للذاتية الإسلامية ، باعتبار هذا التجديد باب التقدم والنهوض ، وشرط الانتصار على التحديات الاستعمارية . . ومن هنا كان تعاون الأفغانى مع السلطان عبد الحميد تعاونا يستهدف تحقيق .

١ - فعالية أكبر فى مواجهة الخطر الرئيسى : الاستعمار الغربى . .

٢ - والإصلاح الدستورى لنظام الحكم وفلسفته فى الدولة . .

٣ - وتطهير أجهزة الدولة القيادية من الخونة والعجزة والفاسدين . .

٤ - واستبدال «اللامركزية» - التى تتيح فرص النمو والازدهار

للخصائص القومية والإمكانات الوطنية والمادية - فى علاقات أقاليم الدولة وولاياتها «بالمركزية» القاتلة للخصائص الذاتية للأقاليم والولايات . . وحتى تغلق الأبواب أمام دعوات التمزق والتشرذم باسم القوميات والمذاهب والملل المختلفة . .

٥ - وتعريب «الدولة» لتصبح الدولة الإسلامية ناطقة بلسان الإسلام والقرآن . .

٦ - وتحرير ثروات العالم الإسلامى من نهب واستغلال الشركات الاستعمارية . . «فغاية الجامعة الإسلامية الاقتصادية : هى : ثروة المسلمين للمسلمين ، وثمرات التجارة والصناعة فى جميع المعمور الإسلامى هى لهم يتنعمون بها ، وليست لنصارى الغرب يستنزفونها . وهى : نفض اليد من رءوس المال الغربية والاستعاضة عنها برءوس مال إسلامية ، وفوق جميع هذا : هى تحطيم تواجد أوربة ، تلك التواجد العاضة على موارد الثروة الطبيعية فى بلاد المسلمين ، وذلك بعدم تجديد الامتيازات فى الأرضين والمعادن والغابات وقُطر الحديد والجمارك ، والعقود التى ما دامت خارجة من أيدى العالم الإسلامى فهو يظل عالة على الغرب» . .

لتحقيق هذه الأهداف قام التحالف بين تيار الجامعة الإسلامية ، الذى قاده جمال الدين الأفغانى ، - وهو الذى أصبح شعار «الجامعة الإسلامية» علما عليه - وبين الدولة العثمانية ، وسلطانها السلطان عبد الحميد الثانى . . وأعلن الأفغانى : «أن الممالك الإسلامية فى الشرق لاتسلم من شراك أوربا ولا من السعى وراء إضعافها وتجزئتها ، وفى الأخير ازدرادها واحدة بعد أخرى ، إلا بيقظة وانتباه عمومى ، وانضواء تحت راية الخليفة الأعظم . .» . .

* * *

وإذا كانت التحديات قد غالبت هذا «التيار الإنقاذى» ، فحالت بينه وبين تجديد الدولة العثمانية وإنقاذ الممالك الإسلامية من شراك أوربا . . بل وغالبت هذه التحديات الدولة العثمانية فغلبتها ، وطوت صفحتها فى سنة ١٣٤٢ هـ سنة ١٩٢٤م . . فلقد ظلت الدعوة إلى الجامعة الإسلامية المظلة التى تظلل كل الدعوات الساعية إلى تجديد الإسلام لتتجدد به دنيا المسلمين . .

وفى مواجهة الأحزاب الوطنية ، التى وقفت بالوطن عند الإقليم . . والأحزاب القومية ، التى وقفت عند العرق واللغة ، مديرة ظهرها للدائرة الحضارية الإسلامية . . ظلت دعوات الجامعة الإسلامية على منهاجها الجامع بين «الوطنية» و «القومية» فى إطار «الجامعة الإسلامية» . . ولقد جسد الشيخ حسن البنا [١٣٢٤ - ١٣٦٨ هـ ١٩٠٦ - ١٩٤٩ م] هذا المنهاج عندما قال : «إن مصر هى قطعة من أرض الإسلام ، وزعيمة أممه ، وفى المقدمة من دول الإسلام وشعوبه . . والمصرية لها فى دعوتنا مكانها ومنزلتها وحقها فى الكفاح والنضال . . إننا نعتز بأننا مخلصون لهذا الوطن الحبيب ، عاملون له ، مجاهدون فى سبيل خيره ، وسنظل كذلك ما حيينا ، معتقدين أن هذه هى الحلقة الأولى فى سلسلة النهضة المنشودة . وأنها - [أى مصر] - جزء من الوطن العربى العام ، وأننا حين نعمل لمصر نعمل للعروبة والشرق والإسلام . .

والعروبة - وهى الحلقة والدئرة الثانية والتالية - لها فى دعوتنا كذلك مكانها البارز وحظها الوافر ، فالعرب هم أمة الإسلام الأولى وشعبه المتخير ، وبحق ماقاله ﷺ : «إذا ذلَّ العرب ذلَّ الإسلام»! . ولن ينهض الإسلام بغير اجتماع كلمة الشعوب العربية ونهضتها . . إن هذه الشعوب الممتدة من الخليج إلى المحيط

كلها عربية ، تجمعها العقيدة ، ويوحد بينها اللسان ، وتؤلفها الوضعية المتناسقة فى رقعة من الأرض متصلة متشابهة ، لا يحول بين أجزائها حائل ، ولا يفرق بين حدودها فارق . . ونحن نعتقد أننا حين نعمل للعروبة نعمل للإسلام ، ولخير العالم كله . .

ودعوتنا ذات مراحل ، ونرجو أن تتحقق تباعا . نرجو أن تقوم فى مصر دولة مسلمة ، تحتضن الإسلام ، وتجمع كلمة العرب ، وتعمل لخيرهم ، وتحمى المسلمين فى أكناف الأرض من عدوان كل ذى عدوان . . فواجب أن يعمل الإنسان لوطنه ، وأن يقدمه فى العمل على سواه . . وواجب أن نعمل لإحياء الوحدة العربية وتأييدها ومناصرتها . . باعتبارها الحلقة الثانية فى النهوض . . وواجب أن نعمل للجامعة الإسلامية ، باعتبارها السياج الكامل للوطن الإسلامى العام . . ولاتعارض بين هذه الواحدات ، بهذا الاعتبار ، فكل منها يشد أزر الأخرى ، ويحقق الغاية منها . .»

* * *

لقد ظلت راية الجامعة الإسلامية مرتفعة ، تظلل الدعوات الإسلامية الإحيائية والنهضوية ، لكن أولوياتها قد تغيرت بعد سقوط الخلافة العثمانية وانفراط عقد ولاياتها الإسلامية ، عن أولوياتها قبل هذا التحول الجوهرى والمتغير الفارق فى تاريخنا الحديث . .

فقبل انفراط عقد الوحدة الإسلامية ، كان هدف تيار الجامعة الإسلامية : الحفاظ على عقد هذه الوحدة ، والاستعانة على ذلك بتجديد الذات ، تعظيما للقوة التى تتصدى بها للتحديات الخارجية . . أما بعد انفراط عقد الوحدة الإسلامية ، فلقد غدا

الطريق إلى الجامعة الإسلامية هو : إقامة الدولة الإسلامية النموذج ، التى لاتقف مقاصدها عند دائرة الإقليم ، وإنما تسعى لتسلك دوائر «الوطنية» و «القومية» فى إطار الجامع الأعظم للإسلام ، وذلك وصولا إلى إعادة الوحدة إلى الجوامع الإسلامية الخمسة ، التى توحد المسلمين فى العقيدة . . والشريعة . . والأمة . . والحضارة . . ودار الإسلام .

ولهذه الحقيقة ، لم تعرف دعوات الجامعة الإسلامية - ولم تعترف- بـ «الجنسية» ، التى جاءتنا من نظام وثقافة «الدولة القومية» الأوربية ، والتى تقف عند الدائرة القومية لا تتعداها ، ممزقة بهذه «الجنسية» وحدة الجوامع التى أقامها الإسلام . . فهذه «الجنسية - كما يقول الإمام محمد عبده [١٢٦٥ - ١٣٢٣ هـ ١٨٤٩ - ١٩٠٥م] - ليست معروفة عند المسلمين ، ولا لها أحكام تجرى عليهم ، لا فى خاصتهم ولا عامتهم ، وإنما الجنسية عند الأمم الأوربية تشبه ما كان يسمى عند العرب : عصبية . . جاء الإسلام فألغاها . . فلا جنسية فى الإسلام . .» . فجنسية الأمة الإسلامية هى دينها . . ووطنها هو دار الإسلام . .

وكما طمحت الجامعة الإسلامية إلى جعل الطوائف والملل الدينية لبنات فى بناء الأمة الواحدة ، لأنه «إذا تنافرت الطوائف تشاغلت كل منها بما يحط شأن الأخرى ، فكانت كل مساعيهم ضررا على أوطانهم» - كما يقول الإمام محمد عبده - . . ولأن مابين الديانات السماوية من مقاصد مشتركة كبير وكثير ، إذ «لاترى فى الأديان الثلاثة ما يخالف نفع المجموع البشرى ، بل بالعكس تحضه على أن يعمل الخير المطلق مع أخيه وقريبه ، وتحظر

عليه عمل الشر مع أى كان . . أما اختلاف أهل الأديان فهو صنع بعض رؤسائها ، الذين يتجرون بالدين ، ويشترون بآياته ثمنا قليلا . ساء ما يفعلون»! - كما يقول الأفغانى- . .

كما طمحت الجامعة الإسلامية إلى التأليف بين الملل الدينية فى إطار وحدة الأمة الإسلامية والرابطة الشرقية ، كذلك حرصت على نفى تهمة الحرب الدينية - مع أوربا- عن مقاصدها ومقاصد الداعين إليها - وفى ذلك يقول الإمام محمد عبده : «إنه لم يخطر ببال أحد ممن يدعون إلى الرجعة إلى الدين أن يثير فتنة على الأوربيين أو غيرهم من الأمم المجاورة للمسلمين . .» . .

إنها انتماء جامع ، لأمة عظيمة ، تبتغى النهضة بالإسلام ، كى تتخذ لها المكان اللائق بها بين أمم الحضارات الأخرى ، وليس على حساب تلك الأمم ، ولا فى عداء لتلك الحضارات[1] .

---

(١) مراجع :

١ - الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغانى . دراسة وتحقيق : د . محمد عمارة . طبعة بيروت سنة ١٩٧٩ م .

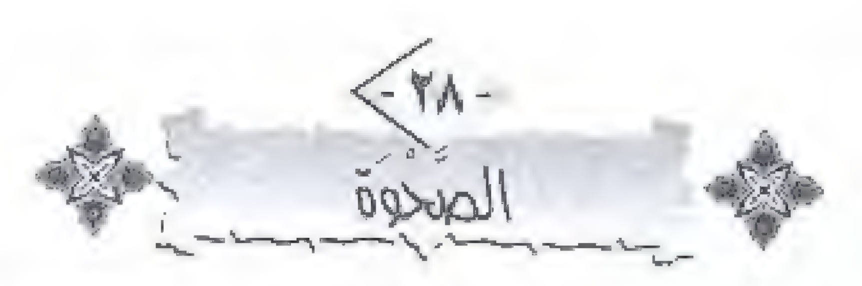
٢ - الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده . دراسة وتحقيق : د . محمد عمارة . طبعة القاهرة سنة ١٩٩٣م .

٣ - حاضر العالم الإسلامى - لـ لوثروب ستودارد . ترجمة : عجاج نويهض . وتعليق : شكيب أرسلان . طبعة بيروت سنة ١٩٧١ م .

٤ - مجموعة رسائل الإمام الشهيد حسن البنا . طبعة دار الشهاب القاهرة - بدون تاريخ . .

٥ - جمال الدين الأفغانى بين حقائق التاريخ وأكاذيب لويس عوض للدكتور محمد عمارة طبعة القاهرة سنة ١٩٩٧ م .

٦ - الجامعة الإسلامية والفكرة القومية عند مصطفى كامل . للدكتور محمد عمارة طبعة القاهرة سنة ١٩٩٤ م .



الصَّحْوة - لغة - من الصَّحْو - وهو ذهاب الغيم . . وارتفاع النهـار . . وذهاب السُّكْر . . وترك الصِّبـا والبـاطل . . وفى الاصطلاح : هى اليقظة ، تصيب الفرد أو الأمة ، بعد سِنَةٍ وغفلة وتخلُّف وتراجع . . ويشيع إطلاقها - فى واقعنا المعاصر - على نزوع أمتنا إلى النهضة الإسلامية ، بعد عصر التراجع الحضارى ، الذى امتد تحت حكم العسكر المماليك والسلطنة العثمانية . . وهى صحوة تجاهد على صعيدين ، وفى جبهتين :

١ - صعيد وجبهة التخلف الذاتى ، الموروث عن حقبة التراجع الحضارى . .

٢ - وصعيد وجبهة التحديات الغربية ، التى تريد تهميش دور الأمة الإسلامية ، وإلحاقها بالتبعية للغرب ، ليتأبد استغلال الغرب وهيمنته على عالم الإسلام . .

ووصف هذه الصحوة بالإسلامية ، إنما يأتى تمييزا لها عن مشاريع النهوض التى اختار أصحابها المذاهب والفلسفات الغربية مرجعية لدعوات النهوض ونماذج التحديث التى يبشرون بها - ليبرالية . . أو اشتراكية . . أو قومية كانت تلك النماذج والدعوات - . .

فالصحوة الإسلامية هى ذلك التيار العريض - المتعدد الفصائل والمستويات - الذى يسعى إلى تجديد الدين الإسلامى لتتجدد به دنيا المسلمين . .

ولما كانت سُنّة الله ، سبحانه وتعالى ، فى مسارات الأمم والحضارات ، هى «سنة الدَّوْرات» ، التى تتداول فيها الأمم والحضارات فترات وحقب التقدم والتراجع ، والصعود والهبوط ، والنهوض والركود ، والحياة والموات . . وهى السنة التى أشار إليها القرآن الكريم عندما قال : ﴿ وتلك الأيام نداولها بين الناس وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء والله لا يحب الظالمين ﴾ [آل عمران : ١٤٠] ﴿ وإن تتولوا يستبدل قوما غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم ﴾ [محمد : ٣٨] ﴿ ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ﴾ [البقرة : ٢٥١] والتى بيّنها حديث رسول الله ، ﷺ ، الذى قال فيه : «لايلبث الجور بعدى إلا قليلا حتى يطلع ، فكلما طلع من الجور شيء ذهب من العدل مثله ، حتى يولد فى الجور من لم يعرف غيره . ثم يأتى الله ، تبارك وتعالى ، بالعدل ، فكلما جاء من العدل شيء ذهب من الجور مثله ، حتى يولد فى العدل من لايعرف غيره» - رواه الإمام أحمد - . .

إذا كانت «سُنّة الدَّوْرات» هى التى تحكم مسارات الأمم والحضارات ، فإن هذه السُّنّة تقتضى «الصحوة» . . و «اليقظة» . . و «التجديد» ، خروجا من مراحل ودورات «الغفلة» . . و «التراجع» . . و «الجمود» . . فصحوة التجديد هى الأخرى سُنّة من سنن الله فى الاجتماع الإنسانى وفى مسارات الحضارات . . وعن هذه الحقيقة - التى يؤكدها استقراء مسارات الحضارات الإنسانية ، - ينبىء حديث

رسول الله ، ﷺ ، الذى يقول : « يبعث الله لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها »- رواه أبو داود - . .

وإذا كانت الحضارات الإنسانية هى مواضعات بشرية وإبداعات مدنية ، لاتوصف بالخلود ولا بالإطلاق ، ومن ثم يجوز عليها الموت وإخلاء الطريق لحضارات أخرى وارثة لأممها وشعوبها وتاريخها ، بمعنى أن سنة الصحوة والتجديد قد تأتى فى صورة تداول الحضارات ، لا بعثها وتجددها . . فإن الحضارة الإسلامية- وأيضا اللغة العربية - مع أنهما مواضعات بشرية وإبداعات إنسانية - هما استثناء من مصير موت وفناء الحضارات واللغات . . فالعاملة فيهما هى سُنّة البعث والصحوة والتجدد ، لا سُنّة الموات ، وذلك لارتباطهما بالمطلق الدينى- وهو الإسلام الخالد والخاتم . . والقرآن الكريم ، الذى تعهد الله بحفظه ، وجعله بلسان عربى مبين - . ولذلك ، كانت الصحوة وكان التجديد سنة مطردة وقانونا لازما فى مسار الحضارة الإسلامية ، يقودها إلى النهوض بعد كل ركود . . وهذا هو الذى جعل حضارتنا الإسلامية . . ومعها اللغة العربية - أطول الحضارات المعاصرة عمرا ، وأرسخها قدما على درب النهوض من العثرات ، وأكثرها استعصاء على فقدان الهوية والخصوصية ، لارتباط ذلك فيها بالمطلق الدينى والخالد الإلهى . . فهى إبداع مدنى بشرى ، حفز إليه وصبغه وحدد معاييره الوضع الإلهى ، المتمثل فى وحى الله ونبأ السماء العظيم- وتلك خصيصة لحضارتنا الإسلامية تفردت بها دون كل الحضارات - . .

وإذا كانت الحقبة «المملوكية- العثمانية» قد مثلت مرحلة التراجع فى مسيرة حضارتنا الإسلامية ، فإن بواكير الصحوة الإسلامية قد بدأت فى بلادنا منذ أكثر من قرنين من الزمان . .

وفى استطاعة المؤرخ لهذه الصحوة أن يتخذ من نداء الشيخ حسن العطار [١١٨٠ - ١٢٥٠هـ ١٧٦٦ - ١٨٣٥م] - أواخر القرن الثامن عشر الميلادى - علامة على مرحلة التبلور لبواكير هذه الصحوة . . ذلك النداء الذى قال فيه هذا الشيخ الرائد : «إن بلادنا لابد أن تتغير ، ويتجدد بها من العلوم والمعارف ما ليس فيها . .»

ولقد كان تلاميذ الشيخ حسن العطار - وفى طليعتهم الشيخ رفاعة الطهطاوى [١٢١٦ - ١٢٩٠ هـ ١٨٠١ - ١٨٧٣م] - الذين سعوا إلى تجديد «الذات الإسلامية» - بالإحياء- وإلى الاستفادة من علوم المدنية الغربية - علوم الواقع والتمدن المدنى - بالتفاعل- وليس بالمحاكاة والتقليد - كانت هذه المدرسة هى طلائع وجذور الصحوة الإسلامية الحديثة والمعاصرة...

فلما حدث وعاجل المد الاستعمارى الغربى مشروع النهضة الذى قاده محمد على باشا الكبير [١١٨٤ - ١٢٦٥هـ ١٧٧٠ - ١٨٤٩م] - والذى جسد إلى حد كبير فكر هذه الصحوة - تسلم ريادة هذه الصحوة تيار الجامعة الإسلامية ، الذى تبلور - شعبيا - عبر العالم الإسلامى - حول جمال الدين الأفغانى [١٢٥٤ - ١٣١٤ هـ ١٨٣٨ - ١٨٩٧م] ، والذى كان الإمام محمد عبده المهندس الأول لمشروعه الفكرى النهضوى . . والذى حملته إلى العالم الإسلامى - على امتداد أربعين عاما - مجلة [المنار] التى رأس تحريرها الإمام محمد رشيد رضا [١٢٨٢ - ١٣٥٤هـ ١٨٦٥ - ١٩٣٥م] . . ثم أسلم أمانة هذه الصحوة إلى الحركات والتنظيمات الإسلامية الحديثة - سواء منها تنظيمات الصفوة أو التنظيمات الجماهيرية ، تلك التى نشأت عقب عموم بلوى الاستعمار الغربى للعالم الإسلامى - إبان الحرب

الاستعمارية العالمية الأولى [١٣٣٢ - ١٣٣٦ هـ ١٩١٤ - ١٩١٨ م] - وبعد إسقاط الخلافة الإسلامية [١٣٤٢ هـ ١٩٢٤م] . .

ولأن هذه الصحوة كانت تواجه جناحى المأزق الحضارى : التخلف الموروث . . والزحف الاستعمارى الغربى . . ولأنها قد سعت إلى الإحياء والتجديد الدينى ، لبلورة معالم المشروع النهضوى العصرى ، فى مواجهة الجمود والتقليد اللذين أوجدا «الفراغ الفكرى» فى بلادنا ؛ وهو «الفراغ» الذى سعى الاستعمار الغربى إلى ملئه بنموذجة الحضارى الوضعى العلمانى ؛ فلقد كان تركيز هذه الصحوة على تجديد دين الإسلام لتتجدد به - وليس بالنموذج الغربى - دنيا المسلمين . .

وهذه الحقيقة هى التى جعلت رفاعة الطهطاوى يدعو إلى إحياء الشريعة الإسلامية بالاجتهاد الجديد ، وإلى تقنين فقه معاملاتها ؛ ليحكم - بدلا من القانون الوضعى الفرنسى - حركة الاجتماع والاقتصاد والسياسة فى بلادنا «لأن بحر هذه الشريعة الغراء ، على تفرع مشارعه ، لم يغادر من أمهات المسائل صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها وأحياها بالسقى والرى ، ولم تخرج الأحكام السياسية عن المذاهب الشرعية ، لأنها الأصل ، وجميع مذاهب السياسات عنها بمنزلة الفرع . . ولأن تحسين النواميس الطبيعية لايعتد به إلا إذا قرره الشارع . . فينبغى تعليم النفوس السياسة بطرق الشرع ، لا بطرق العقول المجردة . . أما المعاملات الفقهية ، فإنها لو انتظمت ، وجرى عليها العمل ، لما أخلّت بالحقوق ، بتوفيقها على الوقت والحالة . . وكُتُب الفقه الإسلامية لا تخلو من تنظيم الوسائل النافعة من المنافع العمومية . .»

ولقد انطلق الأفغانى من ذات الموقف- إسلامية الصحوة- فرفض أن نبدأ صحوتنا من حيث انتهى المشروع الغربى العلمانى، قائلا: «إنه لا مُلْجِئ للشرقى فى بدايته أن يقف موقف الغربى فى نهايته.. فالتمدن الغربى هو فى الحقيقة تمدن للبلاد التى نشأ فيها على نظام الطبيعة وسير الاجتماع الإنسانى.. والإسلام هو السبب المفرد لسعادة الإنسان.. ومن طلب إصلاح الأمة بوسيلة سوى هذه، فقد ركب بها شططا، ولا يزيدها إلا نحسا، ولايكسبها إلا تعسا..»

وعلى هذا الدرب - فى إسلامية الصحوة - سار الإمام محمد عبده، قال «إن الإسلام دين وشرع.. وهو لم يَدَعْ ما لقيصر لقيصر، وإنما كان من شأنه أن يحاسب قيصر على ماله، ويأخذ على يديه فى عمله.. فهو كمال للشخص، وألفة فى البيت، ونظام للملك، امتازت به الأمم التى دخلت فيه عن سواها ممن لم يدخل فيه.. فهو المدرسة الأولى التى يرقى فيها البرابرة على سلم المدنية.. ومن طلب إصلاح الأمة من غير طريق الدين فقد بذر بذرا غير صالح للتربة التى أودعه فيها.. فسبيل الدين لمريد الإصلاح فى المسلمين، سبيل لا مندوحة عنها..»

ولم تقف هذه الصحوة عند حدود «الفكر» و«الدعوة».. وإنما سلكت سبيل «التنظيم»، لإبلاغ الرسالة، واستمرارية الدعوة.. فعرفت مسيرتها تنظيمات: «الحزب الوطنى الحر» و«جمعية العروة الوثقى» و«جمعية أم القرى» - فى الثلث الأخير من القرن التاسع عشر - كما عرفت «الحزب الوطنى»، الذى قاده مصطفى كامل باشا [١٢٩١ - ١٣٢٦ هـ ١٨٧٤ - ١٩٠٨م] فى العقد الأول من

القرن العشرين – وهو الحزب الذى جمع– فى دوائر الانتماء – بين «الوطنية» وبين «الجامعة الإسلامية» . . «فالدين والوطنية توءمان متلازمان ، وإن الرجل الذى يتمكن الدين من فؤاده يحب وطنه حبا صادقا ، ويفديه بروحه وما تملك يداه . . وإن فى الإسلام كافة المواد الحيوية لأرقى مدنية يشتهيها بنو الإنسان ، فهو الدين الذى يؤهل أهله وذويه إلى أسعد حالات الحياة وأتم نعيمها . .»

وليس صحيحا مايظنه البعض من أن الصحوة الإسلامية قد تمثلت فقط فى الحركات والتنظيمات الإسلامية فأوسع وأعرض فصائل الصحوة الإسلامية هو التيار الشعبى ، المستمسك بالهوية الإسلامية . . وفى مقدمة مؤسسات الصحوة الإسلامية الأزهر الشريف ، الذى ظل يرعى علوم الشريعة والعربية ويحرس الوجدان الإسلامى للأمة عبر تاريخها الطويل . . كما أن هناك ميادين الإبداع فى الفكر الإسلامى ، والتى شهدت مواكب الأعلام والعلماء والمفكرين ، الذين دافعوا عن إسلامية الصحوة ومشروع النهضة والمدنية ، فى مختلف ميادين الإبداع الفكرى . . وإذا كان الطهطاوى قد تمنى إحياء الشريعة الإسلامية وتقنين فقه معاملاتها ، فلقد سعى على هذا الطريق العديد من أعلام الفقه والقانون . . وكان الدكتور عبد الرزاق السنهورى باشا [١٣١٣ – ١٣٩١هـ ١٨٩٥ ١٩٧١م] واحدا منهم ؛ جعل هذه المهمة مشروع حياته – تأليفا وتطبيقا – «فالإسلام – عنده– دين ودولة . . مُلك إلى جانب العقيدة ، وقانون إلى جانب الشعائر . . وهو دين ومدنية . . والمدنية الإسلامية أساسها الشريعة الإسلامية ، وهى

أكثر تهذيبا من المدنية الأوربية . . والشريعة الإسلامية هى النور الذى نستطيع أن نضىء به جوانب الثقافة العالمية فى القانون . . ودول الشرق لايمكن أن تجتمع على شىء واحد غير الإسلام . . فالإسلام بالشرق ، والشرق بالإسلام . . »

وإذا كانت العقود الأخيرة قد شهدت تعاظم الصحوات الدينية ، فى مختلف الديانات ، بعد أن فشلت مشاريع النهوض والتحديث اللادينية ، فإن تعاظم الصحوة الإسلامية يستند إلى خصيصة إسلامية ، ينفرد بها الإسلام عن غيره من الديانات ، هى منهاجه الشامل ، الذى يجعله بديلا حضاريا ، وليس مجرد عقائد وعبادات . .

هكذا ارتبطت الصحوة الإسلامية بحلم الأمة فى النهوض ، والانعتاق من أسر التخلف الموروث ، ومن الهيمنة الاستعمارية والحضارية الغربية ، منذ فجر هذه الصحوة وحتى الآن[1] .

---

(١) مراجع :

١ - [الأعمال الكاملة لرفاعة الطهطاوى] دراسة وتحقيق : د . محمد عمارة . - طبعة بيروت سنة ١٩٧٣ م .

٢ - [الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغانى] دراسة وتحقيق : د . محمد عمارة . - طبعة القاهرة سنة ١٩٦٨ م . وبيروت سنة ١٩٧٩ م .

٣ - [الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده] دراسة وتحقيق : د . محمد عمارة . - طبعة القاهرة سنة ١٩٩٣ م .

٤ - [الصحوة الإسلامية والتحدى الحضارى] للدكتور . محمد عمارة . - طبعة القاهرة سنة ١٩٩٨ م .

٥ - [هل الإسلام هو الحل؟] للدكتور . محمد عمارة . - طبعة القاهرة سنة ١٩٩٨ م .

- ٢٩ -

الحزب الوطنى الحر

لعله أول تجمع يحمل اسم «الحزب» فى تاريخ الشرق الحديث . أقامه جمال الدين الأفغانى [١٢٥٤ - ١٣١٤ هـ ١٨٣٨ - ١٨٩٧ م] فى سنوات إقامته بمصر فى سبعينيات القرن التاسع عشر [١٨٧١ - ١٨٧٩م] وضم قيادات الدعوة الإصلاحية التى تكونت من حوله ، وخاصة تلاميذه الذين كان يعدهم للعمل السياسى- مقاومة النفوذ الأجنبى الزاحف على بلاد الإسلام . . والتصدى للاستبداد الداخلى . . والمظالم الاجتماعية . . والجمود الفكرى-

وكان الحزب تجمع صفوة وقيادات . . بل لقد نجح الأفغانى فى استمالة الأمير توفيق - ولى العهد يومئذ - إلى مبادئ الحزب ، على أمل أن يلتزم بمنهاجه الفكرى عندما يخلف أباه الخديو إسماعيل [١٢٤٥ - ١٣١٢هـ ١٨٣٠ - ١٨٩٥م] .

وإبان الصراع حول عزل الخديوى إسماعيل ، كانت المرة الأولى التى أعلن فيها عن وجود هذا الحزب . . وكما يقول الإمام محمد عبده [١٢٦٥ - ١٣٢٣ هـ ١٨٤٩ - ١٩٠٥م] فإن الحزب ، بزعامة الأفغانى ، سعى إلى عزل إسماعيل ، وإلى أن يخلفه توفيق [١٢٦٨ - ١٣٠٩ هـ ١٨٥٢ - ١٨٩٢] . . الذى سرعان ماتنكر لمبادئ الحزب . . وخضع لنفوذ الأجانب ، حتى نفى زعيمه -

الأفغاني - من مصر في أغسطس سنة ١٨٧٩م ! . . وعزل عددا من قياداته عن مواقع التأثير على الجماهير ! . .

ومن المفارقات - بل المتناقضات - أن مصر شهدت - بعد وفاة الأفغاني ومحمد عبده - قيام حزب يحمل نفس الاسم - [الحزب الوطني الحر]- في سبتمبر سنة ١٩٠٧م . . لكنه كان مؤلفا من عملاء الاستعمار الإنجليزي ، المبشرين بمنافع الاحتلال وأفضاله على مصر ، والداعين إلى «استيعاب الحضارة الأوربية» . . وكان من قادته محمد وحيد الأيوبي -وهو زعيمه- ومجموعة المثقفين الموارنة الذين مثلوا الأركان الثقافية والإعلامية لسلطات الاحتلال الإنجليزي في مصر - يعقوب صروف . . وشاهين مكاريوس . . وفارس نمر . . الخ . .

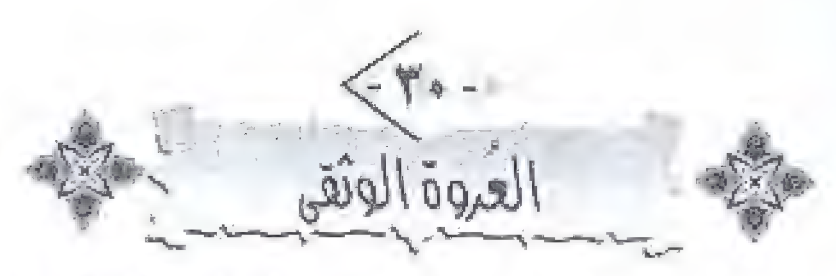
وكان قيام هذا الحزب ردا استعماريا على قيام [الحزب الوطني] الذي تزعمه مصطفى كامل [١٢٩١ - ١٣٢٦ هـ ١٨٧٤ - ١٩٠٨م] والذي تألف في نفس العام- سنة ١٩٠٧ م - . . لكن حزب مصطفى كامل عاش - كتنظيم وطني - وكصيغة فكرية جمعت بين الانتماء الوطني والجامعة الإسلامية . . حتى لقد تفرعت عن هذه الصيغة الفكرية كثير من حركات ودعوات وأحزاب التغيير في تاريخ مصر الحديث . . بينما اختفى حزب الأيوبي ومكاريوس وصروف ![1] .

---

(١) مراجع :

[جمال الدين الأفغاني : موقظ الشرق وفيلسوف الإسلام] للدكتور محمد عمارة . طبعة دار الشروق سنة ١٩٨٨م .

[موسوعة السياسة] طبعة بيروت سنة ١٩٨١م .



- ٣٠ -
العروة الوثقى

اسم لجمعية سياسية سرية . . وعنوان للمجلة العلنية التى كانت لسان حال هذه الجمعية السرية .

أما الجمعية فهى التى أنشأها جمال الدين الأفغانى [١٢٥٤ - ١٣١٤ هـ ١٨٣٨ - ١٨٩٧م] وناب عنه فى رئاستها الشيخ محمد عبده [١٢٦٥ - ١٣٢٣ هـ ١٨٤٩ - ١٩٠٥م] فى ثمانينيات القرن التاسع عشر، وبالذات عقب احتلال انجلترا لمصر سنة ١٨٨٢م . . وكانت تنظيم صفوة ونخبة ، يضم ساسة وقادة وعلماء . . ومقصده الأول مقاومة الزحف الاستعمارى على بلاد الشرق ؛ وخاصة الاستعمار الإنجليزى ، أما نطاق التنظيم فكان العالم الإسلامى ، وخاصة مصر وشبه القارة الهندية .

ولقد بقى من أوراق هذا التنظيم - غير أعداد المجلة التى نطقت باسمه - «لائحة» تنظيم «عقوده» - أى خلاياه - وهى تعكس خبرة فى التنظيم الحزبى لم تكن الأحزاب الأوربية قد بلغتها فى ذلك التاريخ ، وأغلب الظن أن محمد عبده - وهو واضعها - والأفغانى - وهو عقل التنظيم المدبر - قد استفادا من تراث الحركات السرية فى تاريخ الحضارة الإسلامية . . كما بقيت من أوراق التنظيم مراسلات بعثها محمد عبده إلى بعض عقود

الجمعية ، عكست خبرات فى فن الدعوة والعمل السرى تستلفت الانتباه..

أما المجلة - التى حملت ذات الاسم - [العروة الوثقى] - فلقد أصدرها الأفغاني - كمدير للسياسة- ومحمد عبده - كمحرر أول - من غرفة فوق سطح أحد المنازل ٦ شارع «مارتل» بباريس . . وصدر منها ثمانية عشر عددا - أولها بتاريخ الخميس ١٥ جمادى الأولى سنة ١٣٠١ هـ ١٣ مارس سنة ١٨٨٤ م وآخرها بتاريخ الخميس ٢٦ ذى الحجة سنة ١٣٠١ هـ ١٦ أكتوبر سنة ١٨٨٤م - . وكانت المجلة ترسل سرا إلى قرائها فى بلاد العالم الإسلامى الخاضعة للاحتلال . . فلما ضيقت سلطات الاحتلال عليها سبل الوصول - وفرضت الحكومة الإنجليزية بالهند - مثلا- على من تضبط عنده [العروة الوثقى] غرامة مائة جنيه مع الحبس سنتين !- اضطرت المجلة إلى التوقف عن الصدور . .

ولقد عبرت أعداد العروة الوثقى عن منهاج الجمعية فى التجديد الدينى والإصطلاح الاجتماعى ، ومثلت مقاومة هذا التيار للزحف الاستعمارى على بلاد الإسلام . كما عكست مقالاتها خبرة متميزة بواقع السياسة الدولية يومئذ وتياراتها وتناقضاتها وصراعاتها ، مع لمحات عن كيفية استفادة المسلمين من هذه التناقضات . .

وكانت مقالات العروة - حتى بعد توقفها - واحدة من أدبيات

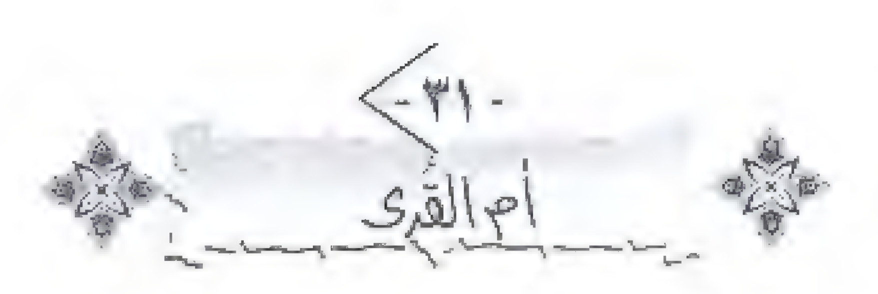
الدعوة الإصلاحية الإسلامية ، ظلت لعقود كثيرة ينسخها الساسة والدعاة والعلماء ويتتلمذون على أفكارها .

ومقالات أعداد العروة مطبوعة فى [الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغانى] أما لائحتها ومراسلات محمد عبده مع أعضائها فهى فى [الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده][1]..



---

(١) مراجع :
[الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغانى] دراسة وتحقيق : د . محمد عمارة . طبعة بيروت سنة ١٩٨١م .
[الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده] دراسة وتحقيق : د . محمد عمارة . طبعة دار الشروق سنة ١٩٩٣م



هى جمعية سرية ، أنشأها عبد الرحمن الكواكبى [١٢٧٠ - ١٣٢٠هـ ١٨٥٤ - ١٩٠٢] ودعا إلى مؤتمر سرى حضره - فى مكة - أم القرى - مندوبون مثلوا أغلب شعوب الأمة الإسلامية .. سماه «مؤتمر النهضة الإسلامية» - ولقد عرف الناس بأمر هذه الجمعية عند نشر الكواكبى مذاكرات وحوارات هذا المؤتمر - بعد تطويرها - فى كتابه [أم القرى] ...

وكان انعقاد هذا المؤتمر فى شهر ذى القعدة - فى موسم حج سنة ١٣١٦ هـ - مارس - أبريل سنة ١٨٩٩ م - وفى المدة من ١٥ حتى ٢٩ ذى القعدة عقد المؤتمرون اثنى عشر اجتماعا ، بحثوا فيها أسباب «الفتور» فى الأمة الإسلامية ، وسبل النهوض بها .. ولقد اتخذ المؤتمرون أسماء مستعارة - فى مداولاتهم - بدلا من أسمائهم الحقيقية .. وهى السيد الفراتى ، والفاضل الشامى ، والبليغ القدسى ، والكامل الإسكندرى ، والعلامة المصرى ، والمحدث اليمنى ، والحافظ البصرى ، والعالم النجدى ، والمحقق المدنى ، والأستاذ المكى ، والحكيم التونسى ، والمرشد الفاسى ، والسعيد الانكليزى ، والمولى الرومى ، والرياضى الكردى ، والمجتهد التبريزى ، والعارف التاتارى ، والخطيب القازانى ، والمدقق التركى ، والفقيه الأفغانى ، والصاحب الهندى ، والشيخ السندى ، والإمام الصينى ..

بل واتخذوا «شفرة - رقمية» لهذه الألقاب ! . .

ولقد وصلت مداولات المؤتمر إلى عشرة نتائج . . هى :

١ - المسلمون فى حالة فتور مستحكم عام .

٢ - يجب تدارك هذا الفتور سريعا ، وإلا فتنحل عصبيتهم كليا .

٣ - سبب الفتور : تهاون الحكام ، ثم العلماء ، ثم الأمراء .

٤ - جرثومة الداء : الجهل المطلق .

٥ - أضر فروع الجهل : الجهل فى الدين .

٦ - الدواء هو : أولا : تنوير الأفكار بالتعليم . ثانيا : إيجاد شوق للترقى فى رؤوس الناشئة .

٧ - وسيلة المداواة : عقد الجمعيات التعليمية والقانونية .

٨ - المكلفون بالتدبير هم : حكماء ونجباء الأمة من السراة والعلماء .

٩ - الكفاءة لإزالة الفتور بالتدريج موجودة فى العرب خاصة .

١٠ - يلزم تشكيل جمعية ذات مكانة ونفوذ فى دائرة القانون - الآتى البيان - باسم : [جمعية تعليم الموحدين] .

وهكذا انتهى المؤتمر السرى لجمعية أم القرى - بعد تشخيص الداء . . والإشارة إلى الدواء - بتكوين جمعية قانونية - اتخذوا من مصر مقرا لها . . لكن صفحتها قد طويت بموت الكواكبى سنة ١٩٠٢م .

وعلى حين يرى البعض أن هذه الجمعية هي من «خيال» الكواكبي، تصورها ليسوق على ألسنة أعضائها الحوار حول مشكلات الأمة.. فإن الشيخ رشيد رضا [١٢٨٢ - ١٣٥٤هـ ١٨٦٥ - ١٩٣٥م] يقول - نقلا عن الكواكبي - : «إن لهذه الجمعية أصلا»[1].



---

(١) المراجع:

[الأعمال الكاملة لعبد الرحمن الكواكبي] دراسة وتحقيق: د. محمد عمارة. طبعة بيروت سنة ١٩٧٥م.

[عبد الرحمن الكواكبي: شهيد الحرية ومجدد الإسلام] للدكتور محمد عمارة - طبعة سنة ١٩٨٨ م.

- ٣٢ -

الإخوان المسلمون

فى الوقت الذى كانت تتفتح فيه وتنضج «المشاعر الإسلامية» لدى الشيخ حسن البنا [١٣٢٤ - ١٣٦٨ هـ ١٩٠٦ - ١٩٤٩ م] - مؤسس ومرشد وقائد كبرى الجماعات الإسلامية فى عصرنا الحديث- كانت ساحة العالم الإسلامى تشهد تحولات وأحداثا بلغت مبلغ الزلازل والكوارث والنذر التى زلزلت ضمير الأمة من الأعماق ، واستفزت واستنفرت عوامل المقاومة لخطر الهيمنة الغربية الزاحفة ، ولاحتواء عالم الإسلام من قبل الغزوة الاستعمارية الحديثة . . حفاظا على الذات الحضارية الإسلامية المهددة بالاقتلاع ! . .

● ففى [٢٢ رجب ١٣٤٢هـ ٣ مارس ١٩٢٤م]ألغيت الخلافة العثمانية . . فزال «الرمز» الذى حافظ - ولو من حيث الشكل - على وحدة الأمة ، والذى أبقت عليه الأمة منذ ظهور الإسلام . .

● وفى [رمضان ١٣٤٣ هـ أبريل ١٩٢٥م] نشر الشيخ على عبد الرازق [١٣٠٥ - ١٣٨٦هـ ١٨٨٧ - ١٩٦٦م] كتابه [الإسلام وأصول الحكم] . . فكان أول كتاب يكتبه مسلم ، بل وشيخ أزهرى ، يتولى منصب القضاء الشرعى . . يزعم أن الإسلام «دين» لا «دولة» . . و «وينظِّر»- من ثم - لإلغاء الخلافة الإسلامية . عندما ينفى عن نظامها أى علاقة بالإسلام . .

● وفى [ذى القعدة ١٣٤٣ هـ يونية ١٩٢٥م] عزل الإنجليز الشريف حسين بن على [١٢٧٢ - ١٣٥٠هـ ١٩٥٦- ١٩٣١م] ونفوه إلى جزيرة قبرص . . فجسدوا بهذا القرار غدرهم بالحركة العربية والفكرة القومية العربية ، التى استعانوا بها واستخدموها خلال الحرب العالمية الأولى ضد الفكرة الإسلامية والخلافة الإسلامية والعثمانية . . فبلغ الاستعمار ما أراد ، وضاع من يد المسلمين- إسلاميين كانوا أو قوميين- كل شىء ! . .

● وفى [سنة ١٣٤٤ هـ سنة ١٩٢٦م] نشر الدكتور طه حسين [١٣٠٦ - ١٣٩٣ هـ ١٨٨٩ - ١٩٧٣] كتابه [فى الشعر الجاهلى] . . الذى استخدم فيها «الشك الديكارتى» للتشكيك فى «الشعر الجاهلى» . . ثم تجاوز نطاق «الشعر» فشكك فى بعض قصص القرآن الكريم ، من أمثال قصص الحنفاء . . وإبراهيم وإسماعيل ، عليهما السلام ! . .

فكان هذا الكتاب - بعد كتاب [الإسلام وأصول الحكم] - ثانى عمل فكرى - يكتبه شيخ أزهرى- يمثل اقتحام «التغريب» لمقدسات المسلمين ، واستفزاز «النزعة المادية» الغربية لمشاعر المسلمين! . .

حدثت هذه الأحداث- وأمثالها- التى هزت كيان الإسلاميين ، فاستنفرتهم للمقاومة ، على حين كانت «المشاعر الإسلامية» للشيخ حسن البنا تتبلور ويكتمل نضجها ، فكانت العامل الحاسم الذى دفعه إلى تكوين «جماعة الإخوان المسلمين»- بمدينة الإسماعيلية أولا - حيث كان يدرس اللغة العربية بإحدى

مدارسها الابتدائية - فى سنة ١٣٤٧ هـ سنة ١٩٢٨م - . . والتى نمت فغدت كبرى الحركات الإسلامية فى عصرنا الحديث . .

وإذا شئنا كلمات للرجل تشير إلى علاقة هذه الأحداث التى زلزلت كيان الأمة بتأسيس هذه الجماعة ؛ فإن فى كلمات المرشد الدليل . . يقول : « . . وليس يعلم أحد إلا الله كم من الليالى كنا نقضيها - [هو وثلاثة رفاق جالت فى أذهانهم الفكرة]- نستعرض حال الأمة ، وما وصلت إليه فى مختلف مظاهر حياتها ، ونحلل العلل والأدواء ، ونفكر فى العلاج وحسم الداء ، ويفيض بنا التأثير لما وصلنا إليه إلى حد البكاء؟ ! . . وكم كنا نعجب إذ نرى أنفسنا فى مثل هذه المشغلة النفسانية العنيفة ، والخليون يتسكعون بين المقاهى ويترددون على أندية الفساد والإتلاف؟! . . لقد كانت ، فى مصر وغيرها من بلدان العالم الإسلامى ، حوادث عدة ، ألهبت نفسى ، وأهاجت كوامن الشجن فى قلبى ، ولفتت نظرى إلى وجوب الجد والعمل ، وسلوك طريق التكوين بعد التنبيه ، والتأسيس بعد التدريس!» . .

لقد كانت هذه الأحداث ، التى شهدها العالم الإسلامى عقب الحرب العالمية الأولى ، إيذانا بسيطرة الغرب على الشرق ، واقتحام الحضارة الغربية قدس أقداس الإسلام والمسلمين . . لقد احتلت الديار ، ونهبت الثروات ، ثم اقتحمت ميدان الفكر ، والفكر الدينى ، بل وبواسطة عدد من «الشيوخ - العلماء» . . فلم يكن هناك بد من تنبه المشاعر : «القومية» ، ردا على «الغزو السياسى» ، و «الإسلامية» ، ردا على هذا «الطغيان الفكرى والاجتماعى» . .

وبعبارة الشيخ حسن البنا : « . . إن الحضارة الغربية ، بمبادئها المادية ، قد انتصرت فى هذا الصراع الاجتماعى على الحضارة الإسلامية ، بمبادئها القوية الجامعة للروح والمادة معا ، فى أرض الإسلام نفسه ، وفى حرب ضروس ميدانها نفوس المسلمين وأرواحهم وعقائدهم وعقولهم ، كما انتصرت فى الميدان السياسى والعسكرى . . وكما كان لذلك العدوان السياسى أثره فى تنبيه المشاعر القومية ، كان لهذا الطغيان الاجتماعى أثره كذلك فى انتعاش الفكرة الإسلامية . .»! . .

هكذا نشأت «جماعة الإخوان المسلمين» . . موقفا مجاهدا ضد التحدى الغربى الحضارى ، أولا ، باعتبار أن الانتصار الإسلامى على جبهة الصراع هذه ، هو السبيل لإنقاذ النفس المسلمة ، وتسليحها بالإسلام ، كى تستطيع تحقيق النصر على الحضارة الغربية فى ميادين السياسة والعسكرية والاقتصاد- وموقفا مجددا ، أيضا ، على جبهة الموروث الإسلامى ، المثقل بكثير من البدع ، وبما تجاوزه التطور من أقوال السالفين . . إذ التجديد هو السبيل لإبداع البديل الإسلامى للنموذج المادى الغربى الذى جاء به الغرب فى ركاب جيوش الغزو والاستعمار ! . .

ولهذه الملابسات جميعا ، قدمت «جماعة الإخوان المسلمين» رؤيتها الشاملة للإسلام . . دين ودولة . . مصحف وسيف . . قيم وسلوك . . فرد ومجتمع وأمة . . عقيدة وشريعة وحضارة . . ودعت الأمة إلى حمل هذه الرسالة ، ولم تقف بها عند حدود الصفوة والنخبة والعلماء . .

ولقد مثلت كتابات المرشد الأول للجماعة التعبير الأول عن فكرها وعن رسالتها . .

● فنقده للحضارة الغربية ولأمراضها المزمنة يبرز فى حديثه عن قسماتها التى يبرز فيها :

أ - الإلحاد والشك فى الله وإنكار الروح والجزاء الأخروى والوقوف عند حدود الكون المادى المحسوس . .

ب - والإباحية والتهافت على اللذة والتفنن فى الاستمتاع وإطلاق الغرائز الدنيا من عقالها . .

جـ - والأثرة فى الأفراد . .

د - والربا السائد فى الاقتصاد والمعاملات المالية . .

هـ - والفشل فى تحقيق السعادة والطمأنينة للإنسان ، على الرغم من الوفرة المادية والتقدم العلمى ، والتفوق العسكرى . .

● ونقده للتخلف الموروث من عصور تراجعنا الحضارى وجمودنا الفكرى ، تراه فى تحليله لعوامل التحلل فى كيان الدولة الإسلامية . . ومنها :

أ - الخلافات السياسية والعصبية وتنازع الرياسة والجاه . .

ب - والخلافات الدينية والمذهبية . .

جـ - والانغماس فى ألوان الترف والنعيم . .

د - وانتقال السلطة والرياسة إلى غير العرب : من الفرس تارة والديلم تارة أخرى والمماليك والأتراك وغيرهم ممن لم يتذوقوا طعم

الإسلام الصحيح، ولم تشرق قلوبهم بأنوار القرآن لصعوبة إدراكهم لمعانيه . .

هـ - وإهمال العلوم العملية والمعارف الكونية، وصرف الأوقات وتضييع الجهود فى فلسفات نظرية عقيمة وعلوم خيالية سقيمة . .

و - وغرور الحكام بسلطانهم والانخداع بقوتهم وإهمال النظر فى التطور الاجتماعى للأمم من غيرهم، حتى سبقتهم فى الاستعداد والأهبة وأخذتهم على غرة . .

ز - والانخداع بدسائس المتملقين من خصومهم، والإعجاب بأعمالهم ومظاهر حياتهم والاندفاع فى تقليدهم فيما يضر ولا ينفع . .

فالإخوان قد وقفوا من التراث موقفا نقديا . . وكذلك صنعوا فى النظرة إلى التاريخ الإسلامى . . فكانوا - بعبارة الشيخ البنا- : «دعوة من الدعوات التجديدية لحياة الأمم والشعوب . .» . .

وهم وإن لم يبلغوا فى التجديد والعقلانية مستوى مدرسة جمال الدين الأفغانى [١٢٥٤ - ١٣١٤ هـ ١٨٣٨ - ١٨٩٧م] والإمام محمد عبده [١٢٦٦ - ١٣٢٣هـ ١٨٤٩ - ١٩٠٥] إلا أنهم لم يهبطوا - فى هذا الميدان- إلى مستوى الدعوة الوهابية! . . فلقد كان للعقل والعقلانية فى تجديدهم مكان ملحوظ، وإن لم يكن بارزا؟! . . ولقد قطع الأستاذ البنا باستحالة التناقض والصدام بين «النظر العقلى» و «النظر الشرعى» فى الأمور «القطعة» . . ورأى أن بعض المجالات مختص بواحد من سبل النظر دون الآخر . .

كالإلهيات ، مثلا . . «فذات الله ، تبارك وتعالى ، أكبر من أن تحيط بها العقول البشرية ، أو تدركها الأفكار الإنسانية ، لأنها مهما بلغت من العلوم والإدراك محدودة القوة ، محصورة القدرة . . فالعقل البشرى قاصر عن إدراك حقائق الأشياء» فى مثل هذه الميادين . . ولذلك ، فإن «الإسلام قد أرشد العقول إلى التزام حدها ، وعرفها قلة علمها ، وندبها إلى الاستزادة من معارفها ؛ فقال تعالى : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا (٨٥) ﴾ [الإسراء : ٨٥] وقال تعالى : ﴿ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا (١١٤) ﴾ [طه : ١١٤] .

وإذا كانت «طبيعة المبحث» هى التى تحدد «أداة النظر» فيه ، وهل الأولى أن تكون «العقل» أو «الشرع» ، فإن خلافهما إنما يكون فى «الظاهر» ، وفيما هو «ظنى» ، لم يبلغ فيه أحدهما مرتبة «اليقين» . . «فقد يتناول كل من النظر الشرعى والنظر العقلى ما لا يدخل فى دائرة الآخر ، ولكنهما لن يختلفا فى القطعى ، فلن تصطدم حقيقة علمية بقاعدة شرعية ثابتة ، ويؤول الظنى منها ليتفق مع القطعى ، فإن كانا ظنيين فالنظر الشرعى أولى بالاتباع حتى يثبت العقلى أو ينهار» . .

وإذا كان الإسلام قد رفض «غرور العقل» و «انفراده بالنظر» فى كل الميادين ، ودعا إلى التوازن بين نظره وبين النظر الشرعى . . فإنه «لم يحجر على الأفكار ولم يحبس العقول . . بل جاء يحرر

العقل، ويحث على النظر فى الكون، ويرفع قدر العلم والعلماء، ويرحب بالصالح النافع من كل شيء» . .

كما قال الشيخ حسن البنا . .

● والجهاد لتحقيق الاستقلال السياسى لكل أوطان الأمة الإسلامية واحد من أبرز أهداف جماعة الإخوان المسلمين . . بل إنه حجر الزاوية، الذى ستترتب عليه إمكانات تحقيقهم لكثير من الأهداف التى يقف دونها ويمنع من تحقيقها الاستعمار . . والوطن الذى يجاهد الإخوان لتحريره يشمل «القطر الخاص أولا، ثم يمتد إلى الأقطار الإسلامية، ثم يرقى إلى الإمبراطورية الإسلامية الأولى» . . - فهم لاينسون الأجزاء السليبة والفراديس المفقودة من هذه الإمبراطورية الإسلامية . . بل إنهم يدعون إلى تحرير سائر «الشعوب الشرقية» من الاستعمار الغربى . . ويؤكدون على أن «كل دولة اعتدت وتعتدى على أوطان الإسلام هى دولة ظالمة، لابد أن تكف عدوانها . ولابد من أن يعد المسلمون أنفسهم ويعملوا متساندين على التخلص من نيرها . . لأن الإسلام لايرضى من أبنائه بأقل من الحرية والاستقلال، فضلا عن السيادة وإعلان الجهاد، ولو كلفهم ذلك الدم والمال . .» . .

● والاستقلال والتحرر لا يقفان، فى الفكر السياسى للإخوان، عند حدود الاستقلال السياسى . . وإنما هم يؤكدون على أهمية وضرورة الاستقلال الاقتصادى للبلاد الإسلامية، لما له من الأهمية الكبرى فى جعل الاستقلال السياسى حقيقة لا مجرد شكل يقف عند «العَلَم» و «النشيد»! . .

وفى كتابات الشيخ حسن البنا تتناثر الأفكار الداعية إلى رفض سيطرة الشركات الأجنبية على اقتصاديات مصر . الأمر الذى جعل الأجانب المحتلين أحسن حالا من بنيها . . وضرورة تحقيق «نظام اقتصادى استقلالى للثروة والمال» ، تحقق فيه «استقلال نقدنا» عن فلك الاستعمار ، «وتمصير الشركات ، وإحلال رؤس الأموال الوطنية محل رؤس الأموال الأجنبية كلما أمكن ذلك ، وتخليص المرافق العامة - وهى أهم شىء للأمة - من يد غير أبنائها ، فلا يصح بحال أن تكون هذه المرافق بيد شركات أجنبية ، تبلغ رؤس أموالها وأرباحها الملايين من الجنيهات ، ولا يصيب الجمهور الوطنى ولا العامل الوطنى منه إلا البؤس والشقاء والحرمان» . . كذلك «تجب العناية بالمشروعات الوطنية الكبرى ، المهملة ، التى طال عليها الأمد . . ويجب التحول إلى الصناعة فورا . . فهذا التحول هو روح الإسلام! . . مع تشجيع الصناعات اليدوية المنزلية . . وإرشاد الشعب إلى التقليل من الكماليات ، والاكتفاء بالضروريات ، وأن يكون الكبار فى ذلك قدوة للصغار . .»

وهو يدعو إلى أن تتم هذه التنمية الاقتصادية المستقلة فى تعاون وتكامل بين العرب والمسلمين ، ذلك «أن الرابطة بيننا وبين أمم العروبة والإسلام . . تمهد لنا سبيل الاكتفاء الذاتى والاستقلال الاقتصادى ، وتنقذنا من التحكم الغربى فى التصدير والاستيراد وما إليهما ! . .»

لقد كانت دعوتهم إلى استقلال اقتصادى للأمة الإسلامية ، يخلق منها كتلة اقتصادية متكاملة . . ومن هنا كانت دعوة الشيخ حسن البنا

الموجهة إلى كل مسلم وكل مواطن : «يجب أن تخدم الثروة الإسلامية ، بتشجيع المصنوعات والمنشآت الاقتصادية الإسلامية ، وأن تحرص على القرش ، فلا يقع فى يد غير إسلامية مهما كانت الأحوال ، ولا تلبس ولا تأكل إلا من صنع وطنك الإسلامى! . .»

● وهذا الاستقلال الاقتصادى ، الذى دعا إليه الإخوان . . قد نبهوا على أهمية التزام نظامه الاجتماعى بضوابط العدل الإسلامى فى الفكر الاجتماعى . . لقد دعوا إلى «محاربة الربا . . وجمع الزكاة . . وفرض ضرائب اجتماعية على النظام التصاعدى- بحسب المال لا بحسب الربح- يعفى منها الفقراء طبعا ، وتجبى من الأغنياء الموسرين ، وتنفق فى رفع مستوى المعيشة بكل الوسائل المستطاعة . .»

كذلك دعوا إلى إصلاح الخلل المتمثل فى التفاوت الفاحش بين الملكيات الزراعية فى الريف ، ذلك أن «روح الإسلام الحنيف وقواعده الأساسية فى الاقتصاد القومى توجب علينا أن نعيد النظر فى نظام الملكيات فى مصر ، فنختصر الملكيات الكبيرة ، ونعوض أصحابها عن حقهم بما هو أجدى عليهم وعلى المجتمع ، ونشجع الملكيات الصغيرة ، حتى يشعر الفقراء المعدمون بأنه قد أصبح لهم فى هذا الوطن ما يعنيهم أمره ، ويهمهم شأنه . . وأن نوزع أملاك الحكومة على هؤلاء الصغار» . . لقد دعوا إلى ذلك ، بلسان مرشدهم ، وذلك حتى يزول الواقع الاجتماعى المتمثل فى «ثراء فاحش ، وفقر مدقع ، والطبقة المتوسطة تكاد تكون معدومة! . .»

● بل لقد أدرك الإخوان أن الاستقلال السياسى . . والاستقلال

الاقتصادى ، لن يكون لهما وجود حقيقى إلا إذا كانا قسمتين فى حضارة إسلامية مستقلة . . فكانت دعوتهم إلى الاستقلال الحضارى الذى يبرز هوية الأمة ويحميها من التبعية للآخرين . .

فهم ينتقدون الحكام «الذين تربوا فى أحضان الأجانب ، ودانوا بفكرتهم . . حتى أن الفكرة الاستقلالية فى تصريف الشئون والأعمال لاتخطر ببالهم ، فضلا عن أن تكون منهاج عملهم!» . . وينتقدون «تقليد الغرب ، الذى يسرى فى مناحى حياة الأمة سريان لعاب الأفاعى ، فيسمم دماءها ، ويعكر صفو هنائها . . وأكبر مايخشاه الإخوان المسلمون أن تندفع الشعوب الشرقية الإسلامية فى تيار التقليد فترقع نهضاتها بتلك النظم البالية التى انتقضت على نفسها ، وأثبتت التجربة فسادها وعدم صلاحيتها! . .»

لقد تحدث الشيخ البنا عن خطر التبعية الحضارية للغرب . . «فمدنية الغرب تفلس الآن وتنتحر . . ولذلك ، فإننا نريد أن نفكر تفكيراً استقلاليا ، يعتمد على أساس الإسلام الحنيف ، لا على أساس الفكرة التقليدية التى جعلتنا نتقيد بنظريات الغرب واتجاهاته فى كل شىء ، نريد أن نتميز بمقوماتنا ومشخصات حياتنا كأمة عظيمة مجيدة ، تجر وراءها أقدم وأفضل ما عرف التاريخ من دلائل ومظاهر الفخار والمجد . . لقد كانت قيادة الدنيا ، فى وقت ما شرقية بحتة ، ثم صارت بعد ظهور اليونان والرومان غربية ، ثم نقلتها النبوات إلى الشرق مرة ثانية ، ثم غفا الشرق غفوته الكبرى ، ونهض الغرب نهضته الحديثة . . فورث الغرب القيادة

العالمية . وها هو ذا الغرب يظلم ويجور ويطغى ويحار ويتخبط ، فلم تبق إلا أن تمتد يد «شرقية» قوية ، يظللها لواء الله ، وتخفق على رأسها راية القرآن ، ويمدها جند الإيمان القوى المتين ، فإذا الدنيا مسلمة هانئة ، وإذا بالعوالم كلها هاتفة [الحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا نهتدى لولا أن هدانا الله] . . »؟ ! . .

● وهذا الاستقلال الحضارى ، الذى دعا إليه الإخوان ، إذا كان يرفض التقليد والمحاكاة والتبعية ، فهو يرفض كذلك الانغلاق والعزلة بالنسبة للحضارات الأخرى . . «فالإسلام -[كما يقول الشيخ حسن البنا] - لا يأبى أن نقتبس النافع ، وأن نأخذ الحكمة أنى وجدناها . ولكنه يأبى كل الإباء أن نتشبه ، فى كل شىء ، بمن ليسوا من دين الله على شىء ، وأن نطرح عقائده وفرائضه وحدوده وأحكامه ، لنجرى وراء قوم فتنتهم الدنيا واستهوتهم الشياطين!» . . وتجربة المسلمين الأوائل شاهد على أن التفاعل الحضارى مختلف عن التبعية الحضارية ومختلف عن العزلة والانغلاق «فلقد اتصلت هذه الأمم الإسلامية بغيرها من الأمم ، ونقلت كثيرا من الحضارات ، ولكنها تغلبت بقوة إيمانها ومتانة نظامها عليها جميعا ، فعربتها أو كادت ؛ واستطاعت أن تصبغها وأن تحملها على لغتها ودينها بما فيهما من روعة وحيوية وجمال ، ولم يمنعها أن تأخذ النافع من هذه الحضارات جميعا ، من غير أن يؤثر ذلك فى وحدتها الاجتماعية أو السياسية» .

* * *

وإذا كانت جماعة الإخوان قد نشأت فى مصر . . فإنها قد

نظرت إلى كل أوطان المسلمين باعتبارها دار الإسلام والوطن الواحد للأمة الإسلامية الواحدة . . لكنها قد رتبت ، بالنسبة للمسلم : سلما للأوليات . . فالوطن الأخص أولا . . ثم الدائرة القومية - العربية مثلا بالنسبة للعرب - ثانيا - والدائرة الإسلامية ثالثا . . ثم الدائرة الإنسانية التى تشمل جميع الناس . . وبعبارات الشيخ حسن البنا : «فإن الإخوان المسلمين يحبون وطنهم ، ويحرصون على وحدته القومية . . والعرب هم عصبة الإسلام وحراسه . . ومن هنا كانت وحدة العرب أمرا لابد منه لإعادة مجد الإسلام وإقامة دولته وإعزاز سلطانه ، ومن هنا وجب على كل مسلم أن يعمل لإحياء الوحدة العربية وتأييدها ومناصرتها . . فهم لايرون بأسا فى أن يعمل كل إنسان لوطنه ، وأن يقدمه فى العمل على سواه . . ثم هم بعد ذلك يؤيدون الوحدة العربية ، باعتبارها الحلقة الثانية فى النهوض ، ثم هم يعملون للجامعة الإسلامية ، باعتبارها السياج الكامل للوطن الإسلامى العام . . ثم هم يرون الخير للعالم كله . . ولاتعارض بين هذه الوحدات ، بهذا الاعتبار ، فكل منها يشد أزر الأخرى ويحقق الغاية منها . .»

* * *

وإذا كانت تلك هى معالم الإحياء الإسلامى ، كما حددتها أدبيات الإخوان المسلمين . . وتلك هى آفاق دعوتهم وحركتهم . . فإنهم قد دعوا إلى سلوك طريق التربية . . للفرد . . فالأسرة . . فالأمة ، سبيلا إلى الدولة والسلطة . . كما دعوا إلى طريق القوة . . وقال مرشدهم :«إن الإخوان سيستخدمون القوة العملية حيث

لايجدى غيرها ، وحيث يثقون أنهم قد استكملوا عدة الإيمان والوحدة . .» أما طريق الثورة فلقد قالوا إنهم لايفكرون فيه! . . وإن كانوا قد حذروا من بقاء الوضع المتردى فى مختلف ميادين الحياة ، لأن ذلك «سيؤدى حتما إلى ثورة[1]! . .» . .

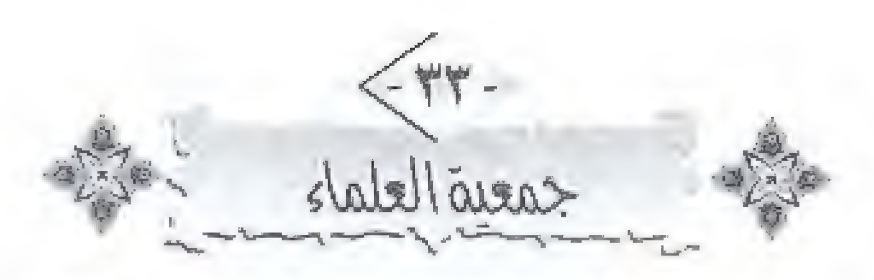


---

(١) مراجع :

[مجموعة رسائل الإمام الشهيد حسن البنا] طبعة دار الشهاب - القاهرة

[الصحوة الإسلامية والتحدى الحضارى] للدكتور محمد عمارة - طبعة القاهرة سنة ١٩٨٥ م .



- ٣٣ -
جمعية العلماء

في سنة ١٨٣٠ بدأ الاستعمار الفرنسي احتلاله للجزائر، واستمرت المقاومة الجزائرية لجيش الاحتلال، بقيادة الأمير عبد القادر الجزائري [١٢٢٢ - ١٣٠٠ هـ ١٨٠٧ - ١٨٨٣م] حتى سنة ١٨٤٨م.. وبعدها بسط الفرنسيون سلطانهم على القطر الجزائري.

ولم يكن استعمار فرنسا للجزائر كاستعمارها لغيرها من البلاد، وإنما كان استيطانا فرنسيا، يريد اقتلاع الشعب العربي المسلم من أرضه، وتحويل الجزائريين إلى مندمجين في حضارة فرنسا - «اللاتينية - النصرانية الفرنسية» - أو إفنائهم بطي صفحة دينهم ولغتهم وحضارتهم من الوجود.. ولذلك جعلت فرنسا من الجزائر ولاية من ولاياتها ومقاطعة من مقاطعاتها، طامحة إلى أن تكون الامتداد «اللاتيني - النصراني» لفرنسا عبر البحر المتوسط..

ولقد تحولت مساجد الجزائر إلى كنائس.. ومدارسها العربية الإسلامية أغلقت، ليصبح التعليم القليل فيها فرنسيا، يؤدي إلى سجن الجزائري المتعلم في قفص الفرنسية وآدابها، وعزله تماما عن لغة دينه وقومه وحضارته!..

وعلى امتداد قرن من بدء الاحتلال الفرنسي للجزائر، حقق الفرنسيون كثيرا من أهدافهم المعلنة: «إن الجزائر لن تصبح حقيقة

مملكة فرنسية إلا عندما تصبح لغتنا الفرنسية هناك لغة قومية تقوم مقام اللغة العربية .. ودمج الجزائريين فينا، وجعلهم فرنسيين»؟!

وعندما شرع الفرنسيون في الاحتفال بمرور قرن على بدء احتلالهم للجزائر، أراد قساوستهم تطوير مطامحهم في الجزائر، فخطب الكاردينال «لافيجرى»، فى احتفالاتهم الصاخبة، فقال: «إن عهد الهلال فى الجزائر قد غبر، وإن عهد الصليب قد بدأ، وإنه سيستمر إلى الأبد.. وإن علينا أن نجعل أرض الجزائر مهدا لدولة مسيحية مضاءة أرجاؤها بنور مدنية منبع وحيها الإنجيل..»؟!..

وكان الشيخ عبد الحميد بن باديس [١٣٠٧ - ١٣٥٩هـ ١٨٨٩ - ١٩٤٠م] واحدا من علماء الجزائر، الذين تتلمذوا على مدرسة الجامعة الإسلامية، وتأثروا بالفكر الإصلاحى لجمال الدين الأفغانى [١٢٥٤ - ١٣١٤هـ ١٨٣٨ - ١٨٩٧م] والإمام محمد عبده [١٢٦٥ - ١٣٢٣ هـ ١٨٤٩ - ١٩٠٥م] من خلال مجلة [المنار] وعلاقات الأمير شكيب أرسلان [١٢٨٦ - ١٣٦٦هـ ١٨٦٩ - ١٩٤٦م] بطلائع النهضة الجزائرية.. فاحترف - منذ سنة ١٩١٢م - تعليم العربية، وتفسير القرآن، وصناعة جيل من الرجال الذين يرون فى «الإسلام - والعربية» قدر الجزائر وطوق نجاتها من المصير الذى أراده لها الفرنسيون.. وعلى هذا الدرب - درب صناعة جيل من علماء «الإسلام - والعروبة» - حقق ابن باديس مكاسب وأقام ركائز ما بين سنة ١٩١٢م و سنة ١٩٣٠م.. فلما طور الفرنسيون من طموحاتهم، وهم يحتفلون بمرور قرن على احتلالهم للجزائر، قرر الجزائريون تطوير آليات مقاومتهم، كرد فعل

على هذا الطموح الفرنسى الجديد . . فكان تكوين «جمعية العلماء المسلمين الجزائريين» ، التى ظهرت رسميا فى ١٧ ذى الحجة سنة ١٣٤٩ هـ ٥ مايو سنة ١٩٣١م . .

ورغم أن الوثائق الرسمية لهذه الجمعية كانت تشير إلى تخصصها فى المجال الإصلاحى والتربوى والتعليمى ، مع البعد عن العمل السياسى . . إلا أن حقيقة مشروعها الإصلاحى لم تكن بعيدة عن السياسة . . صحيح أنها لم تحترف العمل السياسى اليومى ، لكنها احترفت «التأسيس» العربى الإسلامى لذلك الجيل الذى صنعته كى يحترف هو هذا العمل السياسى بالمعنى العام والشامل للسياسة . . ولقد عبر ابن باديس عن هذه العلاقة بين الرسالة الإصلاحية للجمعية وبين «السياسة» ، فى الشعارات التى رفعها : «الجزائر ليست فرنسية . . وهى لا تستطيع ذلك حتى لو أرادت»؟! . . «لابد لنا من الجمع بين السياسة والعلم ، ولاينهض العلم والدين حق النهوض إلا إذا نهضت السياسة بحق» ! . .

فعلى جبهة الإصلاح بالتربية والتعليم لتعود للجزائريين هويتهم العربية الإسلامية ، حولت الجمعية كثيرا من مساجد الجزائر إلى منارات للإصلاح العربى الإسلامى ، بدءا من محو الأمية الأبجدية إلى التفقه فى الدين . . إلى تصحيح الاعتقادات الدينية وفق سلفية عقلانية مستنيرة ، توسطت بين جمود التقليد وخرافات الطرق الصوفية - التى كان الفرنسيون قد نجحوا فى امتطاء كثير منها ركائب لغاياتهم الاستعمارية؟ ! . .

وفى ميدان التعليم النظامى أقامت جمعية العلماء مائة وسبعين

مدرسة . . وذلك غير الكتاتيب التى انتشرت فى كل مكان ، على نحو متطور يقترب بها من المدارس الأولية . .

بل ولقد عزمت على «تأسيس المصانع والملاجئ والمحلات العامة»! . .

واهتمت بتعليم الفتيات اهتمامها بتعليم الفتيان . .

وإذا كان ابن باديس قد أعلن أنه لا يؤلف الكتب ، لأنه مشغول بصناعة الرجال . . فإن النهضة التى أنجزها فى ميدان الصحافة قد جعلت من منهاج الجمعية الإصلاحى تيارا فكريا تصل آثاره إلى كل الجزائريين . . ولقد كانت العلاقة بين صحافة الجمعية وبين سلطات الاحتلال الفرنسى جبهة من جبهات الصراع المحتدم دائما وأبدا ، تسجله وتشهد عليه قرارات الاحتلال بإغلاق صحف الجمعية ، وقرارات الجمعية بإصدار صحف بديلة لتلك التى يغلقها الاستعمار . . فصدرت وأغلقت صحف : «الشهاب» و «السنة» و «الشريعة» و «الصراط» و «البصائر» و «المنتقد» و «الإصلاح» و «صدى الصحراء» . . وغيرها! . .

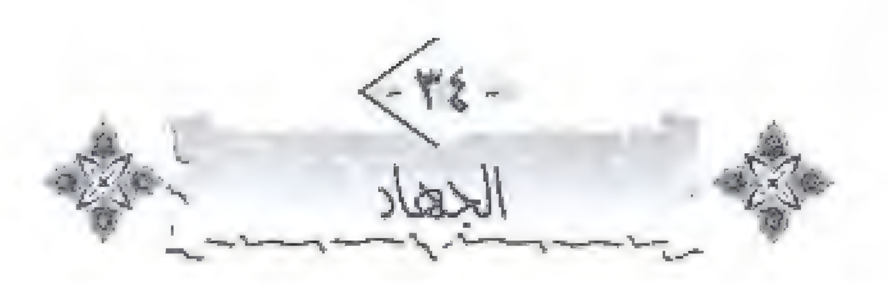
وعندما اشتعلت ثورة الجزائر فى الأول من نوفمبر سنة ١٩٥٤م فإنها كانت بمثابة الثمرة لجيل التأسيس الذى تمثل فى جمعية العلماء . . لقد أرادت الجمعية التأسيس العربى الإسلامى للجيل الذى يرفع السلاح فى وجه فرنسا . . وكان أن تمثل ذلك فى جيل «جبهة التحرير الوطنى»[1] .

---

(١) مراجع :

[آثار ابن باديس] جمعها وحققها : د . عمار طالبى . طبعة الجزائر سنة ١٩٦٨م ،

[مسلمون ثوار] الفصل الخاص بابن باديس - للدكتور محمد عمارة - طبعة القاهرة سنة ١٩٨٨م .



- ٣٤ -

الجهاد

تنظيم الجهاد : اسم على عدة حركات إسلامية سرية ، رافضة لواقع المجتمعات الإسلامية المعاصرة ، وداعية لتغيير هذا الواقع بالجهاد القتالى ، وليس بالتغيير السلمى . .

ومن أشهر هذه الحركات المجموعات التى اشتهرت بهذا الاسم - الجهاد - فى مصر منذ أواخر سبعينيات القرن العشرين ، والتى تراوحت علاقاتها مابين الائتلاف ، بواسطة مجلس للشورى ، يقود مجموعاتها وينسق بين حركاتها ، وما بين الاختلاف . . ولقد اشتهر أمر هذا التنظيم السرى منذ اغتيال نفر من أعضائه رئيس جمهورية مصر العربية أنور السادات فى السادس من أكتوبر سنة ١٩٨١ م [٩ ذى الحجة سنة ١٤٠١هـ] . .

ويجمع بين فكر تنظيمات الجهاد وحركاته :

١ - الحكم بالكفر على «دول» و «حكام» المجتمعات الإسلامية المعاصرة . . وليس على «الأمة» الإسلامية و «عامة» المسلمين .

٢ - التأريخ لكفر «الدول» و «الحكام» بسقوط الخلافة [١٣٤٢هـ ١٩٢٤م] . .

٣ - تعليل هذا الكفر بسيادة القوانين الوضعية - غير الإسلامية

- فى هذه الدول ، وتحاكم الحكام إليها ، بدلا من الشريعة الإسلامية ، التى تمثل حاكمية الله ، سبحانه وتعالى . .

٤ - اعتبار الجهاد القتالى هو السبيل إلى إزالة دول الكفر وحكامه ، وإعادة الإسلام إلى الأمة وإقامة دولة الخلافة الإسلامية . .

٥ - تبنى الرأى القائل بأن آيات القرآن التى تحدثت - فى التعامل مع الخصوم - عن « الصفح » و « العفو » و « الإعراض » و « الصبر » ، قد نسخت بآية « السيف » ﴿ فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصد ﴾ [التوبة : ٥]

٦ - رفض فكرة أن « الجهاد مراحل » منها ما لا يكون بالقتال كجهاد النفس . . والجهاد بالعلم . . الخ . . واستبدالها بأنه « مراتب لا مراحل » . . « فالعلم ليس هو السلاح الحاد والقاطع الذى سوف يقطع دابر الكافرين . . ولكن هذا السلاح هو الذى ذكره الله فى قوله ﴿ قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين (١٤) ﴾ [التوبة : ١٤]

٧ - رفض التغيير وإعادة الإسلام ودولته عن طريق العمل السياسى والتنظيم الحزبى المشروع ، لأن هذا هو طريق « الجمعيات الخيرية » وليس طريق « الجهاد الإسلامى » . .

٨ - رفض طريق «الهجرة» من الأوطان، للعودة إليها فاتحين.. والدعوة إلى «إقامة الدولة الإسلامية فى الوطن، ثم الخروج منه فاتحين لغيره من الأوطان»..

فالأهداف الكبرى لجماعات الجهاد، هى:

ا - إزالة دول الكفر المرتدة عن الإسلام..

ب - وإقامة الدول الإسلامية..

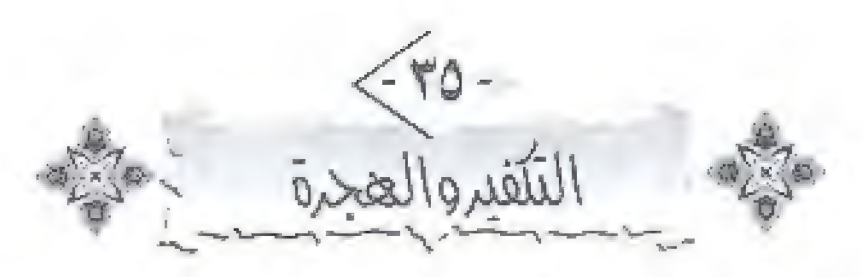
جـ - وإعادة الإسلام إلى المسلمين..

د - والانطلاق لإعادة الخلافة الإسلامية من جديد..

ولقد مثلت هذه التنظيمات، ولا تزال تمثل، أبرز «فصائل الغضب والاحتجاج والرفض» فى الحركات الإسلامية المعاصرة.. فهى رفض عنيف للواقع.. ورفض للطريق السلمى فى التغيير، الذى اختارته الحركات الإسلامية الكبرى سبيلا لاستكمال إسلامية الحياة في مجتمعات ودول ونظم المسلمين[1].



(١) مراجع:
[الفريضة الغائبة] - كتيب منسوب إلى المرحوم محمد عبد السلام فرج.
[الفريضة الغائبة - عرض وحوار وتقييم] للدكتور/ محمد عمارة - طبعة القاهرة سنة ١٩٩١ م.



هو الاسم الذى أطلقته أجهزة الإعلام، وشاع لدى الجمهور على جماعة إسلامية سرية - هى «جماعة المسلمين» - التى دعا إليها وتزعمها شكرى أحمد مصطفى [١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م] فى عقد السبعينيات من القرن العشرين .

وكان شكرى مصطفى - وهو مهندس زراعى - أحد المعتقلين الإسلاميين فى أحداث [١٣٨٥هـ - ١٩٦٥م] بمصر.. والتى انتهت بإعدام الشهيد سيد قطب [١٣٢٤ - ١٣٨٦هـ ١٩٠٦ - ١٩٦٦م]..

وفى المعتقل - وكان تعذيب المعتقلين قاعدة مستمرة - تخلّق فكر هذه الجماعة كحركة «رفض - جذرى» لواقع المجتمعات الإسلامية وثقافتها، وأيضا لمناهج الدعوات والحركات الإسلامية جميعها..

ومن كتابات شكرى مصطفى - وخاصة كتاب الخلافة .. وكتاب التوسمات - تبلورت مقولات هذه الجماعة فى :

١ - تكفير مرتكب المعصية ..

٢ - وتكفير من لم ينضم إلى هذه الجماعة - لأنها جماعة المسلمين.. وليست مجرد جماعة من المسلمين..

٣ - والحكم على المجتمعات الإسلامية وثقافاتها بالجاهلية . .

٤ - وسحب الكفر على التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية وعصورها منذ القرن الرابع الهجرى .

٥ - والدعوة للهجرة من محيط الكفر والجاهلية إلى بعض الأطراف ، تمهيدا للعودة فاتحين لهذه المجتمعات . .

وفى سنة ١٩٧٧ م ساومت الجماعة الحكومة المصرية فاختطفت أحد علماء الأزهر - الدكتور محمد حسين الذهبى - وطالبت بالإفراج عن ثلاثين من أعضائها المسجونين ، وإذاعة بيانات تحمل أفكارها ، و ٢٠٠ ألف جنيه مصرى . . ولما لم ترضخ الحكومة قتلوا الشيخ الذهبى فى شهر يوليو ، فقبضت الحكومة على قيادات الجماعة ، وحوكموا ، وأعدم زعيمها وأربعة من زملائه فى العاشر من ربيع الثانى سنة ١٣٩٨ هـ ٢٩ مارس سنة ١٩٧٨ م .

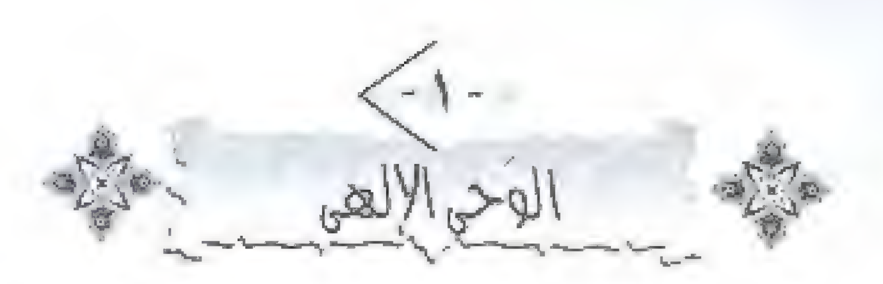
ولقد انحسر تنظيم هذه الجماعة بالسرعة التى انتشر بها ، وإن بقيت بعض مقولاتها فى تنظيمات سرية أخرى[١] .



---

(١) مراجع :
(ذكرياتى مع جماعة المسلمين - التكفير والهجرة) لعبد الرحمن أبو الخير - طبعة الكويت سنة ١٩٨٠ م .

مُصطلحات



أصل «الوحى» - فى اصطلاح اللغويين - : الإعلام فى خفاء.. ووسائل هذا الإعلام، الخفى والمستتر عن غير الموحَى إليه المقصود بالإعلام مباشرة، متعددة، فمنها : الإشارة، والكتابة، والرسالة، والإيماء، والإلهام، والكلام الخفى.. إلى آخر سبل توصيل الإعلام الخفى إلى الغير..

وكذلك يطلق لفظ «الوحى» على اسم المفعول منه، أى الموحَى، مكتوبا كان هذا الموحَى أو كتابا .

ولقد سمى وحى الله، سبحانه، إلى أنبيائه ورسله : وحيا، لأن الله قد أسره إلى هؤلاء الأنبياء والرسل، وخصهم به، وأخفاه عمن عداهم.. وهذا هو وجه تسمية جبريل، عليه السلام : «ناموس الله» - كما ورد فى الحديث النبوى - إذ أصل «الناموس» - كما يقول الشريف الرضى [٣٥٩ - ٤٠٦ هـ ٩٧٠ - ١٠١٥ م] فى كتابه [المجازات النبوية] : «المكان الذى يستجن - [يستتر] - فيه الصائد عن الوحش لئلا تراه فتنفر منه، ومن ذلك سمى من يجعله الإنسان موضع سره ناموسا.. فكأن النبى، ﷺ، إنما شبه جبريل بذلك لأنه يستخفى بما يؤديه عن الله سبحانه إلى الأنبياء..»(١)

وفى القرآن الكريم وفى الأدب العربى وردت الاستخدامات

لمصطلح «الوحى» فى المعانى والأغراض التى أشرنا إليها .. فهو يعنى فى قول الله سبحانه : ﴿ وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيًا أو من وراء حجاب ﴾ [الشورى : ٥١] يعنى : الإلهام والقذف فى القلب ، سواء أكان ذلك فى اليقظة أو فى المنام – [الرؤيا] – ..

وفى قوله تعالى : ﴿ ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضى إليك وحيه ﴾ [طه : ١١٤] يعنى : إلقاءه إلى الرسول ، ﷺ ، بواسطة الملك .

وفى الآية القرآنية : ﴿ قل إنما أنذركم بالوحي ولا يسمع الصم الدعاء إذا ما ينذرون ﴾ [الأنبياء : ٤٥] يعنى مصطلح الوحى : الموحَى به ، من إطلاق المصدر على المفعول .

أما فى الآية : ﴿ وقال الذين كفروا لرسلهم لنخرجنكم من أرضنا أو لتعودن في ملتنا فأوحى إليهم ربهم لنهلكن الظالمين ﴾ [إبراهيم : ١٣] فهو وحى للرسل .. على حين يعنى فى آية : ﴿ وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذي من الجبال بيوتا ﴾ [النحل : ٦٨] الإلهام للحيوان غير العاقل .. أما فى الآية : ﴿ فقضاهن سبع سموات في يومين وأوحى في كل سماء أمرها ﴾ [فصلت : ١٢] فإنه يعنى : التسخير أى أن الله ، سبحانه ، قد سخر كل سماء لما يراد منها .. وهو قد جاء بمعنى الإشارة والإيماء فى قول الله سبحانه : ﴿ فأوحى إليهم أن سبحوا بكرة وعشيا ﴾ [مريم : ١١] وكذلك حاله فى قول الشاعر :

يرمون بالخطب الطوال وتارة وحى الملاحظ خيفة الرقباء

أى : الإشارة بالملاحظ .

وقد يأتى «الوحى» بمعنى الإيحاء إلى الملائكة ، كما فى آية : ﴿ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ ﴾ [الأنفال : ١٢] كما قد يأتى بمعنى : الوسوسة بالشر ، كما فى قول الله ، سبحانه : ﴿ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ ﴾ [الأنعام : ١٢١]

تلك هى أبرز معانى مصطلح «الوحى» ، فى عرف اللغويين ، وفى المصادر الأولى للعربية .

* * *

أما فى اصطلاح الشريعة فإن «الوحى» يعنى : كلام الله المنزل على نبى من أنبيائه .. وذلك إذا ماثبت الإعلام الخفى - [الوحى] - بلسان الملك ، فوقع فى سمع النبى ، بعد علمه بالمبلغ بآية قاطعة .. والقرآن الكريم مثل على هذا النوع من «الوحى» .. كما يعنى ، فى الشريعة أيضا : خاطر الملك ، يتضح بإشارة منه للنبى ، من غير بيان بالكلام .. ويحكى عن هذا اللون من «الوحى» حديث الرسول ، ﷺ : «إن روح القدس نفث فى روعى أن نفسا لن تموت ...» - الحديث - .. ويعنى أيضا ، فى اصطلاح الشريعة : الإلهام ... وقد يكون الوحى فى اليقظة ، كما يكون رؤيا فى المنام . وجميعه حجة عند علماء الشريعة .

وقريب من معانى «الوحى» لدى علماء الشريعة ، من الفقهاء ، معانيه لدى علمائها من المتكلمين ، فهو يعنى عندهم : كشف الحقيقة كشفا مباشرا ، مجاوزا للحس ، ومقصورا على المختارين لهذا اللون من الإعلام .

أما الفلاسفة فإنهم يميلون إلى تجريد «عملية» «الوحى» من طابعها الحسى ، ويقولون إنه : عبارة عن اتصال النفس الإنسانية بالنفوس الفلكية ، اتصالا روحيا ، فترتسم لديها صور الحوادث ، وتطلع ، بهذا الاتصال ، على عالم الغيب . . وهم يرون أن فى الأنبياء استعدادا خاصا وفطرة خاصة تؤهلهم لهذا الاتصال ، وهذا الاستعداد وهذه الفطرة تبلغ عند الأنبياء مالا تبلغه عند غيرهم ، حتى من «الأولياء» و «العارفين» .

وهذا التصور الفلسفى للوحى شائع لدى فلاسفة الإسلام ، بل ولدى أصحاب النزعة العقلية من المتكلمين المسلمين . . بل إننا نجده لدى الأستاذ الإمام محمد عبده [١٢٦٦ - ١٣٢٣ هـ ١٨٤٩ - ١٩٠٥م] ومدرسة التجديد الدينى فى عصرنا الحديث . . فعندما عرض الأستاذ الإمام- فى [رسالة التوحيد] - لقضية الوحى حرص على أن يصرح فيها برأيه الخاص ، وعلى أن ينبه على اختلاف تصوره هذا عن التصورات الشائعة عند النصوصيين أو الفقهاء ، بل ومتكلمى الأشعرية . . فبعد أن عرض للمعانى اللغوية للمصطلح ، قال إن التعريف الشرعى للوحى هو : «إنه كلام الله تعالى ، المنزل على نبى من أنبيائه» . . ثم استطرد فحدد أن له رأيا متميزا فقال «أما نحن فنعرفه ، على شرطنا ، بأنه : عرفان

يجده الشخص من نفسه ، مع اليقين بأنه من الله ، بواسطة أو بغير واسطة ، والأول بصوت يتمثل لسمعه أو بغير صوت ! »

فهو علم وعرفان داخلى ، يبلغ صاحبه درجة اليقين بأن مصدره هو الله ، وقد يكون بواسطة ، صوت يسمع ودون صوت ، كما يكون بغير واسطة .

وفى حالة ما إذا كان هذا «العرفان» بواسطة ، صوتا كانت هذه الواسطة أو شبحا - كما هو ظاهر لفظ الأحاديث النبوية التى تقول إن الوحى كان يأتى للنبى ، أحيانا ، فى صورة رجل يشبه دحية الكلبى- فى هذه الحالة يجيز الأستاذ الإمام حدوث «العرفان» بهذه الواسطة - الصوت أو الشبح ، أو هما معا - ولكنه يجرد هذه الواسطة من الطابع الحسى والمادى ، ويراها مجرد «تمثل» . . فالحقائق المعقولة يجوز أن «تتمثل» صوتا أو شبحا لمن عنده الاستعداد الفطرى لهذا اللون من «العرفان» . . فإذا علمنا أن «التمثل» [Representation] هو : مثول الصور الذهنية ، بأشكالها المختلفة ، فى عالم الوعى ، أو حلول بعضها محل بعضها الآخر . .» استطعنا أن نفقه تصور الأستاذ الإمام لماهية وسائط «العرفان»- [الوحى] صوتا كانت هذه الوسائط أو صورة .

لكن الأستاذ الإمام ينبه على أن هذا «العرفان» ليس هو الإلهام ، لأن الإلهام ، على الرغم من أنه وجدان تستيقنه النفس وتنساق إلى مايطلب ، إلا أن النفس لاتستيقن أن مصدره هو الله ، بينما يتميز «العرفان» - [الوحى] - باستيقان النفس أن مصدره هو الله سبحانه .

وواضح ، من سياق حديث الأستاذ الإمام ، وحججه التي ساقها في هذا المقام ، أنه كان يجادل «الماديين» الذين ينكرون «الوحي» كجزء من إنكارهم كل مالايدرك بالحواس ، ولذلك نراه يمضى فى عرض إمكانية حدوث هذا «العرفان» للمستعدين لتلقيه فيقول : «وأما إمكان حدوث هذا النوع من العرفان (الوحى) ، وانكشاف ما غاب من مصالح البشر عن عامتهم لمن يختصه الله بذلك ، وسهولة فهمه عند العقل ، فلا أراه مما يصعب إدراكه إلا على من لايريد أن يدرك ، ويحب أن يرغم نفسه على أن لاتفهم! . . . فمن النفوس البشرية مايكون لها من نقاء الجوهر ، بأصل الفطرة ، ماتستعد به ، من محض الفيض الإلهى ، لأن تتصل بالأفق الأعلى ، وتنتهى من الإنسانية إلى الذروة العليا ، وتشهد من أمر الله شهود العين ما لم يصل غيرها إلى تعقله أو تحسسه بعصا الدليل والبرهان ، وتتلقى عن العليم الحكيم مايعلو وضوحا على ما يتلقاه أحدنا عن أساتذة التعاليم ، ثم تُصدر عن ذلك العلم إلى تعليم ما علمت ودعوة الناس إلى ماحُملت على إبلاغه إليهم ، وأن يكون ذلك سنة الله فى كل أمة وفى كل زمان ، على حسب الحاجة . . . أما وجود بعض الأرواح العالية ، وظهورها لأهل تلك المرتبة السامية فمما لا استحالة فيه بعد ما عرفنا من أنفسنا وأرشدنا إليه العلم ، قديمه وحديثه ، اشتمال الوجود على ماهو ألطف من المادة ، وإن غيب عنا ، فأى مانع من أن يكون بعض هذا الوجود اللطيف مشرقا لشىء من العلم الإلهى ، وأن يكون لنفوس الأنبياء إشراف عليه ، فإذا جاء به الخبر الصادق حملنا على الإذعان بصحته . أما تمثل الصوت ، وأشباح لتلك الأرواح فى

حس من اختصه الله بتلك المنزلة فقد عُهد عن أعداء الأنبياء مالا يبعد عنه فى بعض المصابين بأمراض خاصة على زعمهم ، فقد سلموا أن بعض معقولاتهم يتمثل فى خيالهم ويصل إلى درجة المحسوس ، فيصدق المريض فى قوله أنه يرى ويسمع ، بل يجالد ويصارع ، ولاشىء من ذلك فى الحقيقة بواقع ، فإن جاز التمثل فى الصور المعقولة ، ولا منشأ لها إلا فى النفس ، وأن ذلك يكون عند عروض عارض على المخ ، فلم لايجوز تمثل الحقائق المعقولة فى النفوس العالية؟ وأن يكون ذلك لها عندما تنزع عن عالم الحس وتتصل بحظائر القدس؟ وتكون تلك الحال من لواحق صحة العقل فى أهل تلك الدرجة ، لاختصاص مزاجهم بما لا يوجد فى مزاج غيرهم؟ . وغاية مايلزم عنه أن يكون لعلاقة أرواحهم بأبدانهم شأن غير معروف فى تلك العلاقة من سواهم ، وهو مايسهل قبوله ، بل يتحتم ، لأن شأنهم فى الناس أيضا غير الشئون المألوفة ، وهذه المغايرة من أهم ما امتازوا به وقام منها الدليل على رسالتهم ، والدليل على سلامة شهودهم ، وصحة ما يحدثون عنه .»[٢] .

فالوحى : عرفان ، يجده أصحاب النفوس المفطورة على النقاء ، ويوقنون بأن الله هو مصدره ، أما وسائطه – إن كانت – من الصوت أو الصورة ، فهى من باب تمثل المعقولات حتى تبلغ درجة المحسوس . . وطرفا العلاقة فى هذه العملية هما : «نفوس» الأنبياء ، والمعقولات المتمثلة ، التى هى واسطة النفوس إلى العرفان! .

ونحن نلاحظ أن الأستاذ الإمام يرى أن «نفوس» الأنبياء قد

امتلكت النقاء الذى أهلها لهذا العرفان «بأصل الفطرة» . . . وهذا هو الذى نجده عند جمال الدين الأفغانى [١٢٥٤ - ١٣١٤هـ ١٨٣٨ - ١٨٩٧م] عندما عرض لتعريف «النبى» فى التعليقات التى أملاها على شرح جلال الدين الدوانى [٨٣١ - ٩١٨ هـ ١٤٢٧ - ١٥١٢م] للعقائد العضدية ، فبعد أن يعرض التعريف الشائع للنبى ، من أنه «إنسان بعثه الله لتبليغ ما أوحى إليه ، إلى من أمر بتبليغهم» . . . يقول : «وقد يعرف النبى بأنه : إنسان فطر على الحق علما وعملا ، أى بحيث لايعلم إلا حقا ، ولا يعمل إلا حقا ، على مقتضى الحكمة ، وذلك يكون بالفطرة ، أى لايحتاج فيه إلى الفكر والنظر ، ولكن التعليم الإلهى ، فإن فطر أيضا على دعوة بنى نوعه إلى ما جبل عليه ، فهو رسول أيضا . . . فتفكر فيه ، فإنه دقيق؟ ! . .»[٣] . . . فهو «مفطور» و «مجبول» على الحق ، علما وعملا ، وهو - كرسول - مفطور ومجبول على التبليغ . . . ويؤكد وحدة فكر الأفغانى ومحمد عبده فى هذه القضية تعليق محمد عبده على كلام الأفغانى هذا ، عندما يقول إن معنى جملة : «بعثه الله» : «أى جعل فيه الباعث والداعى للتبليغ!»[٤] .

هذا هو تصور «الوحى» عند مفكرى الإسلام .

* * *

فإذا انتقلنا إلى «الوحى» ، كحدث بدأت به نبوة محمد ﷺ وبعثته ، وإلى «صورة» واسطة «الوحى» ، والمراحل التى مرت بها هذه «الصورة» ، وإلى نصيب ذلك التصور للوحى من الاتساق مع تصور فلاسفة الإسلام وذوى النزعة العقلية من متكلميه . . إذا

انتقلنا إلى ذلك كان علينا أن ننظر فى المصدر الوحيد لهذا التصور، ألا وهو السنة النبوية، التى تناثرت فى كتبها أحاديث آحاد كثيرة تحدثت عن بدء الوحى للنبى، ﷺ، ومراحله. والصور التى تمثل بها للنبى عندما كان يحدث هذا الاتصال..

فمن السنة النبوية نعلم أن محمدا، ﷺ، قد جاءه الوحى وهو فى سن الأربعين، وكان قد رفض وثنية الجاهلية، وأخذ يتأمل باحثا عن الحق، متخذا من بقايا توحيد إبراهيم وشريعته سبيلا للتحنث والتعبد، وخاصة فى خلوته التى كان ينقطع إليها فى شهر رمضان بغار حراء... وأول صورة جاءه بها «الوحى» كانت «الرؤيا الصادقة»، فى شهر ربيع الأول، وأخذت تتكرر لستة أشهر... ثم كانت الحادثة الشهيرة، يوم سمع الصوت بغار حراء، فى شهر رمضان، يقول له: [اقرأ]... ثم فقد الوحى ثلاث سنوات، سمع بعدها الصوت يناديه [يا أيها المزمل]، وهو فى سن الثالثة والأربعين.. والسنة تضع يدنا على حقيقة أن صورة الوحى فى هذه المرحلة كانت «الضوء والنور والصوت».. أما مرحلة «تمثل» الملك جبريل للنبى فى صورة رجل فقد جاءت بعد ذلك.. فعن ابن عباس أنه قال: «أقام النبى بمكة خمس عشرة سنة، سبع سنين يرى الضوء والنور ويسمع الصوت، وثمانى سنين يوحى إليه، وأقام بالمدينة عشرا»[5].. ونحن نلاحظ أن عبارة ابن عباس لا تعتبر مرحلة السنوات السبع - طور الضوء والنور والصوت - وحيا، بل تجعل «الوحى»: بمعنى القرآن، وتتابع نزوله منجما، مما حدث بعد هذه السنوات السبع.

ويزكى هذا الفهم أن الرسول - كما هو مشهور - قد ذهبت به زوجه خديجة ، عقب سماعه الصوت : [اقرأ] ، في غار حراء ، برمضان ، عندما بلغ الأربعين ، ذهبت به إلى ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى - وكان شيخا قد تنصر ، يقرأ الإنجيل بالعربية - كما يقول حديث عائشة ، عليها السلام ، فلما سمع ورقة من النبي وصف ما حدث ، أنبأه أن «هذا هو الناموس الذى نزل على موسى»[٦] . . وموسى كان يرى نارا ونورا . . ويؤكد ذلك أن رواية أخرى لذات الحديث الذى يحكى ذات الواقعة تقول إن النبى قد قال لخديجة : «إنى أرى ضوءا وأسمع صوتا ، وإنى أخشى أن يكون بى جنن . قالت : لم يكن الله ليفعل ذلك بك يابن عبدالله . ثم أتت ورقة بن نوفل فذكرت ذلك له ، فقال : إن يك صادقا فإن هذا ناموس مثل ناموس موسى ، فإن بعث وأنا حى فسأعززه وأنصره وأومن به»[٧] . . فالحديث يحدد أن التمثل كان : «ضوءا وصوتا» ، وورقة لم يعتبر ذلك بعثة فيؤمن بالمبعوث ، بل عدها مقدمات ، وقال : «إن بعث وأنا حى فسأعززه وأنصره وأومن به» . . ولقد مات ورقة بعد عام من تلك الحادثة ، أى نحو سنة ١٢ ق . هـ سنة ٦١١ م دون أن يؤمن بشريعة محمد ، لأن البعثة والتبليغ لم يكن قد حان حينه حتى ذلك التاريخ ! . . بل إن النبى ذاته لم يكن يقول ، يومئذ ، إنه مبعوث ، بل كان يبحث عن تفسير ، يطمئنه ، لهذه الظاهرة غير العادية وغير المفهومة له ! .

هذا عن مراحل «الوحى» ، وصورته فى المراحل الأولى . .

ومن الأحاديث ما يحدد أو يقرب لنا معنى «الصوت» الذى كان

يتمثل به الملك . فعن عائشة «أن الحارث بن هشام سأل رسول الله ، ﷺ : كيف يأتيك الوحى؟ قال : يأتينى مثل صلصلة الجرس - وهو أشده على - ثم يفصم عنى وقد وعيت . وأحيانا يأتينى ملك ، فى صورة الرجل ، فأعى ما يقول . .»[٨] .

وفى الأحاديث النبوية ما يصف حالة النبى الجسدية ساعة اتصال نفسه بالوحى وتلقيه عن الله سبحانه ، وهذا الوصف يوحى بحدوث تغيرات واضحة تجعل النبى فى حال مخالف للحالة البشرية المعتادة ، إن فى النفس أو فى الجسد . فعائشة تستكمل روايتها للحديث السابق فتضيف : «ولقد رأيته ينزل عليه الوحى فى اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وإن جبينه ليتفصد عرقا !» . . . وفى أحاديث أخر ما يدل على أن التغيرات كانت تصيب وظائف الجسم فتغير من سماته وطبائعه . . فوجهه يحمرّ . . . وهو يغط . . . وجلده يربد . . . ويأخذه شبه السبات . . . بل ويثقل وزن جسمه ثقلا يفوق الحدود! . . . فالصحابى يعلى بن مرة يطلب من عمر بن الخطاب أن يريه النبى حين يوحى إليه ، فلما جاءه الوحى - وكان «بالجعرانة» ومعه نفر من أصحابه - أشار عمر إلى يعلى «فجاء يعلى وعلى رسول الله ثوب قد أُظل به ، فأدخل رأسه ، فإذا رسول الله محمر الوجه ، وهو يغط . ثم سرى عنه . . .»[٩] . . وابن عباس يقول : «وكان إذا نزل عليه الوحى عرفوا ذلك فى تربد جلده! . .»[١٠] . . وعائشة تقول : «وكان إذا أوحى إليه يأخذه شبه سبات . . .»[١١] . . وزيد بن ثابت يقول : «إنى قاعد إلى جنب النبى يوما إذ أوحى إليه . . وغشيته السكينة ، ووقع فخذه على

فخذى حين غشيته السكينة . فلا والله ما وجدت شيئا قط أثقل من فخذ رسول الله ، ثم سرى عنه فقال : اكتب يا زيد . فأخذت كتفا ، فقال اكتب [لا يستوى القاعدون من المؤمنين والمجاهدون . .][12] . . »

وأبو أروى الدوسى يقول : «رأيت الوحى ينزل على النبى ، وإنه على راحلته ، فترغو وتفتل يديها حتى أظن أن ذراعها ينقصم ، فربما بركت ، وربما قامت موتدة يديها حتى يسرى عنه . .!» .

وفى الأحاديث - كما مر - ما ينبئ عن رغبة بعض الصحابة فى رؤية حال الرسول ساعة يوحى إليه ، لكن تلك الحال ، غير العادية ، وما يحدث لجسده وهيئته فيها من تغيرات ومعاناة ، كانت تدعو جمهرة الصحابة إلى صرف أبصارهم عن الرسول عندما يحدث له هذا «العرفان» . . ففى حديث أبى هريرة : « . . . وجاء الوحى ، وكان إذا جاء لم يخف علينا ، فليس أحد من الناس يرفع طرفه إلى رسول الله حتى يقضى[14]! . . » .

ونحن عندما نطالع ، فى الأحاديث النبوية ، تلك الأوصاف التى تصف الرسول ساعة تلقيه الوحى واتصاله بالملك ، نتذكر عبارة الإمام محمد عبده التى يقول فيها : «وغاية ما يلزم عنه - [أى عن هذا الاتصال]- أن يكون لعلاقة أرواحهم بأبدانهم شأن غير معروف فى تلك العلاقة من سواهم . . » فهى حال غير معتادة ، تحدث فى لحظات غير عادية ، لأناس أهلتهم الفطرة ليكونوا غير عاديين ! .

لكن . . . هل حقا أن بعض الصحابة قد رأى الملك جبريل ، وهو

فى صورة دحية الكلبى ، أثناء لقائه بالرسول ، عليه الصلاة والسلام؟ . . إن فى البخارى ، عن أبى عثمان ، ما يدل على أن أم سلمة ، زوج النبى ، قد رأته ، وأنها قد حسبته دحية الكلبى ، حتى أنبأها النبى أنه جبريل . . وفى مسند أحمد بن حنبل ما يدل على أن عبدالله بن عباس قد رآه والرسول يناجيه . . . لكننا لو عرضنا ذلك على معنى «الوحى» ، الذى هو إعلام فى خفاء عمن عدا النبى ، وعلى معنى «الناموس» الذى سمى به جبريل لاستتاره عن غير النبى ، مللنا عن التسليم بأن أحدا غير الرسول قد رأى الوحى والناموس . . ويدفع عنا الحرج فى هذا الميل أن هذين الحديثين ، ككل أحاديث «الوحى» ، هى أحاديث آحاد ، إن كانت حجة فى «العمليات» فهى ليست بالحجة فى «الاعتقادات» ![1].

❊ ❊ ❊

(١) الهوامش:

(١) [المجازات النبوية] ص ١٤٥ ، ١٤٦ طبعة القاهرة سنة ١٣٢٨ هـ

(٢) [الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده] جـ ٣ ص ٤١٤ - ٤١٦ دراسة وتحقيق : د . محمد عمارة طبعة بيروت سنة ١٩٧٢ م

(٣) [الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغانى] جـ ١ ص ٢١٣ ، ٢١٤ دراسة وتحقيق . د . محمد عمارة . طبعة بيروت سنة ١٩٧٩م .

(٤) المصدر السابق جـ ١ ص ٤٥١ .

(٥) رواه الإمام أحمد .

(٦) رواه البخارى ومسلم والإمام أحمد

(٧) رواه الإمام أحمد

(٨) رواه البخارى ومسلم والترمذى والنسائى ومالك فى الموطأ والإمام أحمد .

(٩) رواه البخارى .

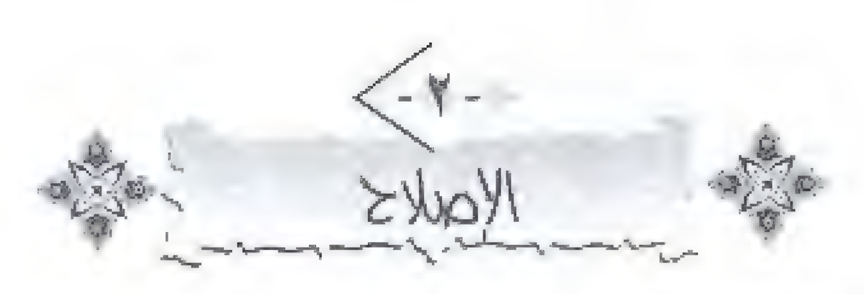
(١٠) رواه الإمام أحمد .

(١١) رواه الإمام أحمد .

(١٢) رواه الإمام أحمد

(١٣) [الطبقات الكبرى] - لابن سعد - جـ ١ ق ١ ص ١٣١ . طبعة دار التحرير . القاهرة .

(١٤) رواه الإمام أحمد .



- ٢ -
الإصلاح

«الإصلاح» : ضد الإفساد . . وهو من الصلاح ، المقابل للفساد ، وللسيئة . . وفي القرآن الكريم : ﴿ خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا ﴾ [التوبة : ١٠٢] ﴿ ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها ﴾ [الأعراف : ٥٦]

والإصلاح : هو التغيير إلى الأفضل . . فالحركات الإصلاحية هي الدعوات التي تحرّك قطاعات من البشر ، بدعوات صالحة ، لإصلاح ما فسد ، في الميادين الاجتماعية المختلفة ، انتقالا بالحياة إلى درجة أرقى في سلم التطور الإنساني . .

وعلى حين يقلل الفكر الاجتماعي الغربي الحديث من قيمة وجذرية وشمولية «الإصلاح» وحركاته ، عندما يميز بين الإصلاح وبين «الثورة» في مستوى التغيير ، عمقا وشمولا ، فيرى الثورة : تغييرا جذريا وشاملا ، بينما يرى الإصلاح : تغييرا جزئيا وسطحيا . . فإن المضمون الإسلامي والعربي لمصطلح «الإصلاح» لا يفرق بينه وبين مصطلح «الثورة» ، من حيث عمق التغيير وشموله ، وإنما من حيث الأسلوب في التغيير ، وزمن التغيير . . فكلاهما - إسلامي - يعني التغيير الشامل والعميق ، لكن الثورة تسلك سبل العنف - غالبا - والفجائية والسرعة في التغيير ، بينما تتم التغييرات الإصلاحية بالتدريج . . وكثيرا ما تعطي الثورة

الأولية لتغيير الواقع ، بينما تبدأ مناهج الإصلاح - عادة - بتغيير الإنسان ، وإعادة صياغة نفسه وفق الدعوة الإصلاحية ، وبعد ذلك ينهض هذا الإنسان بتغيير الواقع وإقامة النموذج الإصلاحي الجديد . .

ولذلك ، وصفت رسالات الرسل - عليهم الصلاة والسلام - بأنها دعوات إصلاح ، وهي التي تغيّت تحقيق التغيير الجذري والشامل ، إلى الأفضل ، على النحو الذي يحل الصلاح محل الفساد ، ويقيم الإصلاح مقام الإفساد في أمم الدعوات والرسالات ومجتمعاتها . . فرسول الله شعيب - عليه السلام- ينادي قومه ﴿ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ ﴾ [هود : ٨٨] والله -سبحانه وتعالى - الذي ﴿ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ ﴾ [البقرة : ٢٢٠] يهيب بنا : ﴿ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ﴾ [الأعراف : ٥٦] .

* * *

وإن الناظر في تاريخ المجتمعات الإنسانية ليراه سلسلة من التدافع بين دعوات الإصلاح وحركاته وبين الفساد والإفساد في تلك المجتمعات . . وعلى سبيل المثال :

● فالحركة الإصلاحية التي بدأها وقادها مارتن لوثر [١٤٨٣ - ١٥٤٦م] - بألمانيا - قد أحدثت تغيرات جذرية وعميقة وشاملة في اللاهوت والتدين النصراني ، أدت إلى ، وساعدت على تغييرات جذرية وشاملة في المجتمعات النصرانية- التي انتشرت

فيها - بوجه عام . . فلقد أنكرت البروتستانتية وساطة رجال الدين بين الله وبين الإنسان . . وأقامت الحقيقة الدينية على الإنجيل وحده ، لا على «التقاليد» المتمثلة فى مراسم المجالس المسكونية والأحكام البابوية . . وجعلت للإنسان حقا فى تفسير الإنجيل ، بعد أن كان ذلك وقفا على طبقة «الأكليروس» - الكهنة- . . وأنكرت عبادة «الأيقونات» والمخلفات الأثرية للقديسين . . وقللت عدد «الأسرار المقدسة» إلى اثنين فقط ، هما «المعمودية» و «القربان المقدس» . . فكادت البروتستانتية - كدعوة إصلاحية- أن تكون دينا موازيا للكاثوليكية وللأرثوذكسية . .

أما فى الواقع الاجتماعى ، فلقد ساعدت البروتستانتية على انتقال مجتمعاتها من الإقطاع إلى الرأسمالية والليبرالية - بتحريرها الفرد ، وتنميتها للنزعة الفردية - كما انتقلت بهذه المجتمعات من الرابطة الدينية إلى الرابطة القومية . . ففتحت الباب لعصر أوربى جديد . .

● أما فى الشرق ، فإن الحركة الإصلاحية التى قادها جمال الدين الأفغانى [١٢٥٤ - ١٣١٤ هـ ١٨٣٨ - ١٨٩٧ م] - منذ النصف الثانى للقرن التاسع عشر - بدءا من مصر ، وشمولا لكل العالم الإسلامى - قد مثلت إحياء وتجديدا للفكر الإسلامى ، بالعودة إلى منابعه الجوهرية - القرآن الكريم والسنة الصحيحة - واستلهام مناهج السلف- وخاصة فى عصور الازدهار والإبداع الحضارى - فجددت هذه الحركة فى مناهج التعامل مع القرآن والسنة . . وعلاقة العقل بالنقل . . والدين بالدولة . . والحكام

بالمحكومين . . والإنسان بالأموال والثروات . . وحضارة الإسلام بالحضارات الأخرى . . الخ . . الخ . .

وكانت التحديات التى واجهت هذه الدعوة الإصلاحية كثيرة ، لكن أبرزها كان «تحدى التخلف الموروث» ، - ولقد واجهته بالإحياء والتجديد- الإحياء لثوابت الإسلام . . والتجديد فى متغيرات الواقع - . . و «تحدى الغزوة الاستعمارية الغربية الحديثة»- ولقد واجهته هذه الدعوة الإصلاحية بحركات التحرر الوطنى - وبصياغة الإسلام بديلا حضاريا عصريا ، ليحل محل النموذج الحضارى الغربى الوافد إلى بلادنا فى ركاب الاستعمار . .

ولقد عبر الإمام محمد عبده [١٢٦٥ - ١٣٢٣ هـ ١٨٤٩ - ١٩٠٥م] عن أهداف هذه الحركة فقال : إنها ثلاثة : «الأول : تحرير الفكر من قيد التقليد ، وفهم الدين على طريقة سلف الأمة ، قبل ظهور الخلاف ، والرجوع فى كسب معارفه إلى ينابيعها الأولى ، واعتباره من ضمن موازين العقل البشرى التى وضعها الله . . لتتم حكمة الله فى حفظ نظام العالم الإنسانى . . فهو صديق للعلم ، باعث على البحث فى أسرار الكون ، داع إلى احترام الحقائق الثابتة ، مطالب بالتعويل عليها فى أدب النفس وإصلاح العمل .

والثانى : هو إصلاح أساليب اللغة العربية فى التحرير . .

والثالث : هو التمييز بين ما للحكومة من حق الطاعة على الشعب وما للشعب من حق العدالة على الحكومة» - [الأعمال الكاملة] جـ ٢ ص ٣١٠ ، ٣١١ .

وهكذا مثلت هذه الحركة الإصلاحية منهاجا وسطا ، بين أهل الجمود والتقليد وبين المتغربين المنبهرين بالنموذج الحضارى الغربى . . وكانت دعوتها الإصلاحية شاملة لميادين الفكر الدينى . . واللغة العربية وعلومها وآدابها . . وعلاقات الحاكمين بالمحكومين . . .

ولقد تحولت فكرية هذه الدعوة الإصلاحية إلى روح سارية فى الكثير من الدعوات والحركات ، والمشاريع الفكرية للعديد من العلماء والمفكرين على امتداد العقود التى تلت ، وعلى امتداد أقاليم عالم الإسلام[1] .

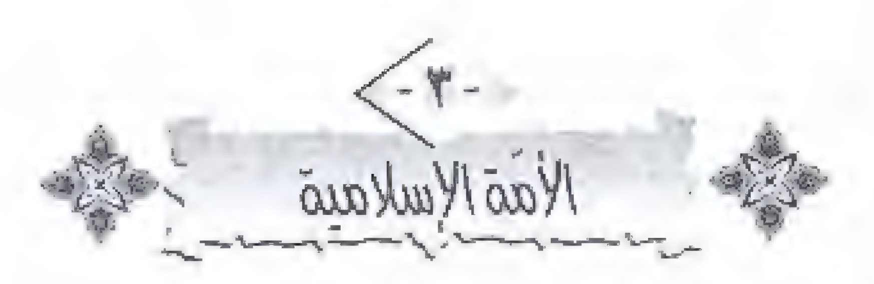


(1) مراجع :

(1) [الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغانى] دراسة وتحقيق : د . محمد عمارة طبعة بيروت - سنة ١٩٧٩ م .

(٢) [الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده] دراسة وتحقيق : د . محمد عمارة طبعة القاهرة - سنة ١٩٩٣ م .

(٣) [مارتن لوثر] تأليف القس حنا جرجس الخضرى . طبعة القاهرة سنة ١٩٨٣م .



- ٣ -

الأمة الإسلامية

المسلمون ، تتنوع شعوبهم وأجناسهم وألسنتهم وقومياتهم . . لكن هذا التنوع لايعدو أن يكون تمايزا فى إطار «أمة واحدة» ، وحدها الإسلام في العقيدة والشريعة والحضارة ومعايير الأخلاق والسلوك . . ووحدة الأمة - أي الجماعة - الإسلامية حقيقة قرآنية تعبر عن إرادة إلهية ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾ (١) ﴿وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ﴾(٢) .

وهذه الوحدة ، التى صنعها الإسلام ، وصبغها بصبغته ، قد أهّلت الأمة الواحدة لأن تعيش فى وطن واحد . . سماه علماء الإسلام ومؤرخوه «دار الإسلام» . . وهذا الوطن الإسلامى عاش حينا من الدهر تحت سلطة «دولة» واحدة . . وحينا آخر تعددت فيه «الدول» . . لكن كل تاريخ الإسلام والمسلمين ، إلى ماقبل التجزئة التى فرضتها الغزوة الاستعمارية الغربية الحديثة على المسلمين ، قد احتفظ - حتى مع تعدد «الدول» - بوحدة الأمة فى العَقيدة والشريعة والحضارة ومعايير الأخلاق والسلوك . . بل واحتفظ كذلك بوحدة «الدار- الوطن» . . فكان المسلم - بل والمواطن من أهل الكتاب - ينتقل بحرية تامة عبر الأقاليم

---

(١) الأنبياء : ٩٢ . (٢) المؤمنون : ٥٢ .

والإمارات والولايات . . ويقيم أنى شاء وحيث أراد ، فيعامل - دون إجراءات جديدة - معاملة المواطنين فى المكان الذى يستقر فيه ، له كل حقوقهم وعليه ما عليهم من واجبات . . فجمعت «دار الاسلام» بين «الوحدة» فى حقوق المواطنة وواجباتها ، وبين «تنوع وتعدد» «الدول» و «الحكومات» . .

ولذلك ، استقر الرأى فى الفكر السياسى الإسلامى - منذ بداية تاريخه وحتى عصرنا الحديث - على أن الإسلام جنسية ووطن ودار واحدة لأمة واحدة ، لا تمزقها «الجنسيات» - بالمعنى الغربى - و «الامتيازات» الخاصة بالجنسيات المختلفة . .

وعندما ورد إلى الأستاذ الإمام محمد عبده [١٢٦٦ - ١٣٢٣ هـ ١٨٤٩ - ١٩٠٥م] - وهو مفتى الديار المصرية - سؤال : «فى المسلم إذا دخل بمملكة إسلامية ، هل يُعَدّ من رعيتها؟ له مالهم وعليه ما عليهم ، على الوجه المطلق؟ وهل يكون تحت شرعها فيما له وعليه ، عموما وخصوصا؟ وما هى الجنسية عندنا ؟ وهل حقوق الامتيازات ، المعبر عنها عند غير المسلمين «بالكبيتولاسيون » - [Capitulations] موجودة بين ممالك الإسلام مع بعضهم بعضا؟؟» . . جاء فى فتوى الأستاذ الإمام على هذا السؤال :

« . . إن وطن المسلم من البلاد الإسلامية هو المحل الذى ينوى الإقامة فيه ، ويتخذ فيه طريقة كسبه لعيشه ، ويقر فيه مع أهله ؛ إن كان له أهل ؛ ولا ينظر إلى مولده ، ولا إلى البلد الذى نشأ فيه ؛ ولا يلتفت إلى عادات أهل بلده الأول ، ولا إلى ما يتعارفون عليه

من الأحكام والمعاملات ، وإنما بلده ووطنه الذى يجرى عليه عرفه وينفذ فيه حكمه هو البلد الذى انتقل إليه واستقر فيه ، فهو رعية الحاكم الذى يقيم تحت ولايته ، دون سواه من سائر الحكام ، وله من حقوق رعية ذلك الحاكم مالهم وعليه ما عليهم : لايميزه عنهم شيء ، لا خاص ولا عام .

أما الجنسية فليست معروفة عند المسلمين ، ولا لها أحكام تجرى عليهم ، لا فى خاصتهم ولا عامتهم ، وإنما الجنسية عند الأمم الأوربية تشبه ما كان يسمى عند العرب عصبية ، وهو ارتباط أهل قبيلة واحدة أو عدة قبائل بنسب أو حلف يكون من حق ذلك الارتباط أن ينصر كل منتسب إليه من يشاركه فيه ، وقد كان لأهل العصبية ذات القوة والشوكة حقوق يمتازون بها على من سواهم .

جاء الإسلام فألغى تلك العصبية ، ومحا آثارها ، وسوى بين الناس فى الحقوق ، فلم يبق للنسب ولا لما يتصل به أثر فى الحقوق ولا فى الأحكام . فالجنسية لا أثر لها عند المسلمين قاطبة ، فقد قال ﷺ : «إن الله أذهب عنكم عُبِّيَة الجاهلية - (أى عظمتها) - وفخرها بالآباء ، وإنما هو مؤمن تقى وفاجر شقى ، الناس كلهم بنو آدم ، وآدم خلق من تراب»[1] ، وروى كذلك عنه : «ليس منا من دعا إلى عصبية »[2] .

---

(١) رواه أبو داود .

(٢) وفى البخارى ومسلم والترمذى والنسائى وابن ماجة والإمام أحمد : «ليس منا من دعى بدعوى الجاهلية» .

وبالجملة ، فالاختلاف فى الأصناف البشرية ، كالعربى والهندى والرومى والشامى والمصرى والتونسى والمراكشى ، مما لا دخل له فى اختلاف الأحكام والمعاملات بوجه من الوجوه . ومن كان مصريا وسكن فى بلاد المغرب وأقام بها جرت عليه أحكام بلاد المغرب ، ولا ينظر إلى أصله المصرى بوجه من الوجوه .

وأما حقوق الامتيازات ، المعبر عنها «بالكابيتو لاسيون» ، فلا يوجد شىء منها بين الحكومات الإسلامية قاطبة . . . هذا ماتقضى به الشريعة الإسلامية ، على اختلاف مذاهبها ، لاجنسية فى الإسلام ، ولا امتياز فى الحقوق بين مسلم ومسلم ، والبلد الذى يقيم فيه المسلم من بلاد المسلمين هو بلده ، ولأحكامه عليه السلطان دون أحكام غيره . والله أعلم . . »[٢] .

هكذا استقر الفكر السياسى الإسلامى على أن وحدة الأمة فى الدين والحضارة قد أثمرت واستلزمت وحدة دار الإسلام ، حتى مع تعدد الإمارات والولايات والحكومات . . بل إننا نستطيع أن نقول إن الخلافة الإسلامية ، حتى عندما كانت واحدة ، قد تميزت فى دار الإسلام ، تحت حكمها ، الولايات والأقاليم ! . .

وعندما فرض الاستعمار الغربى - وخاصة بعد سقوط الخلافة العثمانية سنة ١٩٢٤م - التجزئة الكاملة على عالم الإسلام ، ذهب الفكر الإسلامى يبحث عن شكل جديد يحقق «وحدة» دار

---

(١) تاريخ هذه الفتوى ٩ رمضان سنة ١٣٢٢ هـ - ١٧ نوفمبر سنة ١٩٠٤ م - انظرها فى [الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده] جـ٦ ص ٢٥٣ - ٢٥٥ . دراسة وتحقيق د . محمد عمارة . طبعة بيروت سنة ١٩٧٤ م .

الإسلام ، ويحافظ على وحدة الأمة ، دون تجاهل لواقع التجزئة ، وتعدد الدول والحكومات ، أو قفز على «الواقع» الذى كرسه الاستعمار . . وكان من أبرز الاجتهادات الإسلامية ، فى هذا الميدان : كتاب الفقيه الأستاذ الدكتور عبد الرزاق السنهورى باشا [١٣١٣ - ١٣٩١ هـ ١٨٩٥ - ١٩٧١م] : «فقه الخلافة وتطورها»[١] . . والذى قدم فيه صورة الخلافة الإسلامية المنشودة فى شكل «عصبة أمم إسلامية» تتعدد فيها الحكومات ، مع إعادة الوحدة إلى دار الإسلام . .

هذا عن الموقف الإسلامى من العلاقة الإسلامية بين حكومات وأقطار عالم السلام . . وهو موقف له منطلق عقدى ، مؤسس على وحدة الأمة ، التى تستدعى - للمحافظة على مقوماتها - وحدة الدار . . وهو - فى ذات الوقت - يلبى احتياجات وضرورات التضامن التى تفرضها صراعات القوى والمصالح على الساحة العالمية . .

* * *

إن خريطة عالمنا المعاصر تتحرك نحو إقامة التكتلات والوحدات ، سواء بروابط إقليمية ، أو حضارية ، أو أيديولوجية . . فالوحدة الأوربية ، وإن استهدفت المصالح المادية ، إلا أن الأيديولوجية الليبرالية ، والتراث النصرانى ، والبعد الحضارى الغربى هى منطلقات ومكونات فى صنع هذه الوحدة . . بل إن هذه العوامل

---

(١) وهذا الكتاب - فى الأصل - رسالة دكتوراه - بالفرنسية - من باريس سنة ١٩٢٦م . انظر ترجمته العربية . طبعة القاهرة سنة ١٩٨٩ م .

هى التى تجعلها تفتح أبوابها لشعوب أوربا الشرقية ، التى تشترك معها فى هذه المنطلقات ، بعد أن انهار التكتل الأيديولوجى الماركسى الذى كان يجمعها - منظمة الكوميكون - وحلف وارسو - . . وكذلك الحال مع المنظمات الإقليمية . . عربية . . وإفريقية . . وآسيوية . . وفى أمريكا اللاتينية . . الخ . . الخ . .

وعندما حدث حريق المسجد الأقصى فى ٢٨ أغسطس سنة ١٩٦٩ م اهتز الضمير الإسلامى . . فانعقد أول مؤتمر قمة للبلاد الإسلامية فى سبتمبر من نفس العام . . وتأسست فى العام التالى «منظمة المؤتمر الإسلامى» . . وهى التى تمثل - وخاصة إذا دبت فيها روح الحياة الحقة - عصبة الشعوب الإسلامية . . وإذا حدث وعادت أغلب حكوماتها عن خلط الإسلام بالعلمانية فى تشريعاتها ، والتزمت بالإسلام عقيدة وشريعة وحضارة وخلقا ، فتحولت إلى «دول» إسلامية ، أمكن ، يومئذ ، أن تتطور من منظمة «مؤتمر إسلامى» إلى منظمة «دول» إسلامية؟! . . وبهذا التطور ، تكون قد استجابت لضرورات الواقع المعاصر فى التكتل على أساس المصالح المادية ، وحققت المبدأ الإسلامى فى وحدة دار الإسلام ، المؤسسة على مبدأ وحدة أمة الإسلام فى العقيدة والشريعة والحضارة والأخلاق . .

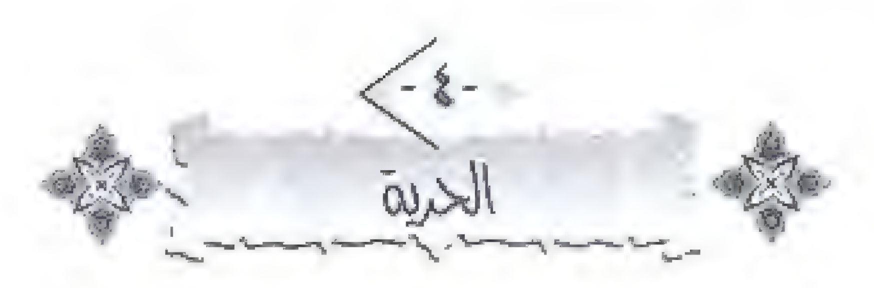
* * *

وجدير بالذكر ، أن وحدة أمة الإسلام ، ووحدة دار الإسلام لاتعنى عزلة المسلمين عن المشاركة فى الحياة الدولية ، سواء من خلال المنظمات الإقليمية مع الدول غير الإسلامية ، أو من خلال

المنظمات الدولية . . بل ومن خلال الأحلاف مع الدول غير الإسلامية ، طالما أن هذه المشاركات والتحالفات تحقق للمسلمين مصلحة ، أو تدفع عنهم مضرة ، أو تحقق نفعا عاما للإنسانية ، المسلمين منها وغير المسلمين . . فتحقيق المصلحة الشرعية المعتبرة ، للمسلمين وللإنسانية كلها ، ودفع المضرة والمفسدة عن المسلمين وعن الإنسانية ، هما معايير الموالاة والمعاداة فى علاقات المسلمين بغير المسلمين . . وهذه المعايير هى التى أوجزت التعبير عنها آيات القرآن الكريم التى تقول : ﴿ عَسَى اللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٧) لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٨) إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾

فالذين لايقاتلون المسلمين فى الدين . . ولا يخرجونهم من ديارهم - بالاقتلاع والتهجير ، أو باغتصاب مقدراتهم وحريتهم فى اتخاذ قرارات إدارة شئونهم ! - ولا يظاهرون ويعينون على إخراجنا من ديارنا . . نحن فى حل من إقامة العلاقات والتحالفات - على اختلاف درجاتها - معهم طالما كانت محققة لمصلحة من المصالح الشرعية المعتبرة للإسلام والمسلمين .

(١) الممتحنة : ٧ - ٩ .



- ٤ -
الحرية

الحرية : هي المقابل المناقض للعبودية . . والحر : ضد العبد والرقيق . . وتحرير الرقبة : عتقها من الرق والعبودية . . فالحرية هي رخصة الإباحة التي تمكن الإنسان من الفعل أو الترك ، المعبر عن إرادته ، التي هي شوق إلى الفعل أو الترك ، في أي ميدان من ميادين الفعل ، وبأي لون من ألوان التعبير الحر . .

وفي المصطلح القرآني مقابلة بين الحر والعبد ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنثَىٰ بِالْأُنثَىٰ ﴾ [البقرة : ١٧٨]

ومن المأثورات الإسلامية كلمات الفاروق عمر بن الخطاب ، رضي الله عنه : «متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارًا»؟! . .

وكما أن الحر هو الخالي من القيود المادية والقانونية التي تحد من حريته ، فهو أيضا المتحرر من سلطان الصفات والعادات الذميمة ، لأنها تستعبد صاحبها . . وفي القرآن الكريم : ﴿ إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ [آل عمران : ٣٥]

أي حرا مُعْتَقًا من أمر الدنيا والحرص على شهواتها . . وفي الحديث النبوي الشريف : «تعس عبد الدرهم ، تعس عبد الدينار»

- رواه البخارى وابن ماجة- . . ذلك لأن الحريص عبد لما هو حريص عليه . . وفى ذلك يقول الشاعر :

* ورقُّ ذوى الأطماع رِقٌّ مُخَلَّدُ !*

* * *

ولما كان الإسلام ، فى جوهر رسالته ، هو إحياء للإنسان ، يحرر ملكاته وطاقاته من استعباد الطواغيت ، فيجعل هذه الملكات والطاقات خالصة لله سبحانه وتعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾ [الأنفال : ٢٤] كانت رسالته ، فى العقيدة والشريعة ، تحريراً للإنسان ، وذلك حتى تتحرر فيه هذه الملكات ﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ﴾ [الأعراف : ١٥٧] فجميع أحكام شريعته تحرير ، حتى عندما تحرم الخبائث ، لأن اجتناب هذه الخبائث تحرير للإنسان من العبودية لها ! . . ومن ثم فكل الإسلام إحياء بالحرية ، يضع عن المؤمنين به القيود والأغلال - المادية والقانونية والخُلقية - وينمى ويزكى الملكات والطاقات الخيِّرة ، لتغالب وتتغلب على القيود والأغلال ، فتصبح قمة العبودية لله وحده هى ذروة الحرية والتحرير للإنسان ! . .

ولأن هذا هو جوهر ومقام الحرية فى رسالة الإسلام ، فلقد لحظ

المفسرون للقرآن الكريم سر التشريع الذى جعل كفارة القتل الخطأ تحرير رقبة من رق العبودية ﴿ومن قتل مؤمنا خطئا فتحرير رقبة مؤمنة﴾ [النساء: ٩٢] .. ذلك لأن الرق موت، والحرية حياة، فلما كان القاتل قد أخرج - بالقتل - نفسا من عداد الأحياء إلى عداد الأموات: فإن كفارة هذا الذنب - المعادلة له - هى تحرير رقبة، بإخراج صاحبها من عداد الأموات -بالرق- إلى عداد الأحياء - بالحرية والتحرير! - ..

ولما كان «الإسلام دين الجماعة»، الذى لاتكتمل إقامته إذا وقف عالم الإيمان به عند حدود الفرد المنعزل، حتى ولو استخلص كل نفسه - بالرهبنة - للدين .. بل لا بد لإقامة فرائضه وواجباته وشرائعه من أمّة، ووطن، ومجتمع، ودولة، وعمران، لأن تكاليفه وفرائضه الاجتماعية - الكفائية - موجهة إلى الجماعة: ولا تقوم ولا تُقام إلا بالجماعة، بل وحتى فرائضه الفردية أغلبها جماعى الإقامة والأداء .. وأداؤها فى جماعة أزكى وأكثر ثوابا .. لأن هذا هو مكان الجماعة والجماعية فى إقامة دين الإسلام وتحقيق شريعته، لم يقف الإسلام عند تحرير ذات الفرد وطاقاته وملكاته .. فلم يعرف الرهبانية، التى تقف عند تحرير الذات الفردية، وإنما جعل رهبانيته الجهاد الذى يحرر الأمم والشعوب والأوطان، فقال رسوله الكريم ﷺ: «إنى لم أومر بالرهبانية ..» - رواه الدارمى - .. و «إن الرهبانية لم تكتب علينا» - رواه الإمام أحمد - .. و «عليك بالجهاد فإنه رهبانية الإسلام» - رواه الإمام أحمد- .. فكانت فتوحات الإسلام حروب تحرير للأمم والشعوب

من عبودية الاستبداد الخارجى الذى فرضه على هذه الشعوب ، يومئذ ، استعمار الفرس والروم ، ومن الاستعباد الروحى والاجتماعى الذى فرضته على هذه الشعوب نظم الكهانة الدينية ، والجور الطبقى ، والاستبداد السياسى - فى الكسروية الفارسية والقيصرية البيزنطية - . . وعن جوهر هذه الرسالة التحريرية عبّر الصحابى «ربعى بن عامر التميمى» ، عندما سأله «رستم» قائد الفرس : - «ما الذى جاء بكم» ؟!

. . فقال :

- «إن الله ابتعثنا وجاء بنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله ، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام» . .

فهى رسالة تحرير . . وتحرير لمن شاء التحرر ، بالحرية والاختيار ! . . تحرير من عبادة العباد . . ومن ضيق الدنيا . . ومن جور كهانة الأديان . .

فالحرية والتحرير هى جوهر رسالة الإسلام . . ولأن إقامة الإسلام لاتكتمل إلافى أمة ، كان اختصاص رسول الله ﷺ وشريعته بالجهاد لتحرير الأمم والشعوب ، وبالدولة لحراسة الدين المحرر لهذه الأمم والشعوب . .

ولأن شعوب الشرق ، إبان ظهور الإسلام ، قد أدركت هذه الحقيقة من حقائقه ، فلقد انخرطت فى موكب فتوحاته ورعية دولته ولما يدخل الإيمان بعقيدته بعد فى قلوب هذه الشعوب ! . .

* * *

وإذا كانت الشرائع السابقة على الإسلام قد تميزت بالمحلية والمرحلية والاختصاص بقوم من الأقوام . . . فلقد كانت عالمية الشريعة الإسلامية تحريرا للمؤمنين بها من قيد المحلية وعصبية القومية ، وظَّفت المحلية والأقوام والشعوب والقبائل كلبنات فى الأمة المنفتحة آفاقها دائما وأبدا لكل من يخلص العبودية لله . . فكانت عالمية الإسلام تحريرا من ضيق أفق العصبية الجاهلية ، وكان استيعاب الإسلام لمواريث النبوات والرسالات السابقة ، وإضافته التى اكتمل بها دين الله الواحد- أى التصديق لما بين يديه ، والهيمنة على مابين يديه - كان ذلك تحريرا من التعصب للشرائع المحلية ، وانفتاحا لأبواب الحرية فى شريعة استوعبت الشرائع ، وأضافت إليها ، ومن ثم أغنت عنها الذين آمنوا بها . . وبعبارة «حاطب بن أبى بلتعة »[٣٥ ق .هـ - ٣٠ هـ ٥٨٦ - ٦٥٠ م] - حامل كتاب رسول الله ﷺ إلى «المقوقس»- عظيم القبط- : «إن لك دينا لن تدعه إلا لما هو خير منه ، وهو الإسلام ، الكافى الله به فَقْدَ ماسواه» ! . .

* * *

وكما جاء الإسلام ليضع عن الإنسان إصر القيود التى صنعها الاستبداد ، وأغلال العقائد الباطلة والشرائع المحرفة . . فلقد جاء ليفتح أبواب حرية الفكر والنظر أمام العقل الإنسانى لينظر ويتدبر ويتفكر فى ملكوت السموات والأرض ، وفى تاريخ الأولين والآخرين . . فى الماضى والحاضر والمستقبل . . فى كيف بدأ الخلق ، ولماذا كان الخلق ، وإلى أين المسيرة والمصير ؟؟ . . فكان

حديث القرآن الكريم عن التعقل والتدبر والتفكر والتذكر والحكمة والفقه والاعتبار .. بل واستنفاره هذه الملكات الإنسانية لتعمل بكل ما وهبها الله من طاقات فى النظر لاكتشاف ما أودع الله فى عالم الشهادة من آيات وسنن وأسرار .. فبعد أن كان سبيل الإيمان- فى طور الطفولة الإنسانية- هو إدهاش العقل بالمعجزات المادية، إدهاشا يشل طاقاته وقدراته على التفكير! .. غدا النظر والتعقل السبيل للإيمان المؤسس على تبيّن ما فى المخلوقات من حقائق وقوانين وآيات .. ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ﴾ [فصلت: ٥٣]- .. ولذلك رأينا الحديث المتكرر، فى القرآن الكريم، الذى يستحث الإنسان على تنمية ملكات وطاقات النظر والتفكر، لتزداد مساحة الحرية الإنسانية- بالعلم والمعرفة- إزاء ما فى الكون من قيود تتمثل فى المجهول ..

فالحديث عن التعقل يرد فى القرآن - بصريح المصطلح - فى تسع وأربعين موضعا .. وعن القلب - الذى هو أداة الفقه والعقل - فى أكثر من مائة موضع .. وعن اللب - الذى هو جوهر العقل - فى ستة عشر موضعا .. وعن النُّهى - بمعنى العقل - فى موضعين .. وعن الفكر والتفكر فى ثمانية عشر موضعا .. وعن الفقه - الذى هو تجاوز علم المشاهَد إلى علم المُغَيَّب - فى عشرين موضعا .. وعن التدبّر - الذى هو النظر فى العواقب والمستقبليات - فى أربعة مواضع .. وعن الاعتبار فى سبعة مواضع .. وعن

الحكمة - التي هي الصواب والإصابة بواسطة العقل - في تسعة عشر موضعا . .

وانطلاقا من هذا الرصيد ، غير المسبوق في شريعة من الشرائع السابقة على شريعة الإسلام ، رصيد التحرير لملكات التعقل والتدبر والتفكر لدى الإنسان ، ليتحرر من خوف المجهول ، ويمتلك مفاتيح القوى التي سخرها الله له في استعمار الأرض . . انطلاقا من هذا الرصيد التحريري قال جمهور من فلاسفة الإسلام : إن أول واجب على الإنسان المكلّف هو «النظر» . . لأن النظر الحر - هو المحرِّر لملكات الإنسان - وهو السبيل إلى الإيمان الديني ، الذي تبلغ به هذه الملكات قمة التحرر من استعباد الطواغيت ! . .

* * *

وكما تجاوز الإسلام تحرير طاقات الإنسان إلى تحرير الشعوب من الاستعباد . . فلقد تجاوز تحرير الذين كانوا يُعدون «أحرارا» إلى الدعوة لتحرير «الأرقاء» . .

لقد ظهر الإسلام ونظام الرق - إن في شبه الجزيرة العربية أو فيما وراءها - نظام عام ، وبالغ القسوة ، ويمثل ركيزة من ركائز النظامين الاقتصادي والاجتماعي لعالم ذلك التاريخ . . وإذا نظرنا إلى المحيط الذي ظهر فيه الإسلام وجدنا الروافد والمنابع المتعددة دائمة الإمداد لنهر الرقيق الزاخر بالجديد من الأرقاء . . فالحروب العدوانية . . والغارات الدائمة . . والفقر المدقع . . والعجز عن سداد الدين . . والحرابة وقطع الطريق . . وأسواق النخاسة التي تعج بالصغار المجلوبين - فتيانا وفتيات - كانت من المعالم الأساسية

لكل المجتمعات ، حتى لا نغالى إذا قلنا إن الرقيق كان «العملة الدولية» لاقتصاد ذلك التاريخ ! . .

فلما جاء الإسلام ، وقامت دولته بالمدينة ، حرّم وألغى كل المنابع والروافد التى تمد نهر الرقيق بالجديد والمزيد . . ووسع مصبات ذلك النهر ، عندما حبب إلى الناس عتق الأرقاء وتحريرهم ، بل وجعله مصرفا من مصارف الأموال الإسلامية العامة ، وصدقات المسلمين . . وعندما جعل العديد من كفارات العديد من الذنوب هى تحرير الأرقاء . . وعندما سن شرائع المساواة بين الرقيق ومالكه ، فى المطعم والمشرب والملبس ، ودعا إلى حسن معاملته ، والتخفيف عنه فى الأعمال ، حتى لقد أصبح الاسترقاق - فى ظل هذه التشريعات - عبئا اقتصاديا يزهد فيه الراغبون فى الثراء ، بعد أن كان موردا من موارد الاستغلال ! . .

فلم يكن موقف الإسلام من «الحرية» ، وعداؤه «للعبودية» - إذا نظرنا إلى موقفه من نظام الرق - مجرد موقف «فكرى . . نظرى . . أخلاقى» ، وإنما تجسد على أرض الواقع تجربة إصلاحية شاملة غيرت المجتمع الذى ظهر فيه تغييرا جذريا . . بل إنه لم يقف بالرقيق عند حد العتق والتحرير ، وإنما فتح أمامهم كل أبواب الارتقاء فى السلم الاجتماعى ، وفق المعايير التى اعتمدها للارتقاء الاجتماعى : التقوى ، والبلاء فى إقامة الدين والدولة والمجتمع الجديد . . حتى رأينا «بلالا الحبشى» - الذى أعتقه أبو بكر الصديق - يقول عنه عمر بن الخطاب - وهو من هو شرفا وحسبا ونسبا - : «سيدنا - [أى أبو بكر] - أعتق سيدنا - أى بلالاً» - !! » . .

ولقد وقف التشريع الإسلامى بالاسترقاق عند أسرى الحرب المشروعة وحدها ؛ وذلك ليبادلهم مع أسرى المسلمين . . بل وشرع لهذه الحالات ، المحدودة العدد ، «المَنّ» و «الفداء» ﴿ فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب حتى إذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق فإما منا بعد وإما فداء حتى تضع الحرب أوزارها ﴾ [محمد : ٤]

ذلك هو انجاز الإسلام فى واقع التحرير للرقيق . . وهو إنجاز لاتحسب عليه «الردة» التى حدثت عندما استشرى الاسترقاق بعد اتساع الدولة ، ودخول شعوب كان الرق فيها نظاما اقتصاديا واجتماعيا معقدا ومركبا . . والدولة الإسلامية ليست على حالها فى ظل منهاج النبوة والراشدين ! . .

* * *

ولأن هذا هو مقام الحرية فى الإسلام ، فلقد كان مبحثها هو أول المباحث التى بدأت بها الفلسفة الإسلامية فى تاريخنا الحضارى ، بعد ظهور الإسلام . . ولقد دلت ملابسات هذه النشأة على ارتباط «الحرية» بـ «المسئولية» ارتباطا عضويا ، لأن القضية التى أثارت الجدل فولدت البحث فى هذه القضية ، هى التغيرات التى أحدثتها الدولة الأموية فى نظام الحكم الإسلامى ، والصراعات التى حدثت بين المسلمين حول هذه المتغيرات . . وهل القائمون بها مسئولون عنها؟ . . يحاسبون عليها؟ . . فهم أحرار مختارون؟؟ . . أم أنهم غير مسئولين؟ . . كليا؟ . . أو جزئيا؟ . . ولا حساب عليهم؟ . . لأنهم مسيرون مجبرون؟؟ . . فنشأ مبحث

الحرية – الذى عُبِّر عنه أحيانا بـ «الكلام فى القَدَر» – مرتبطا بالمسئولية .. مسئولية الإنسان ..

* * *

ولقد تميزت نظرة الإسلام إلى «الحرية» عن نظرات كثير من الفسلفات والأنساق الفكرية الأخرى ..

● فالحرية ، فى النظرة الإسلامية ، ضرورة من الضرورات الإنسانية ، وفريضة إلهية وتكليف شرعى واجب .. وليست مجرد «حق» من الحقوق الإنسانية ، يجوز لصاحبها أن يتنازل عنها إن هو أراد! .. فالرضا بالعبودية هو امتهان لمن كرمه خالقه ، واستخلفه فى حمل أمانة استعمار الأرض ، ورفع مقامه حتى على الملائكة المقربين ! .. وفيه ظلم للنفس ، سيحاسب عليه ذلك الذى يرضى لنفسه الرق والاستعباد ! ..

● والحرية ، فى الإسلام ، هى ضرورة إنسانية ، لمطلق الإنسان ، وليس للإنسان المسلم وحده .. وعمر بن الخطاب عندما استنكر استعباد الناس –«متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا»؟ ! – كان «الناس» الذين يتحدث عنهم غير مسلمين ..

وإذا كان الدين والتدين هو أعلى وأول ما يميز الإنسان ، فإن تقرير الإسلام لحرية الضمير فى الاعتقاد الدينى لشاهد على تقديس حرية الإنسان فى كل الميادين .. فهو حر حتى فى أن يكفر ، إذا كان الكفر هو خياره واختياره ، طالما أنه لا ينشر كفره بين الناس ، فيعتدى على حريتهم فى الاعتقاد الدينى الذى جعلوه مقوما من مقومات الاجتماع

الإنسانى : ﴿ لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ﴾ [البقرة : ٢٥٦] ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَارِهُونَ (٢٨) ﴾ [هود : ٢٨] ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٩٩) ﴾ [يونس : ٩٩]

لقد أراد الله للناس الهدى والإيمان . . لكنه جعل لهم ، مع هذه الإرادة الإلهية ، الحرية والتخيير والتمكين . . فكان انتصار الإسلام للحرية الإنسانية فى كل الميادين . .

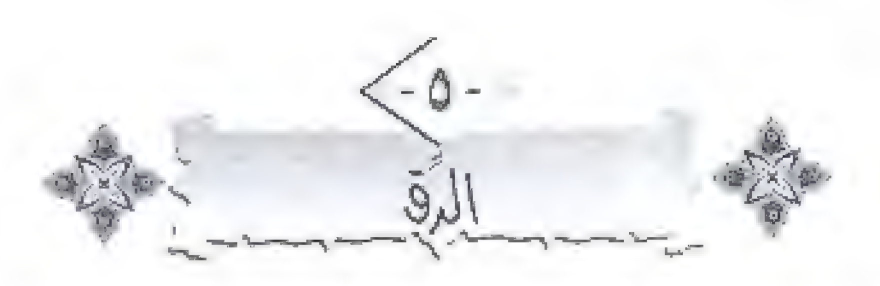
● كذلك تميز الإسلام بمذهبه فى «نطاق» الحرية الإنسانية و «آفاقها» و «حدودها» ، تبعا لتميز فلسفته فى مكانة الإنسان فى هذا الوجود . .

فالإنسان خليفة عن الله سبحانه وتعالى فى عمارة الوجود . . ومن ثم فإن حريته هى حرية الخليفة ، وليست حرية سيد هذا الوجود . . إنه حر ، فى حدود إمكاناته المخلوقة له - والتى لم يخلقها هو ! - . . وهو حر ، فى إطار الملابسات والعوامل الموضوعية الخارجية ، التى ليست من صنعه ، والتى قد يستعصى بعضها على تعديله وتحويره وتغييره ! . . هو حر ، فى إطار أشواقه ورغباته وميوله ، التى قد لا تكون دائما وأبدا ثمرات حرة وخالصة لحريته وإرادته الخالصة ، وإنما قد تكون ، أحيانا ، ثمرات لمحيط لم يصنعه هو ، وللموروث ما كان له إلا أن يتلقاه ! . .

ثم : إنه «الخليفة والوكيل والنائب : الحر» ، الذى يجب أن تظل حريته فى إطار عقد وعهد الاستخلاف الإلهى له . . والذى تمثل الشريعة الإلهية مواده وبنوده وأطُر حاكميته . . فهى عقد وعهد الاستخلاف والتوكيل . .

وإذا كان الله سبحانه وتعالى قد سخر للإنسان ظواهر الطبيعة وقواها . . ليتحرر من العبودية لها . . فإنه قد أقام - أو أراد - إخاء بين قوى الإنسان وقوى الطبيعة ، لتمتزج حريته بهذا التسخير المتبادل . . فهو أخ للطبيعة ، بين قواه وقواها تسخير متبادل ، هو أشبه ما يكون بالارتفاق ، كل مرفق مسخر للمرفق الآخر ، الأمر الذى يجعل الحرية الإنسانية حرية المخلوق . . المسئول . . لا حرية الذى لا يُسْأَلَ عما يفعل ... الفعال لما يريد !





- ٥ -
الرق

الرِّق - لغة - : هو الشيء الرقيق ، نقيض الغليظ والثخين .

- واصطلاحا - : هو المِلْك والعبودية ، أي نقيض العِتْق والحرية .

والرقيق - بمعنى العبد - يطلق على المفرد والجمع ، وعلى الذكر والأنثى . أما العبد ، فهو : الرقيق الذكر ، ويقابله : الأمَة للأنثى . ومن الألفاظ الدالة على الرقيق الذكر لفظى : الفتى ، والغلام . . وعلى الأنثى لفظى : الفتاة ، والجارية . أما القِنّ فهو أخص من العبد ، إذ هو الذى مُلِك هو وأبواه .

ومالك الرقيق هو : السيد ، أو المولى .

والرق نظام قديم قدم المظالم والاستعباد والطبقية والاستغلال فى تاريخ الإنسان ، وإليه أشار القرآن الكريم فى قصة يوسف عليه السلام : ﴿ وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُ قَالَ يَا بُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَامٌ وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ (١٩) وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ (٢٠) وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِن مِّصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا ﴾ [يوسف : ١٩ - ٢١] . . وكان الاسترقاق من عقوبات السرقة عند العبرانيين القدماء ، وعندما سئل إخوة يوسف

عن جزاء السارق لصواع الملك ﴿قَالُوا جَزَاؤُهُ مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ﴾ [يوسف: ٧٥]

وفى الحضارات القديمة كان الرق عماد نظام الإنتاج والاستغلال ، وفى بعض تلك الحضارات - كالفرعونية المصرية والكسروية الفارسية - كان النظام الطبقى المغلق يحول دون تحرير الأرقاء ، مهما توفرت لأى منهم الرغبة أو الإمكانات . . وفى بعض تلك الحضارات - كالحضارة الرومانية - كان السادة هم الأقلية الرومانية ، وكانت الأغلبية- فى الإمبراطورية - برابرة أرقاء ، أو فى حكم الأرقاء .. وللأرقاء فى تلك الحضارات ثورات ، من أشهرها ثورة «سبارتاكوس» [٧٣ - ٧١ ق م] وعندما ظهر الإسلام كانت المظالم الاجتماعية والتمييز العرقى والطبقى منابع ومنابع روافد عديدة تغذى «نهر الرق» فى كل يوم بالمزيد من الأرقاء . . وذلك من مثل :

١ - الحرب ، بصرف النظر عن حظها من الشرعية والمشروعية ، فالأسرى يتحولون إلى أرقاء ، والنساء يتحولن إلى سبايا وإماء . .

٢ - والخطف ، يتحول به المخطوفون إلى رقيق . .

٣ - وارتكاب الجرائم الخطيرة كالقتل والسرقة - والزنا - كان يحكم على مرتكبيها بالاسترقاق . .

٤ - والعجز عن سداد الديون ، كان يحول الفقراء المدينين إلى أرقاء لدى الأغنياء الدائنين . .

٥ – وسلطان الوالد على أولاده ، كان يبيح له أن يبيع هؤلاء الأولاد ، فينتقلون من الحرية – إلى العبودية . .

٦ – وسلطان الإنسان على نفسه ، كان يبيح له بيع حريته ، فيتحول إلى رقيق . .

٧ – وكذلك النسل المولود من كل هؤلاء الأرقاء يصبح رقيقا ، حتى ولو كان أباه حرا . .

ومع كثرة واتساع هذه الروافد التي تمد نهر الرقيق – في كل وقت – بالمزيد والمزيد من الأرقاء ، كانت أبواب العتق والحرية إما موصدة تماما ، أو ضيقة عسيرة على الولوج منها . .

وأمام هذا الواقع ، اتخذ الإسلام ، إبان ظهوره ، طريق الإصلاح الذي يتغيا تحرير الأرقاء ، وإلغاء نظام العبودية ، وطي صفحته من الوجود ، لكن في «واقعية – ثورية» – إذا جاز التعبير – . . فهو لم يتجاهل الواقع ولم يقفز عليه . . وأيضا لم يعترف به على النحو الذي يبقيه ويكرسه . .

لقد بدأ الإسلام فأغلق وألغى وحرّم أغلب الروافد التي كانت تمد نهر الرقيق بالمزيد من الأرقاء . . فلم يبق منها إلا أسرى الحرب المشروعة والشرعية ، والنسل إذا كان أبواه من الأرقاء . . وحتى أسرى الحرب المشروعة– فتح الإسلام أمامهم باب العتق والحرية – المنّ أو الفداء– ﴿ فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب حتى إذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق فإما منا بعد وإما فداء حتى تضع الحرب أوزارها ﴾ [محمد : ٤] فعندما تضع الحرب أوزارها ، يتم تحرير

الأسرى ، إما بالمن عليهم بالحرية وإما بمبادلتهم بالأسرى المسلمين لدى الأعداء . .

ومع إغلاق الروافد - روافد الاسترقاق ومصادره - التفت الإسلام إلى «كتلة» واقع الأرقاء ، فسعى إلى تصفيتها بالتحرير . وذلك عندما عدد ووسع مصاب نهر الرقيق . . ولقد سلك الإسلام إلى ذلك المقصد سبيل منظومة القيم الإسلامية . . وسبيل العدالة الاجتماعية الإسلامية . . فحبب إلى المسلمين عتق الأرقاء تطوعا ، إذ في عتق كل عضو من أعضاء الرقيق عتق لعضو من أعضاء سيده من النار ؛ فتحرير الرقيق سبيل لتحرير الإنسان من عذاب النار يوم القيامة . . كما جعل الإسلام عتق الأرقاء كفارة للكثير من الذنوب والخطايا . . وجعل للدولة والنظام العام مدخلا في تحرير الأرقاء عندما جعل هذا التحرير مصرفا من المصارف الثمانية لفريضة الزكاة - فهو جزء من أحد أركان الإسلام - ﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٦٠) ﴾ [التوبة : ٦٠] . . كما جعل الحرية هي الأصل الذي يولد عليه الناس ، والرق هو الاستثناء الطارئ الذي يحتاج إلى إثبات ، فمجهولوا الحكم هم أحرار ، وعلى مدعى رقهم إقامة البينات ، وأولاد الأمة من الأب الحر هم أحرار - و «متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا . .؟!» . .

كذلك ، ذهب الإسلام فساوى بين العبد والحر في كل الحقوق

الدينية ، وفى أغلب الحقوق المدنية ، وكان التمييز فقط ، فى أغلب حالاته ، بسبب التخفيف عن الأرقاء مراعاة للاستضعاف والقيود التى يفرضها الاسترقاق على الإرادة والتصرف . . فالمساواة تامة فى التكاليف الدينية ، وفى الحساب والجزاء . . وشهادة الرقيق معتبرة فى بعض المذاهب الإسلامية - عند الحنابلة- وله حق الملكية فى ماله الخاص ، وإعانته على شراء حريته - بنظام المكاتبة والتدبير- مرغوب فيها دينيا : ﴿ والَّذين يبتغون الكتاب مِمَّا ملكت أيمانكم فكاتبوهم إن علمتم فيهم خيرا وآتوهم من مال الله الَّذي آتاكم ﴾ [النور: ٣٣] . . والدماء متكافئة فى القصاص . .

وبعد أن كان الرق من أكبر مصادر الاستغلال والثراء لملاك العبيد ، حوله الإسلام - بمنظومة القيم التى كادت أن تسوى بين العبد وسيده - إلى ما يشبه العبء المالى على ملاك الرقيق . . فمطلوب من مالك الرقيق أن يطعمه مما يأكل ، ويلبسه مما يلبس ، ولا يكلفه من العمل مالايطيق . . بل ومطلوب منه - أيضا- إلغاء كلمة «العبد» و «الأمة» ، واستبدالها بكلمة «الفتى» و «الفتاة» .

بل لقد مضى الإسلام فى هذا السبيل إلى ما هو أبعد من تحرير الرقيق ، فلم يتركهم فى متاهة عالم الحرية الجديد دون عصبية وشوكة وانتماء ، وإنما سعى إلى إدماجهم فى القبائل والعشائر والعصبيات التى كانوا فيها أرقاء ، فأكسبهم عزتها وشرفها ومكانتها ومنعتها ومالها من إمكانات ، وبذلك أنجز إنجازا عظيما . . وراء وفوق التحرير - عندما أقام نسيجا اجتماعيا جديدا التحم فيه

الأرقاء السابقون بالأحرار ، فأصبح لهم نسب قبائلهم عن طريق «الولاء» ، الذى قال عنه رسول الله ، ﷺ : « الولاء لُحْمَةٌ كلُحْمَة النسب» - رواه الدارمى - حتى لقد غدا أرقاء الأمس «سادة» فى أقوامهم ، بعد أن كانوا «عبيدا» فيهم .. وقال عمر بن الخطاب - وهو من هو فى الحسب والنسب - عن بلال الحبشى ، الذى اشتراه أبو بكر الصديق وأعتقه : «سيدنا أعتق سيدنا»! .. كما تمنى عمر أن يكون سالم مولى أبى حذيفة حيا فيختاره لمنصب الخلافة .. فالمولى ، الذى نشأ رقيقا ، قد حرره الإسلام ، فكان إماما فى الصلاة ، وأهلا لخلافة المسلمين . ولقد ساعد على هذا الاندماج فى النسيج العربى - فضلا عن الإسلامى - ذلك المعيار الذى حدده الإسلام للعروبة ، وهو معيار اللغة وحدها ، فباستبعاد معايير «العرق .. والدم» غدت الرابطة اللغوية والثقافية انتماء واحدا للجميع ، بصرف النظر عن ماضى الاسترقاق .. وعن هذا المعيار للعروبة تحدث رسول الله ، ﷺ - فى معرض النقد والرفض للذين أرادوا إخراج الموالى ، ذوى الأصول العرقية غير العربية ، من إطار العروبة ، فقال : « أيها الناس ، إن الرب واحد ، والأب واحد .. وليست العربية بأحدكم من أب أو أم ، وإنما هى اللسان ، فمن تكلم العربية فهو عربى ..»

هكذا كان الإسلام إحياء وتحريرا للإنسان ، مطلق الإنسان ، يضع عن الناس إصرهم والأغلال التى كانت عليهم ، ويحرر الأرقاء ، لأن الرق - فى نظره - «موت» ، والحرية «حياة وإحياء» ..

ولقد أبصر هذه الحكمة الإسلامية الإمام النسفى [٧١٠ هـ ١٣١٠]

وهو يعلل جعل الإسلام كفارة القتل الخطأ تحرير رقبة : ﴿ ومن قتل مؤمنا خطئا فتحرير رقبة مؤمنة ﴾ [النساء : ٩٢] . فقال : إن القاتل «لما أخرج نفسا مؤمنة من جملة الأحياء ، لزمه أن يدخل نفسا مثلها في جملة الأحرار ، لأن إطلاقها من قيد الرق كإحيائها ، من قبل أن الرقيق ملحق بالأموات ، إذ الرق أثر من آثار الكفر ، والكفر موت حكما . .» . فالإسلام قد ورث نظام الرق عن المجتمعات الكافرة ، فهو من آثار الكفر ، ولأنه موت لروح وملكات الأرقاء ، سعى الإسلام إلى إلغائه ، وتحرير - أى إحياء - موات هؤلاء الأرقاء ، كجزء من الإحياء الإسلامى العام : ﴿ يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم ﴾ [الأنفال : ٢٤]

* * *

ومع أن مقاصد الإسلام فى تصفية نهر الرقيق - بإغلاق روافده وتجفيف منابعه ، وتوسيع مصباته - لم تبلغ كامل آفاقها ، إذ انتكس « الواقع التاريخى » للحضارة الإسلامية ، بعد عصر الفتوحات ، وسيطرة العسكر المماليك على الدولة الإسلامية . . إلا أن حال الأرقاء فى الحضارة الإسلامية قد ظلت أخف قيودا وأكثر عدلا - بما لا يقارن - من نظائرها خارج الحضارة الإسلامية ، بما فى ذلك

الحضارة الغربية ، التى تزعمت - فى العصر الحديث - الدعوة إلى تحرير الأرقاء . .

فلقد اقترن عصر النهضة الأوربية بزحفها الاستعمارى على العالمين القديم والجديد . . وبعد أن استعبد المستعمرون - الإسبان والبرتغاليون والإنجليز والفرنسيون - سكان أمريكا الأصليين ، وأهلكوهم فى سخرة البحث عن الذهب وإنشاء المزارع ، مارسوا أكبر أعمال القرصنة والخطف فى التاريخ ، تلك التى راح ضحيتها أكثر من أربعين مليونا من زنوج إفريقيا ، سلسلوا بالحديد ، وشحنوا فى سفن الحيوانات ، لتقوم على دمائهم وعظامهم المزارع والمصانع والمناجم التى صنعت رفاهية الرجل الأبيض فى أمريكا وأوربا . . ولا يزال أحفادهم يعانون من التفرقة العنصرية فى الغرب حتى الآن . .

وعندما سعت أوربا - فى القرن التاسع عشر - إلى إلغاء نظام الرق ، وتحريم تجارته ، لم تكن دوافعها - فى أغلبها - روحية ولا قيمية ولا إنسانية ، وإنما كانت - فى الأساس - دوافع مادية ، لأن نظامها الرأسمالى قد رأى فى تحرير الرقيق سبيلا لجعلهم عمالا أكثر مهارة ، وأكثر قدرة على النهوض باحتياجات العمل الفنى فى الصناعات التى أقامها النظام الرأسمالى . . فلقد غدا الرق - بمعايير الجدوى الاقتصادية - عبئا على فائض رأس المال - الذى هو معبود الحضارة الرأسمالية

المادية - وأصبحت حرية الطبقة العاملة أعون على تنمية مبادراتها ومهاراتها فى عملية الإنتاج . .

ولقد كان ذات القرن الذى دعت فيه أوربا لتحرير الرقيق هو القرن الذى استعمرت فيه العالم ؛ فاسترقت بهذا الاستعمار الأمم والشعوب ، استرقاقا جديدا ، لاتزال الإنسانية تعانى منه حتى الآن[1] .



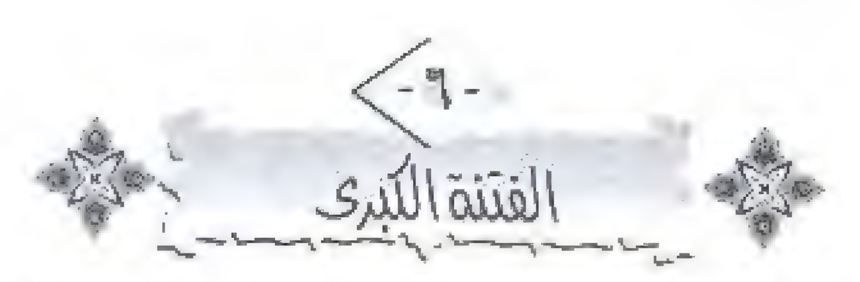
(١) مراجع :

(١) [معجم العلوم الاجتماعية] مجمع اللغة العربية . طبعة القاهرة سنة ١٩٧٥ م

(٢) [دائرة المعارف الإسلامية] طبعة القاهرة سنة ١٤١٨ هـ سنة ١٩٩٨ م .

(٣) [تفسير النسفى] طبعة القاهرة سنة ١٣٤٤ هـ .

(٤) [الإسلام والثورة] للدكتور محمد عمارة . طبعة القاهرة سنة ١٩٨٨ م .



- ٦ -
الفتنة الكبرى

هى الفتنة التى حدثت أواخر عهد الخليفة الراشد - الثالث - عثمان بن عفان [٤٧ ق . هـ - ٣٥ هـ ٥٧٧ - ٦٥٦م] . .

ومعنى «الفتنة» - فى الاصطلاح العربى - : الاختلاف ، والصراع حول الآراء والأفكار ، وقيام الأحزاب والتيارات الفكرية المتصارعة ، والثورة ، أى الوثوب ، ووقوع البلاء والامتحان والاختبار ، وتمييز الجيد من الردىء ، عن طريق الصهر فى حرارة الأحداث والصراعات . .

وكل هذه المعانى - للفتنة - قد شهدتها السنوات الأخيرة من عهد عثمان ! . .

بل إن هناك من الأحاديث النبوية أحاديث يمكن النظر إليها - ممن يسلم بصحتها - على أنها نبوءات بهذه الفتنة . . من مثل حديث : «كيف فى فتنة تثور فى أقطار الأرض كأنها صياصى - [قرون] - بقر!» - رواه الإمام أحمد - . . وحديث : «إنه تكون فتنة ، وخير الناس فيها الخفىّ التقىّ!» . .

ويزكى كونها نبوءات نبوية بفتنة عصر عثمان خاصة : أن هذه الفتنة كانت - بتعبير الطبرى - «أول وهن - [ضعف] - على الإسلام ، وأول فتنة كانت فى العامة ! . .» . .

* * *

لقد حكم عثمان بن عفان اثنتى عشرة سنة إلا اثنى عشر يومًا- من ٣ محرم سنة ٢٤ هـ - ٩ نوفمبر سنة ٦٤٤ م - إلى ١٨ ذى الحجة سنة ٣٥ هـ - ١٧ يونية سنة ٦٥٦ م- .. ولم تشهد السنوات الست الأولى من حكمه ما يدعو للخلاف والاختلاف على نهجه فى قيادة الدولة الإسلامية .. لكن السنوات الست الأخيرة من عهده هى التى شهدت تغيرات كانت مثارا لاختلاف الناس حول اتساق منهجه أو اختلافه مع منهاج كل من أبى بكر الصديق وعمر بن الخطاب فى سياسة الرعية والعدل بين الناس ..

لم يختلف أحد على صلاح الخليفة عثمان وتقواه .. وهو قد تولى الخلافة بعد أن تجاوز السبعين من عمره! .. ولم يختلف أحد كذلك على تميز منهجه فى الحكم عن منهج سلفه عمر بن الخطاب .. كانت لعمر شدة فى العدل حتى على نفسه وأهله، تتزايد كلما تزايدت مكانة الذين يتعامل معهم وكلما دنت قرابتهم منه ؟! .. أما عثمان فلقد كان له نهج آخر واجتهاد مغاير .. ويكفى للدلالة على ذلك أن نتأمل كلمات عثمان التى يقول فيها :إن عمر كان يمنع أهله وأقرباءه - [أى يحرمهم من المال] - ابتغاء وجه الله ، وإنى أعطى أهلى وأقربائى ابتغاء وجه الله ؟! ..»

فنحن أمام «نهج عثمانى» جديد فى التعامل مع الأهل والأقرباء .. ولقد كان أهل عثمان وأقرباؤه من بنى أمية - وفيهم عصبية قريش - ومنهم عديد من ملأ قريش وأشرافها - الذين تتطلع نفوسهم إلى نصيبها من الدنيا ،فى المجتمع الإسلامى، كما كان لها ذلك قبل ظهور الإسلام .. ولقد كان ذلك أول التغيرات التى حدثت فى عهد عثمان .. والتى أثارت الفتنة بين الناس ..

● فعمر بن الخطاب ، قد امتدت الدولة ، بالفتوحات ، على عهده ، حتى شملت مواطن الغنى والثراء وضمت أودية الأنهار الكبرى ، فحازت كنوز الأكاسرة والقياصرة ومواطن الخصب فى الثروات الزراعية . . لكنه كان واعيا للأثر السلبى للثراء على نفوس الناس . . ومدركا لخطر اجتماع شرف النسب وفضل الصحبة لرسول الله ، ﷺ ، مع الثراء الكبير . . فحجر على أشراف قريش أن يغادروا المدينة «إلا بإذن ، ولأجل !» . . وذلك مخافة انتشارهم فى مواطن الغنى والثراء ، حتى لايفقدوا خشونة المجاهدين بالانغماس فى ترف الحياة وطيباتها . . وحتى لا تتكون من حولهم العصبيات! . .

فلما ولى عثمان . . تغير موقفه من ملأ قريش وأشرافها . . وبعبارة الطبرى : « . . فلما ولى عثمان لم يأخذهم بالذى كان عمر يأخذهم به ، فخرجوا إلى البلاد ، فلما نزلوها ، ورأوا الدنيا؟! ورآهم الناس . . تقربوا إليهم ، وقالوا : يملكون ، فيكون لنا فى ملكهم حظوة ؟ ! . .»

ثم يعلق الطبرى على هذا التغير الذى شهده مجتمع عهد عثمان فيقول : «فكان ذلك أول وهن على الإسلام ، وأول فتنة كانت فى العامة!! . . ولذلك كان عثمان أحب إلى قريش من عمر ؟ ! . .»

● وفى عهد عمر لم تكن لقريش الغلبة على ولايات الدولة وحكام أقاليمها . . فمن بين ولاة إحدى عشرة ولاية - هى مجموع ولايات ذلك العهد - لم يكن من قريش سوى ثلاثة ولاة ، واحد منهم فقط من بنى أمية . .

فلما ولى عثمان حدثت تغيرات في هذا الميدان أيضا . . فمعاوية بن أبي سفيان ، والى دمشق - وهو أموى - ضمت إليه ولاية حمص وولاية الأردن - فغدت الولايات الثلاث في أمية! . . وأصبحت الكوفة في ولاية أموى - هو الوليد بن عقبة - والبصرة في ولاية أموى - هو عبدالله بن عامر- . . ومصر في ولاية أموى - هو عبدالله بن أبي السرح- . . وكان من هؤلاء من هو أخو الخليفة لأمه ، ومن هو أخوه في الرضاع! . . أي أن أكبر وأخصب أقاليم الدولة - كل العراق . . وكل الشام . . وجميع مصر- أصبح ولاتها أمويين؟ ! . .

وتشمخ قريش - والأمويون خاصة - حتى يقول والى الكوفة سعيد بن العاص عن سواد العراق وأرضها الزراعية : «إن السواد بستان لقريش وبني أمية!» . . ويثير ذلك حفائظ أقوام . . وعندما يلي الكوفة من بعده الوليد بن عقبة . . يقول شاعرها :

فررت من الوليد إلى سعيد كأهل الحجر إذ فزعوا فباروا
يلينا من قريش كل عام أمير محدث أو مستشار
لنا نار تحرقنا فنخشى وليس لهم ، ولا يخشون نار! . .

وأكثر من هذه التغيرات التي طرأت على جهاز الدولة وولاتها . . فإن عثمان - الذي لم يكن في حزم عمر ولا في شدته - قد جعل مروان بن الحكم كاتبا له ، فأصبحت بيده مقاليد إدارة الكثير من شئون دولة الخلافة . . وزاد الطين بلة أن مروان بن الحكم هذا قد

أبرم أمورا أغضبت كثيرا من الناس دون استشارة الخليفة عثمان ، فحسب هذا التدبير على عثمان ! . .

● وكانت «الصوافى» - وهى الأملاك العامة لبيت مال المسلمين - التى استصفتها الدولة لنفسها ، بعد أن كانت مملوكة لملوك وأمراء وقادة البلاد التى فتحت - كانت هذه الصوافى مصدر ثراء لبيت المال الذى ينفق منها على مصارف الدولة وعطاء الرعية . .

فلما كان عهد عثمان ، اجتهد فى إقطاع كثير من «الصوافى» ، وأجزاء من سواد العراق . . ورأى المعارضون لمنهاجه أن خاصته وقرابته قد فازوا بنصيب الأسد من هذه الإقطاعات ! . .

● وكان عمر بن الخطاب قد عزم قبيل استشهاده - إن هو عاش إلى العام القادم على أن يسوى بين الناس فى العطاء ، بعد أن أدرك أن التمييز بينهم فى العطاء قد أحدث تفاوتا اجتماعيا لم يكن مقصودا . . وقال : «لو عشت من قابل لسويت بين الناس فى العطاء . . ولألحق آخر الناس بأولهم ، ولأجعلنهم رجلا واحدا!»

فلما ولى عثمان لم ينفذ عزم عمر ، الأمر الذى زاد من تفاوت الناس فى الثراء ! . .

تلك بعض من التغيرات ، فى منهاج الحكم ، وفى تطبيقات هذا المنهاج ، التى حدثت على عهد عثمان بن عفان . . والتى كانت من بين أسباب الفتنة التى شهدتها سنوات حكمه الأخيرة . .

* * *

والمؤرخون يختلفون .. هل هذه هى أسباب الفتنة؟ .. أم أن مؤامرة يهودية هى التى قادت الفتنة، مستغلة هذه الأسباب؟؟ ..

على أن الأمر المؤكد .. هو أن السنوات الأخيرة من عهد عثمان قد شهدت قلاقل كثيرة، ارتفع فيها صوت المعارضة لمنهاجه فى الحكم .. حتى لقد اشترك فيها الصحابى الجليل أبو ذر الغفارى [٣٢ هـ ٦٥٢ م] وغيره من الصحابة .. وفيهم عدد من «المهاجرين الأولين» ..

وكان عثمان يستشير أمراءه وولاته فى أمر هذه المعارضة .. فكانوا يشيرون عليه بالشدة التى لم تكن من طبعه ولامتفقة مع صلاحه وتقواه ..

فلما تصاعدت المعارضة .. تنادى زعماؤها من مختلف البلاد .. فزحف الثوار باتجاه المدينة، عاصمة الخلافة سنة ٣٥ هـ ..

- خرج من الكوفة مائتا رجل، بسلاحهم، يقودهم مالك بن الحارث النخعى ..
- ومن البصرة مائة رجل، بسلاحهم، يقودهم حكيم بن جبلة العبدى ..
- ومن مصر ستمائة رجل، بسلاحهم، يقودهم عبد الرحمن ابن عديس البلوى ..

فالتقوا على مقربة من المدينة .. وأرسلوا رسلهم إلى الخليفة يخيرونه بين أمور ثلاثة :

١ - اعتزال الخلافة .. ليؤمروا خليفة جديدا ..

٢ - أو القصاص منه بكل رجل أصيب خطأ أو عمدا فى القلاقل التى ثارت ضد ما أحدث من أحداث . .

٣ - أو أن يبعثوا إلى أنصارهم ليقدموا إليهم ، فيزحفون لاحتلال المدينة ، وتنفيذ مايريدون . .

ولقد رفض عثمان مطالب الثوار . . ونهى أنصاره عن مقاتلتهم . . فلقد كان مؤمنا بأنه قد اجتهد فيما ينقمونه عليه ، ولم يقصد إلى جرم يستحق عليه القصاص . . ومنعته تقواه من أن يحمل أمام الله وزر التقاء المسلمين بسيوفهم للقتال والاقتتال ، حتى ولو كان ذلك في سبيل الدفاع عنه ، كخليفة للمسلمين ، وواحد من أصفياء الرسول ، ﷺ . .

فكان أن زحف الثوار على المدينة ، فاقتحموها ، واحتلوها . . وحاصروا عثمان في منزله أربعين يوما ، منعوا عنه فيها الزاد والماء!! . . ثم تسوروا عليه الدار فقتلوه ، شهيدا ، وهو يتلو كتاب الله ! . .

وبذلك انفتح على المسلمين باب الفتنة منذ ذلك التاريخ [1] !

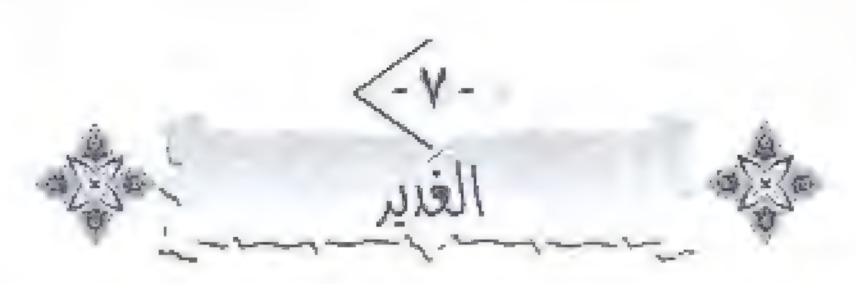


---

(١) مراجع :

[الإسلام والثورة] للدكتور محمد عمارة - طبعة القاهرة سنة ١٩٨٨ م .

[الإسلام وفلسفة الحكم] للدكتور محمد عمارة - طبعة القاهرة سنة ١٩٨٩ م .



- ٧ -
الغدير

الغَدير : هو القطعة - الجزء - من الماء التى يغادرها السيل . . وهو : مستنقع الماء - ماء المطر - صغيرا كان أو كبيرا . . غير أنه لايبقى إلى القيظ وشدة الحر ، وإنما يجف . وجمع الغَدير : غُدُر - بضم الغين والدال - . .

وخُمّ - بضم الخاء - فى الأصل بئر حفرها مرة بن كعب . . وغديرخُمّ : مكانه على الطريق بين مكة والمدينة ، على بعد ثلاثة أميال من ميقات الإحرام «الجحفة» . . وعنده مسجد لرسول الله ، ﷺ . .

والسبب فى شهرة هذا المكان - فى الدراسات الكلامية الإسلامية - حتى لقد غدا عنوانا لكتاب بلغت مجلداته ستة عشر مجلدا؟ ! - هو ارتباطه - فى فكر الشيعة عن نظرية الإمامة - بواقعة يؤولونها كى تكون دليلا شاهدا على مذهبهم فى أن الإمامة هى بالنص من السماء والتعيين الإلهى ، وليست بالشورى والاختيار والبيعة . . وأنها قد نُصَّ عليها وتَعيَّنت ، بعد الرسول ، ﷺ ، للإمام على بن أبى طالب . . وأن الرسول قد أبلغ الناس ذلك ، وهو عائد من حجة الوداع سنة ١٠ هـ عندما خطبهم بما يفيد ذلك عند «غدير خم» ! . .

فمنذ بدأ التأليف فى نظرية الإمامة أصبح حديث غدير خم

عنوانا على واقعة من أشهر وقائع الخلاف بين الشيعة والسنة فى هذا الموضوع . .

ورواة حديث الغدير يقولون إن رسول الله ، ﷺ ، أثناء عودته من مكة إلى المدينة ، بعد حجة الوداع ، توقف عند غدير خم ، فأمر بشجرات فكُسِحَ له عنها ، وجمع الناس ، وقام فيهم خطيبا ، ثم أخذ بيد على بن أبى طالب فرفعها إلى السماء ، وقال : «من كنت مولاه فعلى مولاه» . .

وإذا كانت تلك هى الرواية الشائعة فى عدد من مصادر كتب الحديث . . فإن الروايات التى انفردت بها الشيعة تضيف إلى هذا النص عبارات أخرى ، فنجده على هذا النحو : «ألست أولى بكم من أنفسكم؟ قالوا : بلى . قال : من كنت مولاه فعلى مولاه ، اللهم وال من والاه وعاد من عاداه» . .

ولقد جعلت الشيعة هذا الحديث عمدة أدلتها ، من السنة ، على «النص على أمير المؤمنين على بن أبى طالب بالإمامة . .»

وقالوا إن هذا الحديث لرسول الله ، ﷺ ، هو التنفيذ لقول الله ، سبحانه وتعالى ، له فى القرآن : ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ﴾ [المائدة : ٦٧]

فالذى أُنزل هو النص على إمامة على . . وبلاغه - فى غدير خم - هو إبلاغ الرسالة ! !

كما يربطون بين حديث الغدير هذا وبين آية قرآنية أخرى ، هى ﴿ فإذا فرغت فانصب (٧) وإلى ربك فارغب ﴾ [الشرح : ٧] ويفسرونهما بقولهم : « . . أى إذا فرغت فانصب علمك وأعلن وصيك ، فأعلمهم فضله علانية ! . . »

وحجة الشيعة على أن حديث الغدير إنما يعنى «الإمامة» ، هو تفسيرهم للفظ «مولى» على النحو الذى يجعله مفيدا لمعنى الإمامة والسلطة وتدبير شئون المسلمين وأمورهم . . فيقولون : إن لفظة «أولى» - فى مقدمة الحديث - «تفيد معنى الإمامة . . لأن الأولى هو من يملك تدبير ماوصف بأنه أولى به وبتصريفه . . والأولى بتدبير الخلق وأمرهم ونهيهم هو الإمام ، المفترضة طاعته عليهم . . »

تلك هى حجة الشيعة فى دلالة حديث الغدير على النص والتعيين فى إمامة على بن أبى طالب . . أما رد أهل السنة - بدءا من المعتزلة الذين نهضوا بالرد على نظرية الإمامة الشيعية قبل الفرق الأخرى - فإنه لم يجادل كثيرا فى صحة الحديث - فهو قد ورد فى بعض مسانيد السنة الحديثية - وإنما دار الجدل حول تفسير الشيعة لمعنى الحديث . . وفى هذا المقام قدموا على تفسير الشيعة هذا عددا من الملاحظات الانتقادية . . منها :

١ - إن لفظ «الولى» - بإجماع اللغويين . . هو من الألفاظ المشتركة المعنى . . فالموالاة مشاركة ومفاعلة ، فإذا كان الإمام أولى بتدبير الرعية ، فهل الرعية أولى بتدبير الإمام . . وإذا كان تدبيره

لها يفرض طاعتها له ، فهل طاعته لها فرض عليه؟؟ . . خصوصا ومذهب الشيعة يجعل الإمام معصوما لا سلطان للأمة عليه . . بل إن له فى رأيهم سلطة تكوينية حتى على ذرات الكون ؟؟ ! . .

٢ - إن لفظ « مولى » قد ورد فى القرآن الكريم كثيرا بمعنى «الموالاة فى الدين والنصرة فيه» - وهذا هو المعنى الذى تتم فيه المفاعلة والمشاركة- . . ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا ﴾[محمد : ١١]
﴿ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [التحريم : ٤]
﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ﴾ [التوبة : ٧١]

فالمراد الموالاة ، بمعنى النصرة فى الدين . .

٣ - إن حديث الغدير لو كان معناه تعيين على بن أبى طالب إماما ، لكان إماما فى حياة الرسول ، ﷺ ، والشيعة لا يجيزون إمامين فى عصر واحد . . ولم يقولوا بعزل الرسول عن الإمامة منذ يوم الغدير ! . . وليس لهم أن يقولوا : إن الحديث أثبت له «الاستحقاق» فى الحال ، ولكن «التصرف» مؤجل إلى مابعد وفاة الرسول - ولقد قال بعضهم بذلك - لأنهم يروون أن عمر بن الخطاب قد قال لعلى بن أبى طالب - بعد سماع حديث الغدير - «أصبحت مولاى ومولى كل مؤمن ومؤمنة !» . .

فالقول بأن معنى «المولى» هو «الإمام» يوقع قائليه فى مأزق لا فكاك منه ! . .

٤ - إن روايات الشيعة للحديث اختلفت فى نصه ، بالزيادة

والنقصان ، حتى لتقطع مقارنتها بمواكبتها لحجج المجادلين للشيعة فى تفسير هذا الحديث . . الأمر الذى يزكى شبهة الوضع فيه ! . .

٥ - أنهم يقولون إن جابر بن النضر بن الحارث بن كلدة العبدرى . . بعد سماعه للحديث . . ولى ، معترضا ، وقال : اللهم إن كان مايقول محمد حقا فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم . . فرماه الله بحجر سقط على هامته وخرج من دبره فقتله ، وأنزل الله تعالى : ﴿ سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ (١) لِّلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ (٢) مِّنَ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ (٣) ﴾ [المعارج : ١ - ٣]

يقول الشيعة ذلك . . مع أن هذه الآيات مكية ، فى سورة مكية ، نزلت قبل الهجرة ، ولم تنزل بعد حادث وحديث غدير خم أواخر سنة ١٠ هـ ؟ ! . .

ولقد سبق ووقعوا فى مأزق مشابه عندما ربطوا بين حديث الغدير وبين آية مكية هى ﴿ فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ (٧) وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَبْ ﴾ !! . .

٦ - ثم إن الإمام على بن أبى طالب يستخدم مصطلح «الولاية» بمعنى «النصرة» ، المقابلة «للعداوة» ، وليس بمعنى «الإمامة» و «الخلافة» و «السلطان» . . وذلك فى نصوص خطبه وحواراته التى جمعها الشيعة فى كتاب [نهج البلاغة] . . الأمر الذى يقطع بأن الموالاة هى النصرة فى الدين ، وليست الخلافة والإمامة لأمة الإسلام . .

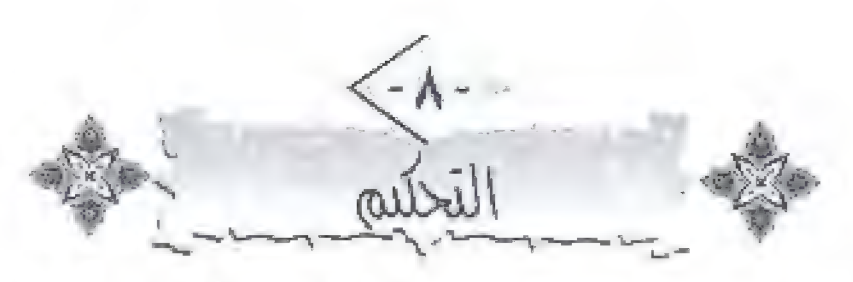
وإذا كان القرآن الكريم يتحدث عن أن [الله ولى الذين آمنوا] . . ويطلب من المؤمنين أن يكونوا [أولياء الله] لا [أولياء الشيطان] . . فإن النصرة هى معنى هذا المصطلح . . ومن ثم فلا حجة للشيعة فى حديث الغدير، الذى جعلوه قاعدة لنظريتهم فى أن الإمامة إنما هى بالنص والتعيين، لا بالشورى والبيعة والاختيار[1] !



(1) مراجع:

- [الغدير فى الكتاب والسنة والأدب] لعبد الحسين أحمد الأمينى النجفى - طبعة بيروت سنة ١٩٦٧ م .

- [الإسلام وفلسفة الحكم] للدكتور / محمد عمارة - طبعة القاهرة سنة ١٩٨٩ م .



- ٨ -
التحكيم

التحكيم : - مُفاعَلة - من الحُكْم . . والمُحكَّم : هو الشيخ المجرب ، المنسوب ، إلى الحِكْمَة ، التى هى : العدل .

والتحكيم : إحدى وسائل الفصل فى المنازعات . وهو يرتكز على رضا أطراف النزاع وقبولهم الخضوع والالتزام بما يصدر فى موضوع التحكيم من حُكم ...

وإلى التحكيم نسبت أولى الفرق فى تاريخ الإسلام . . وهى الخوارج - التى سميت ، أول أمرها ، بـ «المُحَكِّمة» . . لرفضهم تحكيم البشر فيما حكم فيه القرآن . . وإعلانهم شعار : «لا حُكْم إلا لله!» . .

وإلى هذا التحكيم - الذى رفضوا نتائجه - يشير شاعرهم فيقول :

فكأنى وما أُزين منها   قَعَدِىّ يُزَيّن التحكيما !

- والقَعَدِىّ : هو القاعد عن الخروج - الثورة - ! . .

وعندما يذكر مصطلح «التحكيم» ، فى الفكر السياسى الإسلامى ، ينصرف المعنى إلى الأحداث التى انتهت . . والتى أعقبت ذلك التحكيم الذى كان بين المسلمين - أهل العراق . . بقيادة أمير المؤمنين على بن أبى طالب [٢٣ ق . هـ - ٤٠ هـ -

٦٠٠ - ٦٦١م] - وأهل الشام . . بقيادة واليها معاوية بن أبى سفيان [٢٠ ق . هـ - ٦٠ هـ ٦٠٣ - ٦٨٠ م] . . والذى دارت أحداثه سنة ٣٧ هـ سنة ٦٥٧ م . .

فبعد مقتل عثمان بن عفان [٤٧ ق . هـ - ٣٥ هـ ٥٧٧ - ٦٥٦م] أراد معاوية أن يتخذ لنفسه سبيلا إلى إمارة المؤمنين ، من باب أنه ولى دم الخليفة المقتول ظلما . . ولما كان قتلة عثمان قد انخرطوا فى جيش أمير المؤمنين على بن أبى طالب . . فللقد رفض معاوية البيعة لعلى . . ودارت بينهما معارك تصاعدت عندما التقى جيشاهما فى صِفِّين - ما بين أعالى العراق وبلاد الشام - حيث بدأت بينهما معركة من أطول وأشرس المعارك التى شهدها تاريخ الإسلام والمسلمين ؟ ! . .

بدأت معركة صِفِّين فى ٥ شوال سنة ٣٦ هـ - ٢٧ مارس سنة ٦٥٧ م - . . ودام القتال فيها على امتداد مائة يوم وعشرة أيام!! . . التحم الجيشان أثناءها فى تسعين موقعة؟! . . قتل فيها من أهل الشام خمسة وأربعون ألفا . . ومن أهل العراق خمسة وعشرون ألفا؟ ! . . أى سبعون ألفا من الصحابة والتابعين ؟؟ ! . .

فلما استشعر الناس ، من الفريقين ، خطر الفناء . . واستشعر معاوية وأهل الشام مخاطر الهزيمة . . رفع أصحاب معاوية - بقيادة عمرو بن العاص - المصاحف على أسنة رماحهم ، داعين إلى حقن الدماء ، وتحكيم القرآن ، لا السيوف ، فيما بين الفريقين من خلاف! . .

وكان الإمام على سيئ الظن بما وراء دعوة أهل الشام إلى

التحكيم .. فلقد كان موقنا بأنه على الحق .. وأن معاوية وحزبه هم الفئة الباغية ﴿وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا إن الله يحب المقسطين﴾ [الحجرات : ٩]

ومعاوية قد رفض الصلح والكف عن البغى .. أى رفض أن يدخل فى البيعة لعلى ، كما دخل الناس ..

لكن مخاطر الفناء ، الذى هدد الفريقين ، قد جعل أشراف جيش على ، وفى مقدمتهم «القراء» - الذين كانوا يومئذ بمثابة الفقهاء - يميلون إلى قبول تحكيم القرآن ، لا السيوف ، فى الخلاف . فاضطر الإمام على إلى القبول بمبدأ التحكيم ..

وكتب الفريقان بذلك كتابا ، فى يوم الأربعاء ١٧ صفر سنة ٣٧ هـ - ٤ أغسطس سنة ٦٥٧ م - .. واتفقوا ، فى هذا الكتاب ، على أن يكون الممثل لأهل العراق هو أبو موسى الأشعرى [٢١ ق . هـ ٤٤ هـ ٦٠٢ - ٦٦٥م] - وكان قد اعتزل الفتنة - ولم يكن على راضيا عن جعله الممثل لفريقه فى التحكيم .. لنقص فى دهائه! - وكان يريد بدلا منه عبدالله بن عباس [٣ ق . هـ - ٦٨ هـ ٦١٩ - ٦٨٧ م] .. لكن أشراف قومه اضطروه إلى القبول بأبى موسى مندوبا عنهم فى التحكيم ! ..

أما مندوب أهل الشام فكان عمرو بن العاص [٥٠ ق . هـ - ٤٣ هـ ٥٧٤ - ٦٦٤م] - وهو أحد المشهورين بالسياسة والدهاء ! ..

واتفق الفريقان ، في كتاب التحكيم ، المنظم لقواعده ، على إعطاء الحكمين مهلة ثمانية أشهر ، أي إلى نهاية رمضان ، ويمكن تمديدها إلى نهاية موسم الحج - شهر ذي الحجة- فإن لم ينتهيا إلى حكم في هذه المدة عاد الفريقان إلى القتال ! . .

واجتمع الحكمان في دومة الجندل - حصن بين دمشق والمدينة- . . وانتهت مداولاتهما إلى اتفاقهما - كما يقول أغلب المؤرخين - على أن يخلع كل منهما صاحبه ، ليعود أمر الخلافة شورى بين المسلمين . . فلما كانت لحظة إعلان الحكم قدم عمرو ابن العاص أبا موسى - بحجة سنه وفضله - فأعلن خلع علي . . وتلاه عمرو فأعلن تصديقه على خلع عليّ ، ولكنه أردف إعلان تثبيت معاوية في إمارة المؤمنين؟ ! . .

ولقد اضطرب أمر الناس . .

● فندم على التحكيم من سبق ودعا إليه ، وخاصة «القراء» . . الذين تابوا من ذنبهم ، ورفضوا نتيجته . . وأعلنوا أن تحكيم الرجال فيما حكم فيه القرآن كبيرة يؤدي الإصرار عليها إلى الكفر ، وصاحوا : «لا حكم إلا لله !» . . ولما لم يستجب علي لمذهبهم ، حكموا بكفره؟ ! . . واجتمعوا على رجل منهم هو عبدالله بن وهب الراسبي [٣٨ هـ ٦٥٨ م] فاختاروه أميراً للمؤمنين ! . .

فكان الانشقاق في حزب علي . . وقيام فرقة «المُحَكِّمة» - الخوارج - أول الثمرات المرة للتحكيم ، على جبهة أهل العراق . . وزاد هذه الثمرة مرارة ، بدء القتال بين أنصار علي وبين الخوارج ، بعد أن كان القتال قائما بينهم وبين أهل الشام ! . .

● ولم يقف الخطأ فى قرار التحكيم عند حد التسوية – فى اقتراح العزل – بين الخليفة الذى بايعه أغلب الناس، وبين الوالى المتمرد على الخليفة الشرعى، والذى عزله الخليفة – لم يقف الخطأ عند هذا الحد.. بل لقد أعلن عزل الخليفة الشرعى.. وأُعلن تثبيت الوالى المعزول أميرًا للمؤمنين !!..

وبصرف النظر عن الحق والباطل فى مبدأ التحكيم.. ومداولاته.. وما أعلنه الحكمان.. فإن الأمر الذى تحقق هو انشقاق أنصار على، واشتعال الحرب الداخلية فى صفوفهم.. على حين عاد معاوية وجيشه إلى الشام أكثر وحدة، بل لقد لحق به كثيرون ممن غيرت موازين القوى ولاءاتهم !.. ودخل أهل الشام فسلموا على معاوية بإمارة المؤمنين ؟!..

● كذلك أثمرت أحداث هذا التحكيم «شبهة الشرعية» لخلافة معاوية على الأمة.. وهى الشبهة التى غدت واقعًا أقره الناس، أو استسلموا له، عندما استشهد الإمام على فى ١٥ رمضان سنة ٤٠ هـ – ٢٢ يناير سنة ٦٦١ م –.. ثم اكتسبت «كامل الشرعية» بعد ستة أشهر، عندما تنازل الحسن بن على [٣ – ٥٠ هـ ٦٢٤ – ٦٧٠م] عن إمارة المؤمنين لمعاوية بن أبى سفيان[1] !..

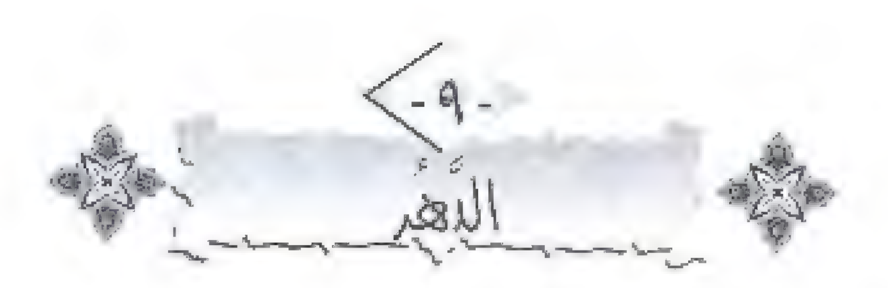
---

(١) مراجع:

[تاريخ الطبرى] جـ ٤، جـ ٥ – بتحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم – طبعة دار المعارف – القاهرة.

– [وقعة صفين] لنصر بن مزاحم المنقرى – بتحقيق: الأستاذ عبد السلام هارون – طبعة القاهرة سنة ١٣٨٢ هـ.

– [الإسلام وفلسفة الحكم] للدكتور محمد عمارة – طبعة القاهرة سنة ١٩٨٩ م.



- ٩ -
الدهر

مصطلح «الدهر» - فى أصل وضعه ، وعند اللغويين يعنى : الآن الدائم ، والأمد الممدود ، والزمان الطويل . . . ولأن من معانيه : الزمان الطويل قال بعضهم : إن بينه وبين مصطلح «الزمان» اشتراكا ، فهما واحد فى معنى دون معنى ، فالمدة المديدة يقال لها : «دهر» و «زمان» ، على حين أن الآن الدائم هو «دهر» فقط ، أما المدة غير الطويلة فهى «زمان» فقط . . والذين قالوا بهذا الاشتراك منهم من يرى فى الألف سنة «دهرا» ، بينما «الزمان» يطلق على الشهرين إلى ستة أشهر .

ومن اللغويين من قال إن «الدهر» هو «الزمان» ، واستشهد بقول الشاعر :

إنَّ دهرًا يلفُّ حَبْلى بِجُمْلٍ   لزمانٌ يهمُّ بالإحسان

وعند هؤلاء أن حديث الرسول ، ﷺ : «ألا إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض ، السنة اثنا عشر شهرا ، أربعة منها حرم ، ثلاثة منها متواليات : ذو القعدة ، وذو الحجة ، والمحرم ، ورجب الفرد . .» شاهد على أن الزمان والدهر سواء .

و «الدهر» ، أيضا ، يعنى : النازلة والكارثة الشديدة . . ولقد تحدث النبى ، ﷺ ، عن عام الحزن الذى ألم به ، عندما ماتت

زوجه خديجة وعمه أبو طالب ، فقال : «لولا أن قريشا تقول : دَهَرَهُ الجزع لفعلت . . » . . ومن ذلك قولهم : دَهَرَ فلانا أمرٌ ، إذا أصابه المكروه الشديد .

ويستخدم «الدهر» بمعنى : الهم ، أى الغاية ، وبمعنى : العادة . . كما فى قول الشاعر :

لعمرى وما دهرى بتأبين هالك ولا جزعا مما أصاب فأوجعا

وبهذه المعانى استخدم المصطلح فى القرآن الكريم ، وفى الحديث النبوى . . ففى القرآن حديث عن «الدهرية» الذين قالوا ﴿ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر﴾ [الجاثية : ٢٤] وفيه ﴿هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورا (١)﴾ [الإنسان : ١] . . وفى الحديث النبوى يتحدث الرسول ، ﷺ عن الزوجات اللاتى يكفرن العشير والإحسان ، فيقول : «لو أحسنت إلى إحداهن الدهر ، ثم رأت منك شيئا قالت : ما رأيت منك خيرا قط!»[1] . . . وفى حديث آخر يتحدث عن سبق حواء بنات جنسها إلى الخطيئة فيقول : «لولا حواء لم تخن أنثى زوجها الدهر!»[2] . . . ثم يأتى فى الحديث الذى يرويه عبدالله بن عمرو بن العاص «الدهر» بمعنى «الأبد» . . يقول الراوى : «كنت أصوم الدهر . . فقال لى الرسول : ألم أُخْبَر أنك تصوم الدهر؟! . . صم صوم داود نبى الله . . . كان يصوم يوما ويفطر يوما . . . لاصام من صام الأبد[3] ! . . » .

.. وفى حديث أبى ذر الغفارى أن النبى قال : «من صام ثلاثة أيام من كل شهر فقد صام الدهر كله[٤]» .

* * *

وعند المتكلمين المسلمين نجد التمييز بين «الدهر» وبين «الزمان» ، فعلى حين يقع « الزمان» على المدة القليلة والكثيرة ، نجد «الدهر» دالا على «مدة العالم من مبدأ وجوده إلى انقضائه ، ومدة الحياة» ..

وواضح من هذا التعريف ، الذى أورده أبو البقاء [١٠٩٥ هـ ١٦٨٤م] فى [الكليات] ، أن «الدهر» لا يشمل مابعد انقضاء هذا العالم ، وما بعد مدة الحياة .. لكن تعريف الجرجانى [٧٤٠ - ٨١٦ هـ ١٣٤٠ - ١٤١٣م] له ينبئ بشموله ذلك ، فهو : «الآن الدائم» ، أى ليس «الممدود» فقط ، وإنما «الدائم» ، وكما أن «الدائم» هو اسم من أسماء الذات الإلهية ، فإن الجرجانى يمضى فى التعريف موضحا فيقول : «الآن الدائم ، الذى هو امتداد الحضرة الإلهية! ، وهو : باطن الزمان ، وبه يتحد الأزل والأبد!» .

فهو ، إذن ، «دائم» و «خالد» ، وهو ليس «الزمان» ولا «الوقت» : المتجدد ، المعلوم ، المحدود بين فعلين وحركتين ، وإنما هو «باطن الزمان» ، وماضيه البعيد هو الأزل ، ومستقبله البعيد هو : الأبد !

وإذا شئنا شاهدا من اللغة على هذا المعنى الذى حدده الجرجانى وجدناه عند الشاعر جرير .. فعندما قال له الفرزدق :

فإنى أنا الموت الذى نازل بنفسك فانظر كيف أنت تحاوله

أجابه جرير :

أنا الدهر ، يفنى الموت والدهر خالد   فجئنى بمثل الدهر شيئا تطاوله!

فجعل «الدهر» شاملا للدنيا والآخرة ! . .

ولعل هذا المعنى ، الذى يجعل من «الدهر» «امتداد الحضرة الإلهية» هو الذى جعل الرسول ، ﷺ ، ينهى عن سب «الدهر» ؛ لأن الدهر هو «الله» ! . . ففى حديث أبى هريرة يقول الرسول فيما يرويه عن ربه : «يؤذينى ابن آدم ، يسب الدهر ، وأنا الدهر ، بيدى الأمر ، أقلب الليل والنهار[5]» . . وعن أبى هريرة ، أيضا ، يقول الرسول : «لا تقولوا خيبة الدهر ، فإن الله هو الدهر ![6]» .

والبعض يعلل النهى عن سب الدهر ، بأن الناس كانوا يضيفون النوازل إلى الدهر ، ولذلك سبوه ، فأراد الرسول ، ﷺ ، أن يعلمهم أن الفاعل لهذه النوازل هو الله ، فمن سب الدهر ، على أنه الفاعل لها ، فكأنما قد سب الله! . . لكن . . يبقى هذا التفسير مقبولا ، فقط ، على مذهب الجبرية . . ومن ثم تبقى هذه الأحاديث ذات معنى أعمق فى ضوء تعريف الجرجانى للدهر بأنه : «الآن الدائم الذى هو امتداد الحضرة الإلهية» . .

ويزكى هذا المعنى ويدعمه أن الاتفاق قائم على أن «الحق» هو الله ، وهو من أسمائه .. ثم إننا واجدون حديثا نبويا يسمى «الدهر» «بالحق» . . ففى حديث بدء الوحى بغار حراء ، يتحدث الرسول إلى زوجه خديجة عن مخاوفه من أن يكون به جنون ، وعن إشفاقه على نفسه أن يصيبها بلاء ؛ فتطمئنه قائلة : «أبشر ، فوالله لايخزيك الله أبدا ، إنك لتصدق الحديث ، وتصل الرحم ،

وتحمل الكَلّ ، وتقرى الضيف ، وتعين على نوائب الحق . . .[3]» أى : «وتعين على نوائب الدهر» . . «فالدهر» «الدائم» هو «الحق» هو «امتداد الحضرة الإلهية» ، كما يقول الجرجانى فى [التعريفات] ! . .

* * *

أما عندما يكون «الدهر» هو «الزمان» الطويل والأمد الممدود ، فإنه - وهو الذى لا وجود له فى الخارج - يكون عبارة عن «مقارنة حادث لحادث» ، وحتى هذه المقارنة هى أصل اعتبارى عدمى ، فتحديده موقوف على الحوادث والحركات . . وتحديد المتكلمين المسلمين للزمان - [الدهر] - بمقارنة الحوادث والحركات ، متفق مع قول الحكماء القدماء بأنه مقدار حركة الفلك . . وإذا كان «الزمان» موهوما ، لا وجود له فى الخارج ، فإنه يتحدد بمقارنة الحركة ، التى هى موجود معلوم متجدد ، وهذا المعنى هو الذى يقول فيه الجرجانى إن الزمان - عند المتكلمين - هو «عبارة عن متجدد معلوم يقدر به متجدد موهوم ، كما يقال : آتيك عند طلوع الشمس ، فإن طلوع الشمس معلوم ، ومجيئه موهوم ، فإذا قرن ذلك الموهوم بذلك المعلوم زال الإبهام . .» . . فطلوع الشمس - كحدث وحركة - معلوم ، له وجود خارجى . . أما زمان المجىء فموهوم ، لا وجود له فى الخارج ، لكن الاقتران هو السبيل للتحديد وزوال الإبهام . . وهذا هو المعنى الذى ذهب إليه الإمام المعتزلى أبو الهذيل العلاف [١٣٥ - ٢٣٥ هـ ٧٥٣ - ٨٥٠ م] والذى يرويه عنه الأشعرى [٢٦٠ - ٣٢٤ هـ ٨٧٤ - ٩٣٦ م] فى [مقالات الإسلاميين] ، فلقد عرف الوقت بأنه «هو الفرق بين الأعمال ، وهو مدى ما بين عمل إلى عمل ، وهو يحدث مع كل وقت فعل[8]» . . وهو نفس المعنى الذى

اختاره التفتازانى [٧١٢ - ٧٩٣ هـ ١٣١٢ - ١٣٩٠م] عندما قال عن الزمان إنه «عبارة عن متجدد يقدر به متجدد آخر[9] . .»

* * *

والنسبة إلى «الدهر» : دهرى ، للفرد المذكر ، «دهرية» للمرأة ، أو للجماعة والتيار الفكرى . . فيقال : رجل دهرى ، إذا كان مسنا طاعنا فى العمر . . وفى حديث عمرو بن سلمة :« . . . . تقول عجوز لنا دهرية . . . .[10]» . . . والرجل الدهرى هو : الملحد ، الذى لا يؤمن بالآخرة ، لقوله ببقاء الدهر وجحده وجود الصانع المدبر العالم القادر ، وقوله بأن العالم لم يزل موجودا كذلك بنفسه ، لا بصانع مدبر ، وكذلك الحيوان قد جاء من نطفة ، والنطفة من حيوان . كذلك كان وكذلك يكون أبدا ؛ وليس هناك شىء خارج الطبيعة ؛ فهى مستكفية بنفسها ، مستغنية عن خالق يوجدها ، والحياة الخلقية ما هى إلا الامتداد للحياة البيولوجية! . وباختصار ، [قالوا : ماهى إلا حياتنا الدنيا ، نموت ونحيا ، وما يهلكنا إلا الدهر][11]! .

---

(١) الهوامش:

(١) رواه البخارى ومسلم والنسائى والإمام مالك فى الموطأ .

(٢) رواه البخارى ومسلم .

(٣) رواه البخارى ومسلم وأبو داود والترمذى والنسائى وابن ماجة والدارمى والإمام أحمد

(٤) رواه البخارى ومسلم والترمذى والنسائى وابن ماجة والإمام أحمد

(٥) رواه البخارى ومسلم وأبو داود والإمام أحمد .

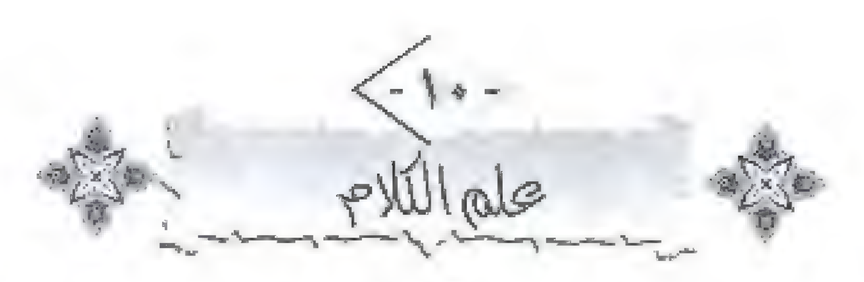
(٦) رواه البخارى ومسلم والإمام مالك فى الموطأ والإمام أحمد .

(٧) رواه البخارى ومسلم والإمام أحمد .

(٨) [مقالات الإسلاميين] جـ ٢ ص ١٣٠ طبعة القاهرة سنة ١٩٦٩ م .

(٩) [شرح العقائد النسفية] ص ٢٤٦ طبعة القاهرة سنة ١٣٣٢ هـ .

(١٠) رواه الإمام أحمد .



علم الكلام : هو العلم الذى يُقْتَدَرُ معه على إثبات الحقائق الدينية ، بإيراد الحجج عليها ، ودفع الشبه عنها .

ومن أسمائه الأخرى : علم التوحيد والصفات . . وعلم أصول الدين . . وعلم النظر والاستدلال . . والفقه الأكبر - وهى تسمية الإمام أبى حنيفة النعمان [٨٠ - ١٥٠ هـ ٦٩٩ - ٧٦٧ م] له - . .

وعلم الكلام ، فى تصنيف العلوم الإسلامية ، هو أشرف العلوم ، لشرف موضوعه على موضوعات العلوم الأخرى . . فموضوعه : ذات الله ، سبحانه وتعالى ، وصفاته - التى يجب إثباتها له . . والتى يجب نفيها عنه - . . والنبوات والرسالات : المعجزات المثبتة لها ، والصفات اللائقة بأهلها . . مايجب أن يكونوا عليه ، وما يجوز أن ينسب إليهم ، وما يمتنع أن يلحق بهم . . وأفعال الله ، سبحانه وتعالى . . وأفعال العباد . . وأحوال المعاد ، من البعث والحساب والجزاء . .

وفى هذا العلم تتمثل فلسفة الإسلام . . لأنه هو الذى يتم به إثبات الحقائق الدينية بالحجج العقلية ، فهو قائم على الدليل العقلى ، فى أصوله وقضاياه الكبرى . . وبه يرتقى الإنسان من حضيض التقليد إلى ذروة اليقين العقلى فى أصول الدين . . إنه فلسفة المسلم ، التى تحدد نظرته للكون ، والحياة ، ومعنى الحياة؟ ! . .

وهو بمثابة «منطق» العقيدة الإسلامية ، لأن فيه سبل الاستدلال على أصولها ، كما أن فى «المنطق» مسالك الحجة فى علوم أهل النظر . .

أما سبب تسميته بعلم أصول الدين ، فلأن موضوعاته هى الأساس الذى تبنى عليه سائر علوم الإسلام . . فإذا ثبت بالحجة العقلية وجود إله واحد صانع قادر عالم ، مرسل للرسل ، منزل للكتب ، كان هناك مجال لبناء ووجود علوم للتفسير ، والحديث وأصوله ، والفقه وأصوله ، الخ . . الخ . . فجميع العلوم الإسلامية متوقفة على هذا العلم . . علم أصول الدين . .

ولقد سمى علم التوحيد ، لما للتوحيد من مركزية فى عقائد الإسلام . . وسمى بالفقه الأكبر ، لمقابلته لفقه الفروع ، الذى هو علم الشرعيات - أو الشرائع - أى علم الأحكام الفرعية - أى العملية- . . بينما الفقه الأكبر هو علم الأحكام الأصلية ، أى الاعتقادية . .

أما تسميته بعلم النظر والاستدلال ، فلأن أدوات إثباته للحقائق الدينية هى النظر والاستدلال بالعقل أو بالعقل والشرع معا . .

وهناك خلاف فى سبب تسميته بـ «علم الكلام» . . هل بسبب الجدل الذى دار حول «كلام الله» ، سبحانه وتعالى - وهو من مباحثه - أقديم هو ؟ أم مخلوق ؟؟ . . أم لأن مبنى هذا العلم قائم على الدليل العقلى ، وأثره يظهر من كل «متكلم فى كلامه»؟؟ . . أم لشبيهه بالمنطق - فى الفكر اليونانى - كأداة لتنبيه مسالك

الحجة - ثم عدل عن مصطلح «المنطق» إلى مصطلح «الكلام» للتمييز بينهما؟؟ . . أم لأنه يورث المشتغل به القدرة على «الكلام» في الشرعيات؟؟ . . أم لأن أبوابه قد عنونت بـ : « الكلام في كذا . . . الكلام في كذا . . . »؟؟ . . .

لقد اختلف العلماء هذا الاختلاف في سبب اشتهار هذا العلم بـ «علم الكلام» ! . . ونحن إذا نظرنا في النشأة المتدرجة لمباحث هذا العلم ، نجد أن أولى مسائله ، التي أحدث العلماء «الكلام» فيها ، كانت مسألة «صفة القدر» ، ومباحث العدل الإلهي . وأفعال الله وأفعال العباد ، والحرية . . والجبر . . والتخيير . . والتسيير . . فبعد التحولات التي طرأت على الحياة السياسية والدستورية الإسلامية ، بسبب الانقلاب الأموي ، نشأت أفكار الجبر والجبرية وأفكار الإرجاء ، التي ترجع كل ذلك إلى إرادة الله وفعله . . فكانت النشأة الأولى لفكر ومذهب الحرية والاختيار . . وظهر وشاع «الكلام» في «صفة القدر» ! . .

وإن أقدم النصوص التي بقيت لنا من النصف الثاني للقرن الهجري الأول ، حول هذه القضية ، وهو نص الرسائل المتبادلة بين الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان [٢٦ - ٨٦ هـ ٦٤٦ - ٧٠٥م] وبين إمام ذلك العصر ، ورأس علماء علم الكلام الإسلامي ، الحسن البصري [٢١ - ١١٠ هـ ٦٤٢ - ٧٢٨م] ترجح أن بداية «الكلام» إنما كان في «صفة القدر» - قبل «الكلام» في خلق القرآن ، وحدوثه وقدمه بأكثر من قرن! . . وعبارة الحسن البصري - في رسالته الجوابية - على عبد الملك

ابن مروان ، يقول فيها : « .. وإنما أحدثنا الكلام فيه - [صفة القدر] - من حيث أحدث الناس النكرة له! .. » .. وكان عبد الملك بن مروان قد كتب إليه مستنكرا إحداث «الكلام» في هذا الأمر ، قائلا : « .. ولا نعلم أحدا تكلم به ممن أدركنا من الصحابة! .. »

فهل سمى هذا العلم بهذا الاسم - علم الكلام - «لحدوث الكلام» - يومئذ - في أولى مسائله .. «صفة القدر»؟! .. ولأن «المتكلمين» كانوا هم العلماء الذين أحدثوا «الكلام» في هذه المباحث ، التي غدت أبوابا ومباحث لهذا العلم ؟ ! ..

إنه احتمال يضاف إلى ما سبق إيراده من الاحتمالات ! ..

* * *

ولما كان علم الكلام هو علم أصول الدين ، ولما كانت مباحثه هي أمهات العقائد وأركان الاعتقاد ، فلقد جعل الشيعة- على اختلاف فصائلهم - مبحث الإمامة من مباحث علم الكلام .. لأنها - الإمامة- عندهم من أصول الدين وأمهات عقائده .. فلما صنف أهل السنة - منذ النشأة الأولى لتيار «أهل العدل والتوحيد»- في الرد على مذهب الشيعة في الإمامة - جاروهم في شكل «التصنيف» ، فوضعوا مبحث الإمامة في نهاية كتب علم الكلام - الفقه الأكبر - ولا أبواب مباحث فقه الفروع؟ ! .. مع تنبيههم على أن الإمامة والسياسة والدولة والخلافة ليست من العقائد والأصول ، وإنما هي من الفروع .. فمكانها الطبيعي في

«التصنيف» هو فقه الفروع ، وأنهم إنما وضعوها فى نهايات كتب الأصول ، لمجرد مجاراة الشيعة ، الذين سبقوا إلى التصنيف فيها . . وبعبارة الإمام الغزالى [٤٥٠ - ٥٠٥ هـ ١٠٥٨ - ١١١١م] : « . . فإن نظرية الإمامة ليست من المهمات ، وليست من فن المعقولات فيها ، بل من الفقهيات . . والنظريات قسمان : قسم يتعلق بأصول القواعد . . وقسم يتعلق بالفروع . . وأصول الإيمان ثلاثة : الإيمان بالله ، وبرسله ، وباليوم الآخر ، وما عداها فروع . . والخطأ فى أصل الإمامة وتعينها وشروطها وما يتعلق بها - [أى فى جماع الدولة والسياسة]- لايوجب شيء منه التكفير . . ولكن ، إذ جرى الرسم باختتام المعتقدات بها - [الإمامة]- أردنا أن نسلك المنهج المعتاد ، فإن القلوب عن المخالف للمألوف شديدة النفار!»

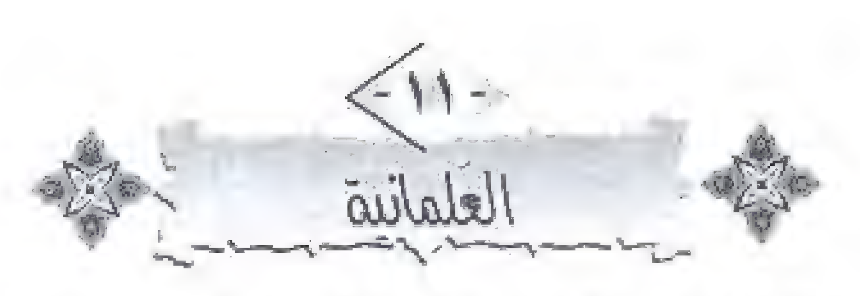
فلما جاء الماوردى [٣٦٤ - ٤٥٠ هـ ٩٧٤ - ١٠٥٨ م] أحدث جديدا فى فن «التصنيف» فأفرد للولايات السلطانية التأليف الخاصة بها . . ووجدنا ابن رشد [٥٢٠ - ٥٩٥هـ ١١٢٦- ١١٩٨م] يسلك ذات السبيل ، فلا يضع الإمامة فى كتابه [مناهج الأدلة فى عقائد الملة] . . بل ولا فى كتابه عن فقه الفروع [بداية المجتهد ونهاية المقتصد] اكتفاء بما أفرد للسياسة خلال شروحه على فلسفة اليونان . .تلك هى ملابسات علاقة المباحث السياسية بمباحث علم الكلام[1] . .

---

(١) مراجع :

[رسائل العدل والتوحيد] تحقيق دكتور محمد عمارة - طبعة القاهرة سنة ١٩٨٧م .

[مفتاح السعادة ومصباح السيادة فى موضوعات العلوم] لطاش كبرى زادى - طبعة القاهرة . دار الكتب الحديثة .



-١١-
العلمانية

مصطلح «العلمانية» ، هو الترجمة التى شاعت ، بمصر والمشرق العربى ، للكلمة الإنجليزية Secul Arism بمعنى الدنيوى ، والواقعى ، والعالمى . . ذلك لأن العلمانية هى نزعة فلسفية وفكرية وسياسة واجتماعية ترى العالم مكتفيا بذاته ، تدبره الأسباب الذاتية المودعة فيه . . فالعالم والواقع والدنيا هى مرجعية التدبير للاجتماع الإنسانى والدولة والحياة ، ومن ثم فإن الاجتماع والحياة والدولة ليست فى حاجة إلى مدبر من خارج هذا العالم ومن وراء هذه الطبيعة . . والإنسان مكتف بذاته ، يدبر شئونه ويبدع قيمه ونظمه بواسطة العقل والتجربة ، وليس فى حاجة إلى شريعة سماوية تحكم هذا التدبير . .

فالعلمانية - لذلك - تُضبط بفتح العين ، لأنها نسبة إلى العالم ، أى الدنيا والواقع الدنيوى ، فهى مصدر غير قياسى ، إذ القياس فيها هو «العالمانية» - نسبة إلى العالم - وهناك فى المغرب العربى من يترجمها «بالدنيوية» .

ولقد نشأت العلمانية - بأوربا - فى سياق النهضة الحديثة ، وكانت من أبرز معالم فلسفة التنوير الوضعى الغربى ، التى جابه بها فلاسفة عصر الأنوار - فى القرنين السابع عشر والثامن عشر - سلطة الكنيسة الكاثوليكية ، بعد أن تجاوزت هذه الكنيسة الحدود

التى رسمتها لها النصرانية ، وهى خلاص الروح ، ومملكة السماء ، وترك ما لقيصر لقيصر ، والاقتصار على ما لله .. لقد تجاوزت الكنيسة حدود رسالتها واختصاصاتها ، فبعد عصور من سيادة نظرية «السيفين» Theory of the Two Swords أى السيف الروحى - أو السلطة الدينية للكنيسة - والسيف الزمنى - أى السلطة المدنية للدولة - جمعت الكنيسة السلطتين معا ، فضمت ما لقيصر إلى ما للكنيسة واللاهوت ، فى ظل نظرية «السيف الواحد» Theory of one Sword .

وتحت حكم «البابوات - الأباطرة» ، أضفت الكنيسة قداسة الدين وثباته على المتغيرات الدنيوية والاجتماعية أفكارا وعلوما ونظما - فرفضت وحرّمت وجرّمت كل ما لا وجود له فى الأناجيل ، وبذلك دخلت أوربا عصورها المظلمة ، الأمر الذى استنفر رد الفعل العلمانى ، الذى حرر الدنيا من كل علاقة لها بالدين .. ففى مواجهة الكهنوت الكنسى الذى قدس الدنيا وثبّتها ، وجعل اللاهوت النصرانى - وهو خال من الفلسفات المنظمة للدولة والاجتماع - المرجع الوحيد للسياسة والعلم والدولة والاجتماع - فى مواجهة هذا الفعل ، جاء رد الفعل العلمانى لينزع كل قداسة عن كل شئون الدنيا ، وليحرر العالم من سلطان الدين ، وليعزل السماء عن الأرض ، جاعلا العالم مكتفيا بذاته ، والإنسان مكتفيا بذاته ، والاجتماع والدولة والنظم والفلسفات محكومة بالعقل والتجربة ، دونما تدخل من الدين .

ولقد ساعدت الملابسات التى نشأت فيها العلمانية ، وكذلك

المواريث الدينية والفلسفية الغربية على هزيمة الكنيسة وتراجع اللاهوت النصرانى أمام النزعة العلمانية . .

فلقد كان التخلف الأوربى شاهدا على فشل الحكم الكنسى الكهنوتى . . وكان موقف النصرانية ، الذى يدع مالقيصر لقيصر ، ويقف بالكنيسة ولاهوتها عند خلاص الروح ومملكة السماء ، سلاحا بيد العلمانية ضد اغتصاب الكنيسة للسلطة الزمنية . . وكانت الفلسفة اليونانية - وخاصة عند أرسطو [٣٨٤ - ٣٢٢ ق م]- والتى رأت الذات الإلهية مجرد خالق ومحرك أول للكون ، ترك تدبيره ورعايته للأسباب المادية المودعة فيه - أى أن العالم مكتف بتدبير ذاته ، لايحتاج إلى مدبر مفارق له - . . كانت هذه الملابسات الواقعية والمواريث الدينية والفلسفية- فى أوربا - عونا لانتصار العلمانية على الكنيسة وسلطانها . .

ولقد تميز ، فى إطار فلاسفة العلمانية الأوربية ، تياران :

تيار مادى ملحد ، طمح إلى تحرير الحياة - كل الحياة - من الإيمان الدينى . . وكانت الماركسية أبرز إفرازات هذا التيار . . أما التيار الثانى ، فهو مؤمن بوجود خالق للكون والإنسان ، لكنه يقف بنطاق عمل هذا الخالق عند مجرد الخلق ، فيحرر الدولة والسياسة والاجتماع من سلطان الدين ، مع بقاء الإيمان الدينى علاقة خاصة وفردية بين الإنسان وبين الله . . ومن فلاسفة هذا التيار هوبز Hobbes [١٥٨٨ - ١٦٧٩م] ولـــوك Loke [١٦٣٢ - ١٧١٦م]

وليبنز Leibniz [١٦٤٦ - ١٧١٦م] وروسو Rousseau[١٧١٢ - ١٧٧٨م] وليسينج Lessing [١٧٢٩ - ١٨٧١م] . .

* * *

ولقد ظلت العلمانية خصوصية غربية حتى القرن التاسع عشر ، عندما جاءت إلى بلادنا الإسلامية فى ركاب النفوذ الأجنبى والاستعمار الغربى الحديث . . وإذا كانت مصر - بحكم الموقع . . والسبق فى التطور . . والاستقلال النسبى عن السلطان العثمانى منذ ولاية محمد على باشا [١١٨٤ - ١٢٦٥ هـ ١٧٧٠ - ١٨٤٩م] عليها سنة ١٨٠٥م - قد مثلت طليعة الأقاليم الشرقية فى التأثر بالفكر الأوربى - ومنه العلمانية - فلقد كان وفود العلمانية إليها نموذجا لتسللها من أوربا إلى بلاد الشرق الإسلامى فى ركاب النفوذ الأجنبى والاستعمار الحديث . .

فبعد تحطيم النظام الحمائى - للصناعة والتجارة - الذى أقامه محمد على باشا فى مصر زاد نفوذ التجار الأجانب ، ونشأت على عهد الخديوى سعيد ، فى سنة ١٢٧٢ هـ - ١٨٥٥ م - أول محكمة تجارية مختلطة - بين المصريين والأجانب - «مجلس تجار» - تسلل إليها القانون الوضعى الفرنسى .

ومع تزايد أعداد الجاليات الأجنبية ونفوذها - وخاصة بعد عقد اتفاقية حفر قناة السويس - نشأت «المحاكم القنصلية» لتقضى فى المنازعات الناشئة بين المصريين وبين الأجانب ، وقضاتها أجانب ، ولغتها أجنبية ، وقانونها وضعى علمانى . .

ولما زادت فوضى «القضاء القنصلى» - الذى توزعته سبع عشرة

محكمة قنصلية - نُظِّمت هذه الفوضى سنة ١٨٧٥ م بإنشاء «المحاكم المختلطة» - وقضاتها أجانب، ولغتها فرنسية، وشريعتها هي قانون نابليون ..

وبعد أن كان هذا الاختراق - في المحاكم القنصلية .. ثم المختلطة - مقصورا على المنازعات التي يكون أحد طرفيها أجنبيا حدث تعميم لبلوى هذا الاختراق العلماني في كل «القضاء الأهلي» - أي فيما عدا المحاكم الشرعية، التي انحصر اختصاصها في شئون الأسرة والأحوال الشخصية - وكان ذلك عقب استعمار الإنجليز لمصر، فيما سمى «بالإصلاح القضائي» سنة ١٨٨٣م .

ولقد استعان الغرب الاستعماري بنفر من أبناء الأقلية المارونية، الذين تربوا في مدارس الإرساليات التنصيرية بلبنان، في الدعوة إلى نموذجه الحضاري العلماني .. فكان فرح أنطون [١٢٩١ - ١٣٤٠ هـ ١٨٧٤ - ١٩٢٢م] أول دعاة العلمانية في بلادنا .. ثم تخلّق للعلمانية تيار فكرى بلغ ذروته في كتاب الشيخ على عبد الرازق [١٣٠٥ - ١٣٨٦ هـ ١٨٨٧ - ١٩٦٦ م] عن [الإسلام وأصول الحكم] - الذي صدر سنة ١٩٢٥ م - مصورا الإسلام - كالنصرانية - دينا لا دولة، ورسالة لا حكما، يدع ما لقيصر لقيصر وما لله لله ..

وفي مواجهة هذا التسلل العلماني إلى بلادنا، كانت مقاومة تيار الإحياء والتجديد الديني لعلمنة القانون والنهضة .. فلقد رأى هذا التيار الإحيائي التجديدي في العلمانية عدوانا على شمولية المنهاج الإسلامي - لأنه دين ودولة، وجامع بين ما لقيصر وما لله ..

ولأن نطاق عمل الذات الإلهية - فى التصور الإسلامى - لا يقف عند مجرد الخلق ، وإنما هو - سبحانه وتعالى - خالق ومدبر للعالم والاجتماع بواسطة الشرائع والرسالات ﴿ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ﴾ [الأعراف: ٥٤] ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لَا شَرِيكَ لَهُ ﴾ [الأنعام: ١٦٢، ١٦٣] .

فكان رفاعة رافع الطهطاوى [١٢١٦ - ١٢٩٠ هـ ١٨٠١ - ١٨٧٣م] أول من انتقد تسلل القانون التجارى لنابليون إلى المجالس التجارية فى الموانى التجارية ، ودعا إلى تقنين فقه المعاملات الإسلامى «الوافى بتنظيم المنافع العمومية ، لأن بحر الشريعة الغراء لم يغادر من أمهات المسائل صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها وأحياها . .»

ونهض القانونى البارز محمد قدرى باشا [١٢٣٧ - ١٣٠٦ هـ ١٨٢١ - ١٨٨٨ م]- وهو من تلامذة الطهطاوى - بتقنين فقه معاملات المذهب الحنفى ، ليقدم البديل الإسلامى فى القانون ، كجزء من الرفض والمقاومة للقانون الوضعى العلمانى . .

ولقد عبر الإمام محمد عبده [١٢٦٥ - ١٣٢٣ هـ ١٨٤٩ - ١٩٠٥ م] - بلسان مدرسة الإحياء والتجديد الإسلامى- عن ضرورة إسلامية النهضة ، لأن الإسلام- على عكس النصرانية - منهاج شامل «فهو كمال للشخص ، وألفة فى البيت ، ونظام للملك . . ولأن سبيل الدين لمريد الإصلاح فى المسلمين سبيل لا مندوحة عنها . .»

ومنذ ذلك التاريخ ، ظل التدافع سجالا - في واقعنا الفكرى والقانوني والسياسي - بين دعاة العلمنة لمشروعنا النهضوى وبين دعاة إسلامية هذا المشروع . .

وعندما أعادت مصر صياغة قانونها المدنى ، الذى وضعه الدكتور عبد الرزاق السنهورى باشا [١٣١٣ - ١٣٩١ هـ ١٨٩٥ - ١٩٧١ م] والذى طبق عقب إلغاء الامتيازات الأجنبية سنة ١٩٤٨ م ، زادت في هذا القانون مرجعية الشريعة الإسلامية عنها في سابقه الذى وضع سنة ١٨٨٣م . .

ولما وضعت مصر دستورها الجديد سنة ١٩٧١ م نصت مادته الثانية على أن مبادئ الشريعة الإسلامية مصدر رئيسى للقوانين ، وفي التعديل ، الذى تم الاستفتاء عليه ، لهذه المادة سنة ١٩٨٠ م غدت الشريعة هي المصدر الرئيسى للقوانين ، فانفتح بذلك الباب الدستورى أمام المشرع المصرى لأسلمة القانون ، ولإجلاء العلمانية عن المواقع التى احتلتها في بلادنا تحت نفوذ وحراب الاستعمار[1] .

---

(١) مراجع :

١ - [الأعمال الكاملة لرفاعة الطهطاوى] دراسة وتحقيق : د . محمد عمارة - طبعة بيروت سنة ١٩٧٣ م

٢ - [الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده] دراسة وتحقيق : د . محمد عمارة - طبعة القاهرة سنة ١٩٩٣ م .

٣ - [تقويم النيل] لأمين سامى باشا . طبعة القاهرة سنة ١٩٣٦ م

٤ - [عصر إسماعيل] لعبد الرحمن الرافعى . طبعة القاهرة سنة ١٩٤٨ م .

٥ - [العلمانية بين الغرب والإسلام] للدكتور محمد عمارة - طبعة القاهرة سنة ١٩٩٦ م



- ١٢ -
التكفير

من الظواهر التى شاعت فى حياتنا الفكرية - فى العقود الأخيرة - ظاهرة الضيق بالرأى المخالف - وحكم غير المختصين فى أعمال فكرية لا علاقة لتخصصهم العلمى بها ، وقياسها بغير المعايير التى يجب أن تقاس بها؟ ! . . والذهاب فى «ضيق الصدر الفكرى» إلى حد الحكم بالكفر على هؤلاء المخالفين؟ ! . .

ويخطئ من يظن أن هذا السلوك الردىء وقف على «الإسلاميين» الذين يكفرون نفرا من «العلمانيين» . . ذلك أن سلاح التكفير هذا قد أصبح مشهرا ضد العديد من فصائل الإسلاميين ، توجهه ضدهم «دول» و «مؤسسات» ، وليس مجرد كتاب أو مفكرين؟! . . الأمر الذى يدعو إلى الاحتكام إلى الإسلام ، طلبا لكلمة سواء ، فى هذا الأمر الخطير . .

وإذا كان إسلامنا قد علمنا أن معرفة الحق هى السبيل إلى معرفة أهله ، وأن الإسلام هو الحاكم على الرجال ، دون أن يكون فى تصرفات « الرجال» - إذا تنكبت طريق الحق - ما يعيب الإسلام . . ومن ثم فإن على مختلف الفرقاء : الذين يدافعون عن الإسلام دفاع «الدبة التى قتلت صاحبها» من فرط حبها - غير الواعى - إياه؟ ! . . وأيضا أولئك الذين يتلقفون صنيع هذه «الدبة» لتشويه الدعوة المقدسة والنبيلة من أجل استكمال أسلمة الواقع والقانون فى مجتمعات المسلمين . . . إن مختلف الفرقاء فى هذه

القضية مدعوون إلى الاحتكام إلى «الحق» ، كما تمثل فى أصول الإسلام - قرآنا وسنة - ، وفى فكر أعلامه ، وفى تطبيقات هذه الأصول ومناهج هؤلاء الأعلام . . ومنهم علماء وأعلام الأزهر الشريف ، على امتداد تاريخه العريق . .

● فالله ، سبحانه وتعالى ، يعلمنا - بقرآنه الكريم - تفرده وحده ، واختصاصه دون سواه بالحكم على العقائد والضمائر والأفئدة والقلوب ، لأنه وحده صاحب العلم المحيط بما فيها ، لم يعط شيئا من ذلك لأحد سواه . . ﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا ضربتم في سبيل الله فتبينوا ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمنا تبتغون عرض الحياة الدنيا فعند الله مغانم كثيرة كذلك كنتم من قبل فمن الله عليكم فتبينوا إن الله كان بما تعملون خبيرا ﴾ [1] .

ولقد وقف أئمة تفسير القرآن الكريم وأعلامه أمام هذا التوجيه القرآنى والفريضة الإلهية ، وقفة ذات دلالة ، فقالوا لنا : إن في هذا التوجيه الإلهي «من الفقه باب عظيم، وهو أن الأحكام تناط بالمظان والظواهر، لا على القطع واطلاع السرائر.. فالله لم يجعل لعباده غير الحكم بالظاهر..» [2] .

فعلى الذين يقلدون الكهانة الكنسية ، باسم الإسلام ، وأيا كانت مواقعهم ، أن يتقوا الله فى الإسلام - الذى لم يحفظوا كتابه ، ولم يفقهوا علومه ، ولم يكتبوا فى فكره كتابا واحدا؟ ! . .

وعلى أعداء الشريعة ، وأنصار «التغريب» ، والمبشرين بالتبعية

للحضارة الغربية ، أن يعلموا أن هذه «الصغائر» ليست من الإسلام في شيء . . ومن ثم فلا حجة فيها على الإسلام؟! . .

● ورسول الإسلام ، ﷺ ، هو الذي نتعلم منه النهج والقدوة في هذا المقام . . لقد جاءه نفر من صحابته يحدثونه عن «الوساوس» التي جعلتهم «يشكون» في جوهر الدين ومحور التدين . . في ذات الله؟! . . . فلم يجزع رسول الله ، ﷺ . . ولم ينهرهم . . ولم يتصيد مواقف الضعف ليوجه الاتهامات . . بل وصف حالهم وقلقهم الفكري ، «وشكهم المنهجي» الباحث عن سبل اليقين بأنه «صريح الإيمان . . ومحض الإيمان» ولبه وجوهره؟ ! . .

ففي الحديث ، الذي يرويه أبو هريرة ، يقول : جاء نفر من الصحابة إلى رسول الله ، ﷺ ، فقالوا : «يارسول الله ، إن أحدنا يحدِّث نفسه بالشيء ما يحب أن يتكلم به وأن له ما على الأرض من شيء . . وإنا نجد في أنفسنا ما يتعاظم أحدنا أن يتكلم به »!

فأجابهم الهادي البشير : «وقد وجدتموه»؟! . . قالوا : نعم . . فقال :« **ذاك صريح الإيمان . . ذاك محض الإيمان**»[3]؟! . .

● وإنها لشهيرة وحاسمة قصة ذلك الحديث الذي رواه بطلها أسامة بن زيد ، رضي الله عنهما ، قال : «بعثنا رسول الله ، ﷺ ، في سرية ، فصبّحنا الحُرقات- [مكان] - من جهينة . فأدركت رجلا ، فقال : لا إله إلا الله . فطعنته . فوقع في نفسي من ذلك . فذكرته للنبي ، ﷺ ، فقال : «**أقال: لا إله إلا الله، وقتلته**؟!» . . قال قلت : يارسول الله ، إنما قالها خوفا من السلاح . قال : «**أفلا شققت عن قلبه لتعلم أقالها أم لا**؟!» . . فما زال يكررها عليَّ حتى تمنيت أني أسلمت يومئذ»[4] .

وأمام هذا النهج النبوى ، والموقف الإسلامى الجامع يقف الإمام النووى [٦٣١ - ٦٧٦ هـ ١٢٣٣ - ١٢٧٧م] وهو يشرح «صحيح مسلم» ، فيقول : «إنما كلفت بالعمل بالظاهر وما ينطق به اللسان . وأما القلب فليس لك طريق إلى معرفة مافيه» !

فعلى الذين لم يفقهوا نهج الإسلام فى صيانة العقائد عن عبث الأحكام وطائش القرارات ، أن يتقوا الله فى هذا النهج الذى تميز به الإسلام وامتاز على غيره من الديانات . .

وعلى الذين يكيدون للإسلام ونهجه بتصيد العابث من الأحكام والطائش من القرارات ، أن يميزوا بين هذا النهج الراقى للإسلام الحنيف وبين عبث العابثين . . فمعرفة الحق هى السبيل إلى معرفة أهله - وليس العكس - . . وليس فى حكم «الرجال» ما ينهض حجة على الإسلام؟ ! . .

● وهاهو حجة الإسلام أبو حامد الغزالى [٤٥٠ - ٥٠٥ هـ ١٠٥٨ - ١١١١م] يعلم الدنيا أن هذا النهج الإسلامى لم يكن مجرد «فكر نظرى» ، وإنما كان التزام حضارة وضعه أعلامها فى «الممارسة والتطبيق» ، فيقول : إنه «ينبغى الاحتراز من التكفير ما وجد الإنسان إلى ذلك سبيلا، فإن استباحة الدماء والأموال من المصلين إلى القبلة، المصرحين بقول: لا إله إلا الله محمد رسول الله، خطأ. والخطأ فى ترك ألف كافر أهون من الخطأ فى سفك محجمة من دم مسلم[٥]»! . .

● وفى عصرنا الحديث ، نجد السيادة لهذا النهج الإسلامى العظيم . . فعندما يخلط واحد من دعاة «التغريب» - هو فرح

أنطون [١٨٧٤ - ١٩٢٢م] - بين موقف الإسلام ونهجه هذا وبين الكهانة الكنسية الغربية التى زعمت لنفسها حق الحكم على العقائد والضمائر ، ينبرى إمام الاجتهاد الإسلامى الحديث ؛ والابن البار للأزهر الشريف الشيخ محمد عبده [١٢٦٦ - ١٣٢٣ هـ ١٨٤٩ - ١٩٠٥م] ليقول : «إن الله لم يجعل للخليفة ولا للقاضى ولا للمفتى ولا لشيخ الإسلام أدنى سلطة على العقائد وتقرير الأحكام.. ولا يسوغ لواحد منهم أن يدعى حق السيطرة على إيمان أحد أو عبادته لربه، أو ينازعه فى طريق نظره... فليس فى الإسلام سلطة دينية سوى سلطة الموعظة الحسنة، والدعوة إلى الخير والتنفير عن الشر، وهى سلطة خولها الله لأدنى المسلمين يقرع بها أنف أعلاهم، كما خولها لأعلاهم يتناول بها من أدناهم... وليس لمسلم، مهما علا كعبه فى الإسلام، على آخر، مهما انحطت منزلته فيه، إلا حق النصيحة والإرشاد... ولقد اشتهر بين المسلمين وعرف من قواعد أحكام دينهم أنه إذا صدر قول من قائل يحتمل الكفر من مائة وجه، ويحتمل الإيمان من وجه واحد، حمل على الإيمان، ولا يجوز حمله على الكفر[٩] ..»؟!

فكان فى هذا الفكر الوجه المشرق للإسلام فى هذا الموضوع .. تَعلَّم منه أهل الإخلاص من «الإسلاميين» ومن «العلمانيين» على حد سواء! ..

● بل ومالنا لا نُذكّر كل الفرقاء، من أنصار أسلمة الواقع والقانون، ومن دعاة «التغريب» والتبعية للغرب فى الفكر والسلوك... مالنا لا نذكّر كل هؤلاء الفرقاء بنهج الأزهر، تاريخيا، فى مثل هذه الأمور ..

لقد جاء حين من الدهر ادعى فيه واحد من علماء الأزهر- هو المرحوم الشيخ على عبد الرازق [١٣٠٥ - ١٣٨٦ هـ ١٨٨٧ - ١٩٦٦م] - دعوى لم يقل بمثلها عالم مسلم عبر تاريخ الإسلام الطويل . . ادعى أن الإسلام دين لا دولة ، وأن نبيه رسول رسالة روحية وليس حاكما ولا قائد دولة ، وأن هذا الإسلام مثله كمثل المسيحية يدعو لأن ندع مالقيصر لقيصر وما لله لله؟! . .

وعندما تصدى الأزهر، يومئذ، لهذه الدعوى، وجدنا وثائقه الفكرية، التي نقضت هذا الزعم، قد برئت من أى اتهام للرجل فى عقيدته.. استوت فى ذلك «حيثيات» حكم «هيئة كبار العلماء»، وما كتبه الإمام الأكبر الشيخ محمد الخضر حسين فى كتابه [نقض كتاب الإسلام وأصول الحكم] وما كتبه المفتى محمد بخيت المطيعى فى كتابه [حقيقة الإسلام وأصول الحكم] . . .

بل وكان ذلك هو التزام الأزهر وعلمائه عندما خرج الدكتور طه حسين سنة ١٩٢٦م بكتابه [فى الشعر الجاهلى] . . وفيه مافيه من إلقاء ظلال الشك الديكارتى على بعض من قصص القرآن الكريم ؟! . .

فبدءا من القرآن الكريم . . . إلى السنة النبوية الشريفة . . . إلى النهج الذى انتهجه أئمة الإسلام وأعلامه . . . والذى جسدته مواقف الأزهر الشريف ، عبر تاريخه العريق ، . . . كانت مقارعة الحجة بالحجة . . . والدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة . . . والتحرج كل التحرج من الكهانة والسلطة الدينية فى الحكم على الضمائر والعقائد والأفئدة والقلوب . . .

وعندما أصيبت بعض الفصائل الشبابية فى حركة الصحوة

الإسلامية المعاصرة بداء الحكم على عقائد المسلمين بالكفر وعلى مجتمعاتهم بالارتداد إلى الجاهلية... كان الأزهر في مقدمة من تصدى لهذا الانحراف عن نهج الإسلام بالنقد والتفنيد والتوجيه...

تلك هى تقاليد الإسلام الدين . . والإسلام الحضارة ، مع هذه القضية ، التى يجب أن يرعى فيها الجميع هذه التقاليد التى أرساها الإسلام منذ أن نزل الوحى بكتابه المبين على قلب الصادق الأمين ، عليه الصلاة والسلام . .

* * *

إن طوق النجاة لهذه الأمة إنما يكمن فى «الإبداع» و «الاجتهاد» و «التجديد» الذى تصوغ به مشروعها الحضارى المتميز عن المشروع الغربى ، كشرط ضرورى لنجاح جهادها المقدس لوضع هذا المشروع فى الممارسة والتطبيق . .

وإن هذا البلاء ، المتمثل فى «ضيق الأفق» و «ضيق الصدر الفكرى» ، إلى حد تكفير المخالفين . . إن هذا البلاء هو أعدا أعداء «الإبداع» و «الاجتهاد» و «التجديد» ! . .

فليتق الله المخلصون - الغافلون - من مختلف الفرقاء ؟ ! . .

الهوامش:

(١) النساء : ٩٤ .

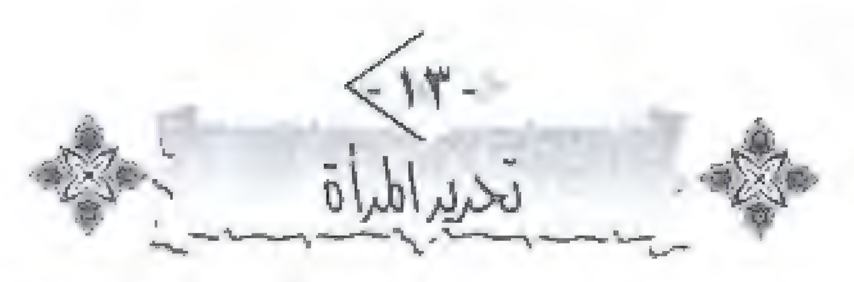
(٢) القرطبى [الجامع لأحكام القرآن] جـ ٥ ص ٣٣٩ ، ٣٤٠ . طبعة دار الكتب المصرية .

(٣) حديثان رواهما مسلم والإمام أحمد .

(٤) رواه مسلم وأبو داود وابن ماجة والإمام أحمد .

(٥) [الاقتصاد فى الاعتقاد] ص ١٤٣ . طبعة القاهرة - مكتبة صبيح . بدون تاريخ .

(٦) [الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده] جـ ٣ ص ٢٨٣ - ٢٨٩ . دراسة وتحقيق : د . محمد عمارة . طبعة بيروت سنة ١٩٧٢م .



-١٣- تحرير المرأة

فى عصرنا الحديث . . وعندما تجاوزت أمتنا طور الحقبة المملوكة العثمانية . . وأخذت بأسباب اليقظة والتقدم . . اشرأبت الأعناق وطمحت العقول وأملت الأفئدة فى طى صفحة التخلف والتراجع والجمود فى كتاب المرأة العربية والمسلمة . . تلك الصفحة التى سادت عصورنا المملوكية العثمانية ، والتى صارت فيها المرأة - لدى القطاع المؤثر فى مدننا ودوائر الحكم ببلادنا- مجرد «شىء» تتزين به البيوت والقصور . . وأداة متعة للفراش . . وجزءاً لطيفا من سقط المتاع! . .

ومع بداية الصفحة الجديدة من كتاب تطورنا الحضارى ، وجدنا أنفسنا ، ولا زلنا نجدها ، أمام مذهبين متميزين تميزا واضحا فى فلسفة «تحرير المرأة العربية والمسلمة» . . .

١ - مذهب تيار التجديد الدينى والبعث الحضارى وإحياء الأصالة العربية الإسلامية . . ذلك الذى دعا رواده وأنصاره إلى طى صفحة «الوافد التركى المملوكى» ، وإلى جعل المرأة المعاصرة والجديدة : الامتداد المتطور لسالفتها فى حقبة ازدهارنا الحضارى الأولى . .

٢ - ومذهب أنصار «الغزو الفكرى التغريبى» ، الداعى إلى طى صفحات حضارتنا العربية الإسلامية جميعا ، لنبدأ فى قضية

«تحرير المرأة» من حيث انتهى الفكر الذى أبدعته الحضارة الغربية لتحرير نسائها ، وتطبيقات هذا الفكر ، وذلك بدعوى أن مذهب الغرب هذا ، ونموذجه فى هذا «التحرير» ، هو من «المشترك الإنسانى العام» وليس من «الخصوصية الحضارية» التى تتمايز فيها الحضارات ! . .

وتلك ، لعمرى! قضية تحتاج إلى نظر أكيد من العقل الرشيد! . .

كثيرون لايعرفون أن تاريخ الحضارة الغربية فى «التفكير» و «الدعوة» لحقوق المرأة ، هو تاريخها الحديث . . فقبل القرن الثامن عشر والتاسع عشر لم يكن لذلك الأمر ذكر فى عالم الحضارة الغربية بإطلاق . .

ولا يظنن أحد أن حال المرأة الغربية فى العصور الوسطى لحضارتها كان كحال المرأة العربية الإسلامية فى عصور تراجعنا المملوكية العثمانية . . فالفوارق بينهما جذرية وشاسعة لاتقبل المقارنة أو التشبيه . . فما أنجزه الإسلام من تحرير للمرأة العربية والمسلمة منذ ظهور الإسلام استمر أغلبه قائما فى الريف والبداوة والأحياء الشعبية . . وحتى الشريحة التى قبعت فى حريم قصور السراة والحكام والأمراء والأجناد فإنها لم تحرم من كل الحقوق التى منحتها إياها شريعة الإسلام . . فالذمة المالية المستقلة ، وحق الملكية ، والتصرف فيها ، ظلت قائمة دون انتقاص . . وكذلك أحكام الشريعة فى الولاية على الأبناء ، وغيرها من الحقوق المتعلقة بالميراث ، وبالإعفاء من تبعات الإنفاق المالى فى البيوت . . الخ . .

أما فى الحضارة الغربية ، فإن المرأة لم تكن شيئا مذكورا على الإطلاق . . كانت شبه منبوذة ، ينظر إليها على أنها ناقصة الجسم والعقل والوجدان ، لاحق لها ولانصيب فى العلم ، أو الحرية ، أو الملكية أو التعامل المالى ، أو الولاية على أبنائها وحضانتهم ، حتى إذا مات والدهم فى حياتها ! . . بل لقد نظروا إليها ، بناء على لاهوت الكنيسة ، باعتبارها جسدا بلا «روح» ، وزعموا أن ما بداخلها هو «شيطان»؟ ! . .

تلك كانت حال المرأة الغربية ، حتى العصر الحديث : عندما بدأت «فكرة» و «دعوة» حقوق المرأة هناك فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر . .

وإذا كان هذا هو تاريخ «تفكير» الغرب و «دعوته» لتحرير المرأة . . فإن هذا «الفكر» وهذه «الدعوة» لم ينتصرا ، فيتجسدا فى دساتير الغرب وقوانينه إلا فى القرن العشرين ! . .

وبسبب من اقتران أفكار تحرير المرأة الغربية بالفكرية الرأسمالية للثورة الصناعية ، فلقد اتخذت تلك الدعوة ذات الطابع والروح اللذين طبعا نهضة الغرب وإحياءه فى العصر الحديث . . الطابع المادى لحضارة الغرب ، والنظرة الرأسمالية للمرأة ، باعتبارها سلعة فى سوق العمل الرأسمالى ، وسلعة فى سوق الإغراء . . كما تميز مفهوم حريتها وتحررها بما تميزت به «الحرية» فى الحضارة العلمانية الغربية ، من الانفلات الذى لا تلزمه شريعة إلهية ، ولا يلتزم بـ «قيم» الدين ! . . فتميزت بذلك مفاهيم تحرير المرأة هناك بما تميزت به الحضارة الغربية عن حضارتنا العربية الإسلامية من خصوصيات . .

فإذا كانت فلسفة «التحرير الإسلامي للمرأة» قد انطلقت من تحديد مكانتها بالنسبة للرجل، باعتبارهما «شقان متكاملان ومتساويان».. فلقد انطلقت فلسفة الغرب في تحريرها من مقولة «النِّدِّيَّة» القائمة على «التماثل» بينهما.. فطمحت المرأة الغربية إلى أن تكون مساوية للرجل، منكرة ومستنكرة تمييز الطبيعة بينهما، فكان حلولها محل الرجل، واقتحامها كل ميادين عمله الشاق، و «استرجال» المرأة «انتصارات» توهمت أنها قد حققتها في ميدان التحرير!..

وإذا كان «التحرير الاسلامي» للمرأة، لم يجد في «قوامة» الرجل على زوجه ما ينافي هذا التحرير، لأن هذه «القوامة» هي درجة في سلم القيادة استحقها الرجل لتميز طبيعته في ميادين بعينها، دون أن تعني هذه القوامة الانتقاص من مبدأ المساواة.. وبعبارة الإمام محمد عبده، عند تفسيره للآية الكريمة: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَا أَنفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾ [1]: «فإن المراد بالقيام هنا هو الرياسة التي يتصرف فيها المرءوس بإرادته واختياره، وليس معناها أن يكون المرءوس مقهورا مسلوب الإرادة لايعمل عملا إلا مايوجهه إليه رئيسه، فإن كون الشخص قيما على آخر هو عبارة عن إرشاده والمراقبة عليه في تنفيذ ما يرشده إليه، أي ملاحظته في أعماله وتربيته..» [2]... فالقرآن الكريم قد قرن هذه «القوامة» بكامل المساواة الإنسانية بين النساء والرجال، وذلك في قوله سبحانه

﴿ وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾[3] . . وعن هذه المثلية فى الحقوق والواجبات يقول الإمام محمد عبده فى تفسيره لصدر هذه الآية : [ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف] : «هذه كلمة جليلة جدا ، جمعت ، على إيجازها ، مالا يؤدى بالتفصيل إلا فى سفر كبير ، فهى قاعدة كلية ناطقة بأن المرأة مساوية للرجل فى جميع الحقوق ، إلا أمرا واحدا عبر عنه بقوله : [وللرجال عليهن درجة] . . حتى قال ابن عباس : إنى لأتزين لامرأتى كما تتزين لى لهذه الآية . وليس المراد بالمثل المثل بأعيان الأشياء وأشخاصها، وإنما المراد أن الحقوق بينهما متبادلة، وأنهما أكفاء، فما من عمل تعمله المرأة إلا وللرجل عمل يقابله لها، وإن لم يكن مثله فى شخصه، فهو مثله فى جنسه، فهما متماثلان فى الحقوق والأعمال، كما أنهما متماثلان فى الذات والإحساس والشعور والعقل . .»[4] .

كذلك فإن قوامة الرجل على المرأة، المؤسسة على تميز طبيعته فى ميادين بعينها، يقابلها، ولاشك وبمنطق فطرة الله، قوامة للمرأة فى الميادين التى تميزها فيها طبيعتها.. فإذا كانت القيادة له فيما له به خبرة وجلد من الميادين، فإنها الراعية والقائدة فى ميادين العاطفة والأنوثة والحنو، وابداع واحة السكن الذى يلطف غلظة الحياة وقسوتها !

وإذا كان «الراعى» هو «القائد ، والقيم» ، فإن الاسلام لم يحرم المرأة من القيادة والقوامة ، ولكنه حدد لها ميادينها ، المتفقة مع طبيعتها المتميزة ، كما صنع ذلك مع قوامة الرجال سواء بسواء . . ففى حديث الرسول ، ﷺ ، نقرأ عن «الرعاية والقيادة والقوامة» ، قوله عليه السلام : «كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته ، فالأمير

الذى على الناس راع عليهم، وهو مسئول عنهم. والرجل راع على أهل بيته، وهو مسئول عنهم. والمرأة راعية على بيت بعلها وولده، وهى مسئولة عنهم. وعبد الرجل راع على بيت سيده وهو مسئول عنه. ألا فكلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته»[٥].. فالقيادة والقوامة ليست وقفا على الرجال، وإنما هى مرتبطة بتميز الطبيعة وتميز ميادينها.. **لأن فلسفة «التحرير الإسلامى» للمرأة قد راعت تمايز التكوين الطبيعى فى إطار المساواة الإنسانية تحقيقا لتكامل الذكر والأنثى، ابتغاء لسعادتهما جميعا!..**

أما فلسفة «التحرير الغربى» للمرأة، فإنها اعتمدت «الندية»، فجعلت معركة الأنثى ضد الذكر.. وظنت أن تحررها كامن فى «استرجالها»، فقادتها إلى حال القط الذى قلد أسدا، حتى حرم من ميزات القط دون أن يكتسب ميزات الأسود، متناسية أن فلسفة التكامل تقتضى التنوع بين المتكاملين..

وإذا كانت «الوسطية الإسلامية» - وهى الخصيصة العظمى لحضارتنا العربية الإسلامية - قد وضعت حرية الإنسان، رجلا كان أو امرأة، فردا كان أو أمة، فى مكانها وسط إطار الشريعة الإلهية. فجعلت «الحرية» ملتزمة ومحكومة بثوابت الشريعة ومقاصدها وحدودها.. فإن الطابع العلمانى - الفاصل بين الدين والدولة، والمستبعد للدين من فلسفات العلوم ومناهج الفكر - قد أطلق العنان لحرية الإنسان الغربى، فانطبعت بهذا الإطلاق فلسفة «التحرير الغربى» للمرأة الغربية.. فهى حرة فى ابتذال الجسد وعرض مفاتنه على الجميع.. وحرة فى إشاعة الجنس وتعميم اللذة، طالما تم ذلك بالرضا لا بالاغتصاب!..

لقد نشأت هذه الفلسفة «للتحرير الغربى» للمرأة الغربية ، كجزئية من جزئيات النهضة الرأسمالية الغربية ، ذات الطابع الليبرالى والروح العلمانية ، فحملت خصوصيات الحضارة الغربية ، فى الطابع المادى ، وعبادة اللذة ، وانفلات الحرية من مقاصد الشريعة الإلهية وحدودها . . كما حملت ذلك «الوهم» الذى أغرى المرأة «بالاسترجال» ، فشقيت منها الروح والجسد جميعا ، الأمر الذى لم يحقق لها جوهر الحرية وحقيقة التحرير ! . .

فهى ، إذن ، «خصوصية حضارية غربية» ، تلك الصورة التى يبشر بها أسرى الغزو الفكرى التغريبى لحرية المرأة . . وليست ، أبدا ، من قبيل ماهو «مشترك إنسانى عام» .

* * *

هكذا . . . وبعد هذه الرحلة عبر ميادين الفكر الذى بشرت وتبشر به «النخبة» المتغربة ، ومقارنته بنظيره فى حضارتنا العربية الإسلامية . . وضحت لكل ذى سمع وبصر وفؤاد الحدود الفاصلة بين ما هو :

● مشترك إنسانى عام ، لايتمايز ولا يختلف باختلاف الحضارات والقوميات والمذاهب والمعتقدات . . ويدخل فى ذلك كل علوم المادة والطبيعة والتجريب ، وحقائقها وقوانينها . . وكثير من التجارب الإنسانية المجردة من الفلسفات . . والعديد من ثمرات الخبرات الإنسانية فى المؤسسات والوسائل والسبل ، التى سلكتها الأمم فى عمارة الكون وتنمية الثروات . .

● وخصوصيات حضارية ، تتمايز بتمايز الحضارات ذات الفلسفات والمثل المتمايزة . . ويدخل فى ذلك كثير من العلوم

الإنسانية، التى تتمايز بتمايز موضوع بحثها: النفس الإنسانية المتميزة بالفلسفة والمعتقد والمواريث المكونة ومعطيات الاقليم وثمرات المحيط الذى تعيش فيه.. وإذا كان «المشترك الإنسانى العام» هو أشبه مايكون «بالهواء» الذى لايعرف ولايعترف بالحدود الفاصلة بين القوميات والحضارات.. فإن «الخصوصيات الحضارية»، هى أشبه ماتكون «بالجيش»، الذى لايصح أن يعبر الحدود الحضارية إلا عندما تثبت الحاجة إليه، ويتم الاستدعاء له، وبالحجم الذى هو مطلوب ليفيد؟!.. فهنا، لابد من العرض على المعايير الحضارية والموازين الحاكمة للهوية القومية، ليتبين ماهو دعم للذات وتنمية لاستقلاليتها وتميزها، من ذلك الذى يمثل المسخ والنسخ والتشويه لهذه الذات..

تلك هى «شهادة الفكر» على ماهو من المشترك الإنسانى العام... وما هو من الخصوصيات الحضارية فى عطاء الحضارات الإنسانية وإبداعها.

* * *

الهوامش:

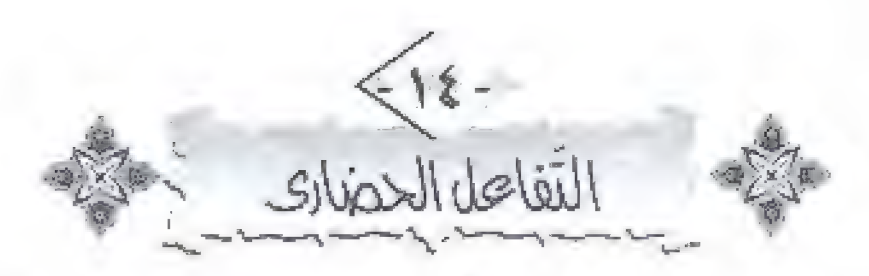
(١) النساء: ٣٤.

(٢) [الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده] جـ ٥ ص ٢٠٨

(٣) البقرة: ٢٢٨.

(٤) [الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده] جـ ٤ ص ٦٣٠.

(٥) رواه البخارى ومسلم والإمام أحمد.



-١٤-
التفاعل الحضارى

فى الحديث عن علاقة الأمة العربية الإسلامية بالآخر الحضارى . . وعلاقة الحضارة الإسلامية بالحضارات الأخرى - وبالحضارة الغربية على وجه الخصوص - وهى العلاقة التى تطرح علينا وعلى الغرب هذا الموضوع - أجد من الضرورى التمييز بين «الأوهام» و «الحقائق» التى اختلطت فى هذا الموضوع . .

● فوهم كبير أن يتصور أحد إمكانية العزلة الحضارية - فى ظل ثورة وسائل الاتصال الحديثة - لأية حضارة من الحضارات ، حتى لو أرادت ذلك ، واجتمع أهلها على اختيار العزلة! . . بل إن مثل هذه العزلة بين الحضارات لم تحدث حتى فى التاريخ القديم ، وخاصة للحضارات القائمة فى المواقع الحاكمة بطرق الاتصال بين قارات العالم . . وفى مقدمتها حضارات الشرق ، عبر التاريخ . .

● ومن حقائق «طب الحضارات»- إذا جاز التعبير - أن الانغلاق والعزلة الحضارية ، لابد وأن يؤديا إلى الذبول والاضمحلال الحضارى . . تماما كما يحدث للجسم الذى يتغذى على «ذاته» ، دون مدد من «المحيط»! . .

● ومن حقائق «طب الحضارات» ، أيضا ، أن تقليد حضارة لأخرى ، وخاصة فى «الهوية» وثوابت السمات والقسمات المميزة لخصوصيتها ، على النحو الذى يؤدى إلى التبعية ، إنما يقود ، هو

الآخر، إلى الذوبان والاضمحلال الحضارى .. لأن «حياة» الحضارة .. أية حضارية- إنما تكمن فى «الإبداع» .. و «الإبداع» مستحيل مع «التقليد» ؛ فلا يبدع إلا صاحب المشروع المتميز والنموذج الخاص .. أما المقلد فإنه يعطى ملكات الإبداع «إجازة» ، مكتفيا بالنماذج «المعلبة» والخيارات «الجاهزة» ! ..

● وإذا كان «الانغلاق» مستحيلا .. وإذا كانت «العزلة» تقود إلى الذبول والاضمحلال .. ولما كان «التقليد» يقود إلى التبعية ، التى تعنى ، هى الأخرى ، الذوبان والذبول ؛ أى اضمحلال الذاتية والخصوصية .. فلابد - فى العلاقة مع الآخر الحضارى - من البحث عن الموقف الثالث .. الوسط .. العدل .. الحق فى هذا الموضوع .. وهو الذى أسميه بـ «التفاعل الحضارى» ، من موقع الراشد المستقل ، الذى ينفتح على كل حضارات الدنيا ، دون أن يفقد ذاتيته وهويته واستقلاله الحضارى ..

وهذا الموقف .. موقف «التفاعل الحضارى» - الذى هو وسط بين «الانغلاق - والعزلة» وبين «التقليد- والتبعية»- يستلزم ويستوجب اكتشاف مساحة «الخصوصية الحضارية» ، المكونة لهويتنا الحضارية .. والتى لابد من إحيائها ، والاستمساك بها ، وحمايتها - كما تحمى الأمم أعراضها .. بل وصناعاتها الوطنية .. واكتشاف مساحة «المشترك الإنسانى العام» فى الإبداع الإنسانى ، لا لنقبله فقط من الآخرين ، بل ولنسعى إلى امتلاكه بكل ما أوتينا من قوة ، ولنتتلمذ فيه على كل الآخرين الذين يبدعون فيه ! ..

وإذا كان لى أن أضرب أمثلة على السمات والقسمات التى أراها نماذج لهويتنا وذاتيتنا الإسلامية وخصوصيتنا الحضارية ، فإنى أنبه على أن المدخل إلى هذا الميدان هو الوسطية الإسلامية الجامعة .. أى التى لاتقف ساكنة بين القطبين والطرفين ، وإنما تجمع منهما مايمكن جمعه وتأليفه من عناصر الحق والصواب ..

فإذا كانت «النرفانا» الهندية - ومعها الفكر «الباطنى - الغنوصى» - ترى الإنسان «هامشا - حقيرا - فانيا فى المطلق» .. على حين تراه الحضارة الغربية سيد هذا الكون .. فإن وسطيتنا الإسلامية تراه الخليفة عن سيد هذا الكون وخالقه ، سبحانه وتعالى .. فلا تجرده من الحرية والسلطات .. وأيضا لا تطلق العنان لهذه الحرية والسلطات .. وإنما تقرها وتنميها ، مع حكمها وضبطها ببنود عقد وعهد الاستخلاف - الشريعة الإلهية - .. فهو - الإنسان - بعبارة الإمام محمد عبده - «عبد لله وحده ، وسيد لكل شيء بعده» ! ..

وإذا أقام النموذج الباطنى طريق الخلاص - التقدم - على العرفان والرياضة الروحية فقط .. وأقام النموذج المادى - الغربى - التقدم على عوامل المادة وإشباع الحاجات الدنيوية وحدها .. فإن خيارنا الحضارى هو الذى يرى السعادة فى التوازن - العدل - الوسطية - فيؤسس المعارف على كتابى الوحى المقروء والكون المنظور .. ويقرأ النقل بالعقل ويحكم غرور العقل بالنقل .. ولايرى سعادة فى الدنيا إلا إذا حققت سعادة الآخرة - التى هى خير وأبقى - .. ولايقف بالحقوق عند حدود الانسان ، وإنما يمد نطاقها

إلى حقوق الله ، التى تمثلها حقوق الأمة والاجتماع البشرى . . فلا يجرد الإنسان - مثلا - من حقوق التملك فى الثروات والأموال . . كما لا يطلق العنان لتملكه فى هذا الميدان ، وإنما يعتمد نظرية وسطية الاستخلاف ، فيراه مالكا للمنفعة ، محكومة تصرفاته بشريعة المالك الحقيقى والواهب الأصلى للثروات والأموال ، سبحانه وتعالى . .

وقس على ذلك ثمرات ومعالم الوسطية الإسلامية ، التى هى صبغة الهوية الحضارية ، التى ميزت علومنا الإنسانية ، باعتبارها ثقافة «النفس المسلمة» التى تهذبت ويجب أن تتهذب وفق خصوصيات المعتقد والموروث وفلسفة النظر للكون - بدءا . . ومسيرة . . ومصيرا . . وحِكَماً وغايات - وكذلك التقاليد والأعراف والعادات . .

تلك أمثلة على بعض سمات الخصوصية الحضارية . . والبصمة القومية . . والذاتية الثقافية . . التى يمثل إحياؤها ، وتمثل حمايتها - مع معترك الصراع الثقافى والإعلامى - الشروط الضرورية للرشد والاستقلال . . ومؤهلات «التفاعل» مع الآخر ، دونما سقوط فى إفراط «الانغلاق» أو تفريط «التقليد والتبعية» . .

● ومع اكتشاف وإحياء وحماية مساحة الخصوصية الحضارية - للنجاة من «التقليد . . والتبعية» - فلا بد من اكتشاف مساحة «المشترك الإنسانى العام» . . التى تتمثل فيها الإبداعات الإنسانية للحقائق والقوانين والمعارف التى لا تتغاير بتغاير الحضارات والمعتقدات . . وإذا كانت تجارب النفس الإنسانية

لاتتكرر ولا تتماثل .. الأمر الذى ميز ويميز العلوم الإنسانية فى كل حضارة من الحضارات العريقة .. فإن حقائق وقوانين العلوم «الموضوعية- الطبيعية - المحايدة لا تتغاير بتغاير عقائد أو حضارات علمائها وذلك لثبات المادة التى هى موضوعها . والتمايز بين الحضارات ، فى هذا الميدان لا يتعدى فلسفات وأخلاقيات تطبيقات حقائق وقوانين هذه العلوم .. فحقائق علم التربة الزراعية ، لا تتغاير بتغاير باحثيه فى المعتقد أو الجنس أو الوطن .. وإنما يقع ويرد التغاير فى تطبيقات هذه الحقائق بين من يسخرها فى زراعة الحلال الطيب - بالمعيار الدينى- وبين من يسخرها فى زراعة مايحقق اللذات الدنيوية والشهوات الآنية ، بصرف النظر عن علاقة ذلك بأسباب السعادة فى الدار الآخرة .. الأمر الذى يحول مطلق العلم إلى علم نافع .. وعلم لاينفع ، إذا ضبط «النفع» بضوابط الدين ! ..

فإذا نحن اكتشفنا «مساحة : الخصوصية .. والهوية الذاتية» .. و «مساحة : المشترك الإنسانى العام» ، استطعنا تحقيق «الاستقلال الذاتى - الحضارى» مع «التفاعل - الحضارى» مع كل حضارات الدنيا ..

بقيت ملاحظتان :

الأولى : يرصدها الباحث فى المسارات الحضارية للأمم فى هذا الميدان .. عندما يرى أن الأمم والحضارات فى لحظات القوة والمنعة لاتدقق كثيرا فى سبل «الحماية» من الآخر الحضارى .. بل تفتح

- تقريبا - كل النوافذ على الآخرين . . مثلها كمثل معدة الجسم القوى ، لاتخشى طعاما ، لأنها قادرة على الهضم . . والتمثل للمفيد . . والطرد لما هو غير مناسب أو ضار . .

أما فى مراحل الضعف والاستضعاف ، فكثيرا ماتعلو الأصوات الداعية للتدقيق فى سبل «الحماية» من الآخر الحضارى . . كحال الجسد المريض ، الذى قد يؤذيه حتى الجيد والدسم من الطعام . . بل وقد يضره حتى الهواء العليل ! . .

تلك ملاحظة لابد من إدراك مغزاها ونحن نرى الصراع بين «الانفتاحيين» وبين «الانغلاقيين» . . فى واقعنا المعاصر . . وهى قد حدثت قديما فى مسيرتنا الحضارية . . فإبان نهضة أسلافنا وقوتهم حدث الفتح لأغلب النوافذ ومعظم الأبواب على الآخرين . . أما فى عصر التراجع والاستضعاف فلقد رأينا منهج «ابن عربى» ، الذى جعل قلبه معبدا للتوحيد والتثليث والوثنية واليهودية وكل الثقافات ! . . ورأينا منهج «ابن تيمية» الذى رفع شعار : «اقتضاء الصراط المستقيم : مخالفة أهل الجحيم»! . .

والملاحظة الثانية: نرى فى «التفاعل الحضارى»- الرافض «للانغلاق» و «التقليد - التبعية»- القانون الذى حكم ويحكم العلاقة الصحية بين الحضارات على مر التاريخ - فهو «قانون» . . وليس اختراعا -؟ ! . .

● لقد انفتح أسلافنا على الحضارة الهندية . . لكنهم أخذوا حسابها وفلكها ، دون فلسفتها . .

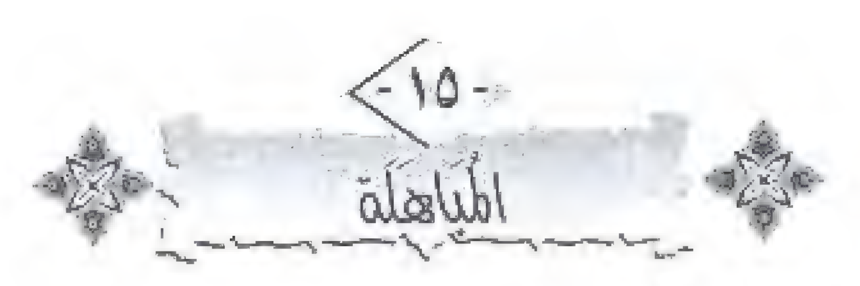
● وانفتحوا على الحضارة الإغريقية والرومانية .. لكنهم أخذوا تدوين الدواوين ، ولم يأخذوا شريعة الرومان وقانونهم .. وأخذوا العلوم الطبيعية ، دون الإلهيات والآداب .. وعندما ترجموا الفلسفة العقلية اليونانية أرادوها سلاحا عقلانيا أجنبيا ضد الباطنية الغنوصية الأجنبية - التى مثلت التهديد الأكبر للإسلام - وظلت هذه الفلسفة مجرد سلاح بيد «الخاصة» من الفلاسفة ، ولم تتحول إلى فلسفة للإسلام وأمته فى يوم من الأيام ! ..

● وانفتح أسلافنا على الحضارة الفارسية .. لكنهم أخذوا «التراتيب الإدارية» ، دون المذاهب الفارسية! ..

● وعندما انفتحت الحضارة الغربية على حضارتنا الإسلامية ، إبان نهضتهم ، أخذوا عنا ماهو مشترك إنسانى عام - من المنهج التجريبى .. إلى العلوم الطبيعية - .. ولم يأخذوا التوحيد الإسلامى ، ولا الوسطية الإسلامية ، ولا المثل والمقاصد والأخلاقيات .. فلقد أسسوا نهضتهم على «كلاسيكيات الإنسانيات اليونانية» - فى الثقافة المتميزة - وعلى حقائق وقوانين العلوم المحايدة - التى هى مشترك إنسانى عام ... بل لقد صنعوا هذا «التمييز» حتى مع المفكر الواحد - مثل ابن رشد - .. فأخذوا عنه عقلانية أرسطو .. وتركوا عقلانيته الإسلامية - الجامعة لما بين الحكمة والشريعة من الاتصال-؟! .. وأخذوا طب ابن سينا دون إشراقيته الفلسفية .. الخ .. الخ ..

وعلينا – نحن . . الآن– أن نهيئ ونبلور منهاج التفاعل الحضارى مع الآخرين – غربا وشرقا– وأن نحدد مساحة الخصوصية الحضارية . . والهوية الثقافية . . والبصمة القومية . . ومساحة المشترك الإنسانى العام . . لننفتح على الدنيا ، ونصافح الجميع ، دون أن نفقد هويتنا ، فننجو من إفراط «العزلة والانغلاق» . . ومن تفريط «التبعية والتقليد» . .





المباهلة : مُفَاعَلَة بين فريقين متناظرين ومتحاجبين فى أمر يختلفان فيه ، يبتهل- أى يتضرع كل منهما إلى ، سبحانه وتعالى ، أن يجعل لعنته على الكاذب منهما .

وفى المباهلة نزلت آيات سورة [آل عمران : ٥٩ - ٦١] ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ (٥٩) الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ الْمُمْتَرِينَ (٦٠) فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ (٦١)﴾

وسبب ومناسبة نزول آيات المباهلة هذه ما حدث من وفد نصارى نجران ، الذين جاءوا إلى النبى ﷺ بالمدينة سنة ٩ هـ سنة ٦٣٠ م - مع رؤسائهم «السيد الأيهم» و «العاقب عبد المسيح» ، و «ابن الحارث» ففى الحوار الذى دار بينهم وبين رسول الله ﷺ قال لهم الرسول :

- إن عيسى عبدالله وكلمته .

- فقالوا : أرنا عبدا خُلق من غير أب .

- فقال لهم الرسول : آدم ، من كان أبوه؟ أعجبتم من عيسى ليس له أب؟ فآدم عليه السلام ليس له أب ولا أم .

فنزلت الآيات تدعوهم - إن لم يصدقوا- إلى المناظرة- بحضور أبناء ونساء الفريقين- متضرعين إلى الله أن ينزل اللعنة على الفريق الكاذب . .

لكنهم خافوا على أنفسهم من تنفيذ المباهلة ، لما علموا من صدق نبوة ورسالة محمد ﷺ حتى قال بعضهم لبعض : «إن فعلتم اضطرم الوادي عليكم نارا»

فعادوا إلى النبى ﷺ يسألونه بديلا عن المباهلة وعن الإسلام ، وقالوا :

- أما تعرض علينا سوى هذا ؟

- فقال : الإسلام أو الجزية أو الحرب .

فعاهدوه - مقابل حرية عقيدتهم وحمايتهم كجزء من رعية الدولة الإسلامية- على جزية مقدارها ألف حُلّة - ثياب- تُؤدى فى شهر صفر ، وألف حُلّة أخرى تُؤدى فى شهر رجب .

وبذلك تكون المباهلة قد وقفت عند حد التحدى بها ، ولم تتم ، لأنهم خافوا عاقبتها ، واختاروا الصلح والمعاهدة التى دخلوا بها فى رعية الدولة الإسلامية وحمايتها ، مع الاحتفاظ بحريتهم الدينية وعقيدتهم النصرانية .

وظاهر الآيات القرآنية ينفي المرويات الرائجة التى تقول إن الرسول ﷺ قد اختار فريقه للمباهلة : على بن أبى طالب وفاطمة الزهراء والحسن والحسين ، رضى الله عنهم -«لأن كلمة [نساءنا]- كما يقول الإمام محمد عبده [١٢٦٥ - ١٣٢٣ هـ ١٨٤٩ - ١٩٠٥م] لا يقولها العربى يريد بها ابنته ، لا سيما إذا كان له أزواج ؛ ولا يفهم هذا من لغة العرب ، وأبعد من ذلك أن يراد بـ [أنفسنا]- عندما ينطقها النبى - على بن أبى طالب» .

فما تطلبه الآيات هو اجتماع الفريقين للمناظرة والمحاججة والمجادلة ، بحضور جماهير الفريقين رجالا ونساء وأطفالا ، ويبتهلون إلى الله بأن يلعن الكاذب منهما .

ويؤكد أن هذه المباهلة لم تتم ، أن وفد نجران- يومئذ- لم يكن معهم أحد من النساء والأبناء .

* * *

ولأن هذه المباهلة هى سبيل من سبل المناظرة والمحاججة بين أهل الحق وأهل الباطل ، ولخلو الآيات مما يفيد قصرها على النبى ﷺ أو على زمنه ، فإنها تشريع إسلامى خالد ، تستدعيه المقاصد المرجوة من ورائها ، والمصالح المعلقة عليها . . ولذلك ، قال الإمام ابن عابدين [١١٩٨ - ١٢٥٢هـ ١٧٨٤- ١٨٣٦م] «إن المباهلة ، بمعنى الملاعنة ، مشروعة فى زماننا» . . ولذلك ، فمن المشروع والوارد أن تكون المباهلة من أساليب وآليات المناظرة والمحاججة مع

المخالفين والمعاندين . . أى أن تتم المناظرة ، ويقدم الفرقاء المختلفون ما لدى كل منهم من الحجج والبراهين والبينات ، ثم يبتهلون إلى الله ، سبحانه وتعالى ، أن يجعل اللعنة على الكاذبين . .

وإذا كان التاريخ الإسلامى قد شهد العديد والعديد من المناظرات بين علماء الإسلام وبين نفر من أهل الكتاب ، فلا تحضرنى وقائع تاريخية- قديمة أو حديثة- اتخذت فيها هذه المناظرات صورة المباهلة التى نزلت بها هذه الآيات من القرآن الكريم . والله أعلم[1] .



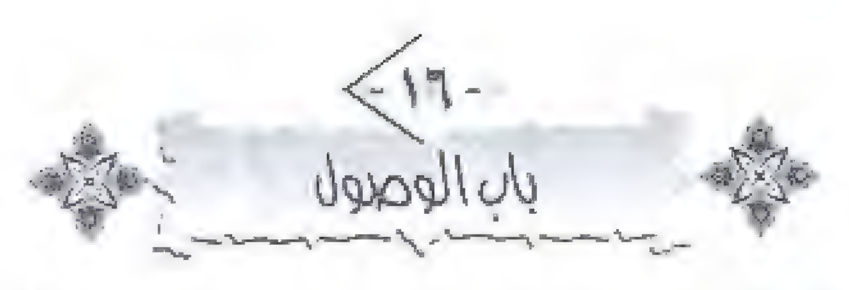
(١) مراجع :

١ - القرطبى الجامع لأحكام القرآن جـ ٤ ص ١٠٢ - ١٠٥ . طبعة دار الكتب المصرية . القاهرة .

٢ - الإمام محمد عبده [الأعمال الكاملة] جـ ٥ ص ٣٣ - ٣٥ . دراسة وتحقيق : د . محمد عمارة . طبعة دار الشروق القاهرة سنة ١٩٩٣ م .

٣ - [الموسوعة الفقهية]- مادة «المباهلة»- جـ ٣٦ ص ٥٧ ، ٥٨- طبعة الكويت سنة ١٩٩٦م .

٤ - رفاعة رافع الطهطاوى [الأعمال الكاملة] جـ ٤ ص ٣٧٦ ، ٣٧٧ . دراسة وتحقيق : د . محمد عمارة . طبعة بيروت سنة ١٩٧٧ م .



- ١٦ -
باب الوصول

● عقيدة «الباب» الموصل إلى الرسول - ﷺ - . . وبالتالى إلى الله - سبحانه وتعالى - :

لمصطلح «الباب» - بهذا المعنى - مفهوم شرعى . . ومفاهيم باطنية منحرفة ومغالية . .

فالمفهوم الشرعى لهذا المصطلح هو : التوبة . . فباب الأبواب هو التوبة ، لأنها السبيل إلى الوصل لرسول الله - ﷺ - ، بمعنى الوصول إلى سنته وطريقته ، التى هى بيان الوحى الإلهى وتطبيقاته ، ومن ثم فالوصول إليها وصول إلى الله - سبحانه وتعالى - أى إلى حضرة طاعته والعبودية له . . ففى التوبة عودة التائب إلى طاعة الرسول ، التى هى طاعة لله ﴿ مَّن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴾ [النساء : ٨٠] . وبذلك تتحقق المعية والحضور والوصول إلى الله ورسوله . .

وقريب من هذا المعنى الشرعى لمصطلح «الباب» معناه فى «التصوف السنى» - المضبوط بضوابط الشريعة الإسلامية - فباب التوبة هو أول ما يدخل به العبد حضرات القرب من جناب الرب - كما يقول المتصوفة الشرعيون - . .

لكن هناك معانى باطنية منحرفة لمصطلح «الباب» - باب الوصول - شاعت فى الفلسفات والعقائد الباطنية عند بعض الفرق المغالية :

فمثلا : الباب- عند الإسماعيلية- هو المريد الأكبر ، المفوض من الإمام المعصوم . . ولقد أطلق عليه في بعض أدبياتهم لقب «داعي الدعاة» . . فهو الباب الموصل إلى الإمام ، الذى هو باب الوصول إلى الرسول ، ومن ثم إلى الله عز وجل . . و «الباب»- فى عقائد النصيرية- هو لقب «سلمان الفارسى»- رضى الله عنه- . .

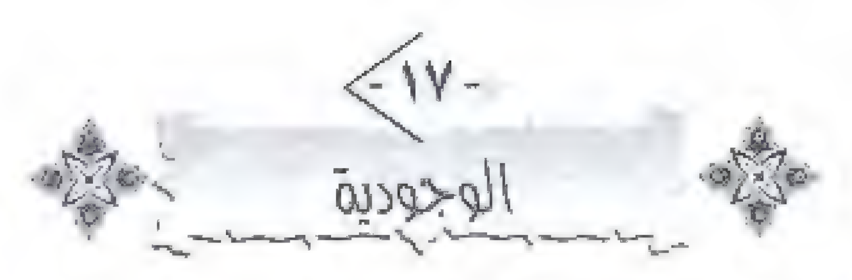
وعند الدروز : الباب هو العقل الكلى . .

وعند بعض فرق الشيعة : الباب هو على بن أبى طالب- كرم الله وجهه- . .

و «الباب» عند طائفة «البابية» - وهى من الغلاة- هو على بن محمد الشيرازى [١٢٣٦- ١٢٦٦هـ ١٨٢١- ١٨٥٠م] وإليه نسبت الطائفة وسميت «بالبابية»- فهو باب الوصول- وذلك قبل أن تتحول «البابية» إلى «البهائية» على يدى تلميذه ميرزا حسين على نورى

[١٢٣٣- ١٣٠٩ هـ ١٨١٧ - ١٨٩٢م]- الذى تلقب بـ «بهاء الله»- . .

والمعنى الشرعى «للباب»- أى التوبة- هو اللائق بعقيدة الإسلام ، التى لا تقيم حواجز كهنوتية بين الإنسان وخالقه ، فالله أقرب إلينا من حبل الوريد ﴿ ما يَكُونُ من نَجْوَىٰ ثلاثة إلاَّ هُوَ رابعهم ولا خمسة إلاَّ هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلاَّ هو معهم أين ما كانوا ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة إنَّ الله بكلِّ شيءٍ عليمٌ ﴾ [المجادلة : ٧] . . والتوبة هى باب الإنسان إلى معية الله وحضرته ، ومعية رسوله- عليه الصلاة والسلام .



-١٧-
الوجودية

● الوجودية : رؤية فلسفية للوجود الإنسانى ، ظهرت فى أوربا - عقب الحرب العالمية الأولى [١٩١٤ - ١٩١٨م]- فى ألمانيا أولا ، ثم فى فرنسا . . ثم امتد انتشارها- بعد الحرب العالمية الثانية [١٩٣٩ - ١٩٤٥م]- إلى الأوساط الفلسفية فى أوربا وأمريكا . . وبلاد الشرق والجنوب . .

وتنطلق الفلسفة الوجودية من وحدة الذات والموضوع ، والنظر إلى الإنسان باعتباره وجودا . . وسبيلها فى المعرفة هو الحدس . . وهى تولى الحرية ، بمعنى الاختيار الفردى ، اهتماما شديدا ، مع عزل الحرية والاختيار عن الضرورات الموضوعية والقوانين والسنن التى تحكم الواقع وتحيط بالإنسان . . فالحرية- فى الوجودية- هى الغاية ، وهى تعنى تحرير الفرد من المجتمع . .

ولقد أجادت الوجودية استخدام الفن والأدب ، بما فى ذلك المسرح ، فى نشر فلسفتها . .

وفى إطار الفلسفة الوجودية تمايزت تيارات ، أبرزها :

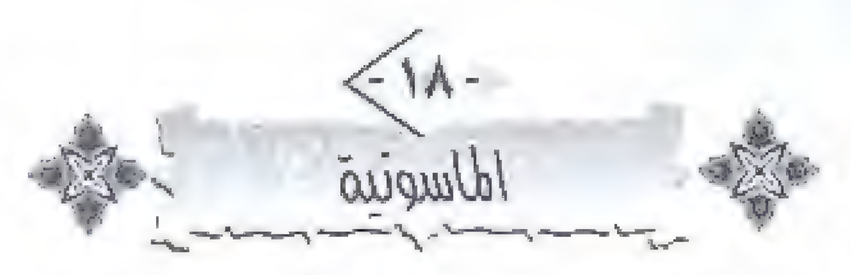
١ - تيار الوجودية المؤمنة بالدين- كما هى عند الفيلسوف الفرنسى جابرييل مارسيل . . والألمانى كارل ياسبرز [١٨٨٣ - ١٩٦٩م] . . والروسى نيقولاى الكسندروفيتش برديائيف [١٨٧٤- ١٩٤٨م] والألمانى مارتن بوبر [١٨٧٨ - ١٩٦٥م] .

٢ - والوجودية الإلحادية- كما هى عند الألمانى مارتن هيدجر . . والفرنسى جان بول سارتر . . والفرنسى ألبير كامو [١٩١٣- ١٩٦٠م] .

ومع أن الوجودية غير العلمانية ، إلا أنها- ككل الفلسفات الغربية- فلسفة علمانية النزعة ، تعزل الدين عن الحياة- فى تيارها الملحد- وتعزله عن الدولة- فى تيارها المؤمن- لأن الإيمان- ككل الفلسفة الوجودية- مجرد نزعة ذاتية واختيار فردى ، لا علاقة له بالدولة أو السياسة أو الاجتماع . .

ولقد تراجعت ، بل وانهارت وتدهورت الفلسفة الوجودية فى العقود الأخيرة . . وربما لن يدخل منها إلى القرن الواحد والعشرين سوى التاريخ .

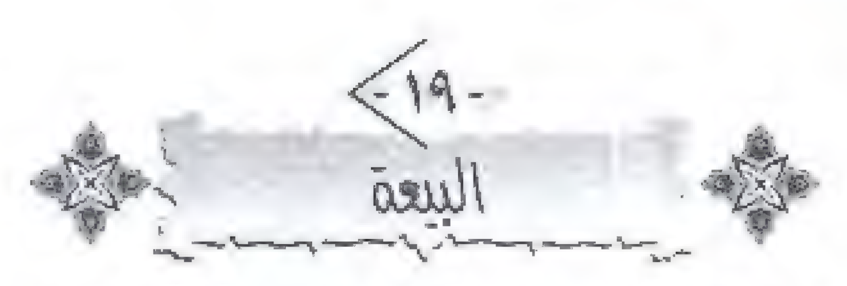




● حركة عالمية وتنظيم دولي، نشأ بأوربا في عصورها الوسطى، وتميز باختلاف ما يعلن من شعارات عن ما يبطن من مقاصد وأسرار..

فالماسون- في محافلهم- يسمون أنفسهم «البناءون الأحرار»، ويرفعون شعارات الثورة الفرنسية: (الحرية - والإخاء - والمساواة)، ويدعون إلى التحرر من سلطة الكهانة البابوية، ويبرزون الإخاء الديني بين كل المنتسبين إلى محافلهم، من كل الديانات- عندما يستبعدون الهوية الدينية للأعضاء.. لكن حقائق مقاصد الماسونية - التي اتضحت علاقاتها باليهودية والصهيونية- كشفت عن أنها تستخدم التحرر من العصبية الدينية سبيلا للتحلل من الانتماء الديني- وخاصة لدى غير اليهود- فتذويب الخصوصيات الدينية- فضلا عن مضاره- إنما يتم لحساب اليهودية والصهيونية.. كما أن ألغاز تعاليم الماسونية تسهم- بالتدريج، وبشكل غير مباشر- في تشكيك الآخذين بها في مواريثهم وعقائدهم الدينية.. وذلك فضلا عن ما تكشّف عبر القرن المنصرم من علاقة الماسونية بالصهيونية، وليس فقط باليهودية.. فالماسونية «تعلمن» أعضاءها من غير اليهود، وذلك خدمة للأقلية اليهودية ومخططاتها الصهيونية..

وعندما تكشّفت هذه البواطن والمقاصد الماسونية لبعض المجتمعات والدول الإسلامية، فأغلقت المحافل الماسونية، عادت لتتسرب تحت لافتات أندية وتنظيمات عالمية أخرى، من مثل «الروتاري» و «الليونز» وأمثالهما.



- ١٩ -
البيعة

فى عرف الفقهاء وعلماء الكلام وكتاب الفكر السياسى فى تراث العرب والمسلمين . تعنى البيعة ذلك الاتفاق التعاقدى القائم على ركنين أساسيين :

١ - ركن الإيجاب . . ويتمثل فى «أهل الاختيار» . أو «أهل الحل والعقد» ، الذين ينوبون عن الأمة فى مبايعة المرشح للخلافة والإمامة . كى يصبح بهذه البيعة خليفة وإماماً .

٢ - وركن القبول . . ويتمثل فى ذلك المرشح للخلافة . والذى يصبح . بهذه البيعة . أميراً للمؤمنين .

ولقد عرفت الحياة العربية هذا المصطلح قبل قيام نظام الخلافة عقب وفاة الرسول . عليه الصلاة والسلام . فلقد كان واحداً من مصطلحات التجارة والبيع والشراء . يعنى : صفقة اليد بين البائع والمشترى . دلالة على الاتفاق على الصفقة . . ولا زال معروفاً فى الأسواق العامة العربية . على هذا النحو . حتى الآن .

وعندما نشأ نظام الخلافة ، وتبلور للعرب المسلمين فكر سياسى فى الإمامة ، أصبحت البيعة تعنى : صفقة اليد من المبايع - [بكسر الياء] - ليد الأمير الممدودة طلباً للمبايعة ، أى وضع اليد فى اليد ، دلالة وإعلاناً على الاتفاق على صفقة «العقد الاجتماعى» بين ركنى وطرفى : الإيجاب والقبول .

وكانت البيعة تتم على مرحلتين- [درجتين]- :

الأولى : بيعة الخاصة . . وهم الذين عرفوا بـ [أهل الحل والعقد] وهى بمثابة «الترشيح» والتزكية والتمييز لشخص الإمام والخليفة من بين الأقران الذين يرشحهم للمنصب توافر شروطه فيهم .

والثانية : بيعة العامة . . وهم جمهور الأمة ، وتأتى بيعتهم عقب بيعة «الترشيح» التى يقوم بها ممثلوهم- [أهل الحل والعقد]- . ولقد كانت دائرة «العامة» هؤلاء تتسع أو تضيق وفق العصر والظروف والملابسات . . ولكنها وقفت عند جمهور العاصمة . كمرحلة أولى ، ثم كانت بيعة جمهور عواصم الأقاليم أشبه ما تكون ببيعة «الموافقة والتصديق» .

ولقد كانت بيعة السقيفة- سقيفة بنى ساعدة- بالمدينة المنورة ، عقب وفاة الرسول ﷺ ، هى عقد التأسيس لنظام الخلافة ودولتها . . ففى ١٣ ربيع الأول سنة ١١ هـ (٨ حزيران- يونيو سنة ٦٣٢ م) رشح عمر بن الخطاب وأبو عبيدة بن الجراح : أبا بكر الصديق ، للخلافة ، وبايعه الحاضرون من زعماء الأوس والخزرج ، البيعة الأولى ، بيعة الخاصة ، ثم عقدت له فى اليوم الثانى . بالمسجد ، البيعة الثانية ، بيعة العامة . . واستمر الحال على ذلك فيما بعد- [انظر مصطلح : «المهاجرون»]- . .

لكن تراث العرب المسلمين السياسى ، فى البيعة ، قد عرف قبل بيعة السقيفة عدة بيعات ، ومنها ما كان بمثابة العقد الاجتماعى الذى تأسست به أول دولة للعرب المسلمين . .

ففى «العقبة»- وهى مكان على يسار الطريق الواصل بين مكة ومنى- كانت لقاءات الرسول ، ﷺ . مع زعماء عرب يثرب - [المدينة]- من الأوس والخزرج . وكانت مبايعتهم له على : الإيمان «بالدين» الجديد ، والتأسيس «للدولة» الجديدة . . ولقد تمت هذه اللقاءات فى مواسم الحج المتعاقبة ، بعد البعثة وقبيل الهجرة . . ومن المؤرخين من يجعلها اثنتين ، ومنهم من يعدها ثلاثاً . . وهى ، على الرأى الثانى :

بيعة العقبة الأولى : وكان المبايعون فيها من الخزرج فقط ، وعددهم ستة ، هم : أبو أمامة أسعد بن زرارة ، وعوف بن الحارث ابن رفاعة- [ابن عفراء]- . ورافع بن مالك بن العجلان ، وقطبة بن عامر بن حديدة ، وعقبة بن عامر نابى ، وجابر بن عبدالله بن رئاب .

وكانت بيعتهم على الإيمان بالإسلام ، بعد أن عرضه عليهم الرسول ودعاهم إليه . ومما أعان هذا النفر من الخزرج على الاستجابة ، وأسرع بهم للبيعة ، ما كان بينهم وبين جيرانهم من يهود يثرب من صراعات ، ولم يكن لتأسيس «الدولة» مكان ملحوظ فى عقد هذه البيعة .

بيعة العقبة الثانية: وتمت فى موسم الحج الذى تلا البيعة الأولى . . وكان عدد المبايعين فيها اثنى عشر رجلاً ، اثنين من الأوس وعشرة من الخزرج- منهم خمسة من الستة الذين عقدوا البيعة الأولى- وهم - من الخزرج- : أبو أمامة أسعد بن زرارة ، وعوف بن الحارث بن رفاعة - [ابن عفراء]- ، ورافع بن مالك بن العجلان ، وقطبة بن عامر بن حديدة ، وعقبة بن عامر بن نابى ،

ومعاذ بن الحارث بن رفاعة ، وذكوان بن عبد القيس الزرقى ، وعبادة بن الصامت بن قيس بن أصرم . وأبو عبد الرحمن بن يزيد بن ثعلبة البلوى . والعباس بن عبادة بن نضلة . أما اللذان بايعا من الأوس فهما : أبو الهيثم بن التيهان . وعويم بن ساعدة .

ولم يكن تأسيس الدولة- ولا القتال- ملحوظاً فى عقد هذه البيعة أيضاً ، وإنما كانت بيعتهم على أن : لا يشركوا بالله شيئاً ، ولا يسرقون ، ولا يزنون ، ولا يقتلون أولادهم- [وأد البنات]- . ولا يأتون ببهتان . ولا يعصون الله فى معروف .

وعقب البيعة ، وعند عودتهم إلى يثرب . بعث معهم الرسول اثنين من أصحابه لتعليم القرآن والدين والدعوة إليه . وهما : عبدالله بن أم مكتوم ، ومصعب بن عمير .

بيعة العقبة الثالثة: وكانت فى الموسم التالى لموسم البيعة الثانية ، وبعدها تمت هجرة الرسول من مكة إلى المدينة . . وكان المبايعون فيها خمسة وسبعين ، منهم امرأتان . . ولقد مثل الأوس فى هذا العدد أربعة عشر ، وكان للخزرج الباقى . .

وفى عقد هذه البيعة وضحت البنود السياسية لتأسيس «الدولة» الجديدة- إلى جانب الإيمان «بالدين الجديد»- فلقد اتفقوا على هجرة الرسول وأصحابه إلى بلدهم . وأخذ لنفسه المواثيق والضمانات ، واتفقوا على حفظه وحمايته ومنعه مما يمنعون منه أنفسهم ونساءهم وأبناءهم ، وبايعوه على أن يحاربوا معه «الأسود والأحمر» ، أى كل من يعاديه ويعتدى عليه وعلى دعوته فى موطنه الجديد .

ومن هذا النفر، الذين غدوا أشبه ما يكونون «بالجمعية التأسيسية» للدولة العربية الإسلامية، اختار الرسول اثنى عشر نقيباً، أصبحوا هم قادة الأنصار فى مجتمع المدينة المسلم، تسعة من الخزرج. هم: أبو أمامة أسعد بن زرارة، وسعد بن الربيع، وعبد الله بن رواحة، ورافع بن مالك بن العجلان، والبراء بن معرور، وعبد الله بن عمرو بن حرام، وسعد بن عبادة بن دليم، والمنذر بن عمرو بن خنيس، وعبادة بن الصامت... وثلاثة من الأوس. هم: أسيد بن حضير، وسعد بن خيثمة بن الحارث، ورفاعة بن عبد المنذر.

والمؤرخون الذين يجعلون «بيعة العقبة» بيعتين، لا ثلاثاً، يسقطون من حسابهم الأولى، ويجعلون الثانية هى الأولى، والثالثة هى الثانية.. وواضح للمتأمل على أنها، جميعاً، بيعة واحدة، تمت على مراحل، وتطورت بنود عقدها، ونما محتواه حتى أصبح عقد تأسيس «دولة»، بعد أن بدأ بالاستجابة والاهتداء، فقط، إلى الإسلام «كدين»..

وغير بيعة تأسيس الدولة العربية الإسلامية الأولى، وبيعة تأسيس دولة الخلافة الراشدة، يذكر تراثنا وتاريخنا - بعد القرآن الكريم- :

بيعة الرضوان (تحت الشجرة): ولقد تمت فى الحديبية- وهى قرية سميت باسم بئر- وبينها وبين مكة مسيرة يوم-.. وكان المسلمون قد خرجوا من المدينة إلى مكة قاصدين العمرة فى ذى القعدة سنة ٦ هـ (مارس- إبريل سنة ٦٢٨م). فاعترضت قريش طريقهم، وأبت السماح لهم بأداء شعائر العمرة فى بيت الله بمكة

- ولم تكن قد فتحت- فأقام المسلمون بالحديبية ، وبعث الرسول إلى قريش عثمان بن عفان ، مفاوضاً ، فاحتجزته قريش ، وشاع أنهم قتلوه . فأعلن الرسول ، ﷺ في المسلمين : لا نبرح حتى نناجز القوم .. ودعا الناس إلى «البيعة» على القتال . فتمت «البيعة» تحت شجرة هناك .. والمؤرخون مختلفون في عدد للبايعين يومئذ . فمنهم من يقول إنهم ألف وثلثمائة . ومنهم من يجعلهم ألفاً وخمسمائة وخمسة وعشرين .. الخ .. الخ .. ولقد أشار القرآن الكريم إلى هذه البيعة عندما قال الله فيها : ﴿ لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما في قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحا قريبا ﴾ [الفتح : ١٨] .

ومنذ ذلك التاريخ . تاريخ تأسيس الدولة العربية الإسلامية . وتبلور التراث السياسي العربي الإسلامي . اتخذ مصطلح البيعة تلك المعاني . واستمر كذلك حتى الآن .

ولقد اتفقت كل فرق الإسلام . باستثناء الشيعة ، على أن «البيعة» هي الطريق لتولي الخليفة والإمام السلطة العليا بالدولة .. أما الشيعة فانفردوا بجعل الإمامة شأناً سماوياً . أوصى به الله سبحانه إلى نفر بذاتهم وعينهم بذواتهم لهذا المنصب . ومن ثم فلا مكان فيه للبيعة . ولا رأي فيه للمبايعين- [انظر مصطلح : «الإمام»]- .

- ٢٠ -

الإمام

الشائع فى التراث السياسى الإسلامى، وفى مباحث علم الكلام أن مصطلح الإمام مرادف لمصطلحى: الخليفة، وأمير المؤمنين.. وأن «الإمامة» هى: الخلافة، وإمارة المؤمنين.. لكن هذا الشائع ليس بدقيق!

فدولة الخلافة ونظامها بدأت عقب وفاة الرسول ﷺ. وكان «الخليفة» أو خليفة رسول الله، هو لقب أبى بكر الصديق، أول الخلفاء.. ولا نجد له فى وثائق عصره لقباً سواه.

وبعد أبى بكر اختار عمر بن الخطاب- وهو الخليفة الثانى- لنفسه لقب: «أمير المؤمنين» لأسباب وملابسات ذكرها المؤرخون.. ومصطلح «الأمير» لم يكن مستحدثاً، فلقد عرفته الدولة العربية الإسلامية منذ العهد النبوى، بل وكان مألوفاً فى الحياة السياسية العربية قبل ذلك العهد.. لكنه كان مخصصاً بوظيفة أو إقليم، فهناك أمير الجيش، أو أمير الصدقات، أو أمير إقليم من الأقاليم أو مصر من الأمصار... الخ. فلما كانت معركة «القادسية»، وفيها احتشد جمهور المؤمنين لقتال الفرس، سمى الناس أمير الجيش- سعد بن أبى وقاص- بأمير المؤمنين، فوجد الخليفة عمر أنه الأحق بهذا اللقب، وأنه هو الأوفق بالمنصب الذى يتولاه.. ولقد زاد فى تزكية هذا اللقب عند عمر أنه مشتق من «الأمر»، وهو المصطلح الدال على السياسة فى القرآن والأدب

السياسي لذلك العصر ﴿وأمرهم شورى بينهم﴾ [الشورى: ٣٨]- و «الائتمار» هو التشاور، فهو بعيد عن شبهة خلط سلطة الخليفة بالسلطان الديني للنبوة الذي انقضى بوفاة الرسول، عليه الصلاة والسلام.. ولقد كان عمر حريصاً على اتقاء هذه الشبهات.. فاختار عمر لنفسه لقب «أمير المؤمنين»، ولم نجد له في وثائق عصره لقباً سواه.

ولقد استمر عثمان بن عفان، وعلى بن أبى طالب على نهج عمر، وإن وجدنا عثمان يتلقب بلقب الخليفة في بعض الأحيان.. وشاع اللقبان في الدولة الأموية وما تلاها..

حتى كان النصف الثانى من القرن الهجرى الأول، عندما تبلور للشيعة، كفرقة، فكرها النظرى فى المنصب الأعلى بالدولة، وهو الفكر الذى انفردت فيه من دون فرق الإسلام بالقول بالطبيعة الدينية لهذه السلطة ولصلاحيات صاحبها، وبأن هذا المنصب والتعيين فيه إنما هما من شئون السماء، لا مدخل فيهما للبشر. لا بالاختيار ولا بالمحاسبة ولا بالعزل؛ لأن السماء قد اختارت أصحاب هذا المنصب وعينتهم وأوصت بذلك إلى الرسول، عليه الصلاة والسلام.. بعد أن تبلور الشيعة فكرها النظرى هذا، وانفردت بصبغ هذه السلطة بالصبغة الدينية، وجدناها قد اختارت لصاحب هذا المنصب لقباً يدل على الطبيعة الدينية لسلطات صاحبه، وهو لقب «الإمام»!.. فمصطلح «الإمام» يستخدمه القرآن في مقام المسئوليات الدينية، لا السياسية، فهو خاص بالنبوة والتقوى أكثر مما هو دال على صاحب السلطان السياسى غير

الديني . . ﴿ وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن قال إني جاعلك للناس إماما ﴾ [البقرة : ١٢٤] - أي نبياً . . ﴿ يوم ندعو كل أناس بإمامهم ﴾ [الإسراء : ٧١] - أي بنبيهم ، أو كتاب دينهم .

ولما كان الشيعة هم طلائع المؤلفين في هذا الفن ، ولما كان هذا المصطلح - الإمام - والإمامة - هو الذي شاع في تآليفهم - ولما كانت كتابات خصومهم - وفي طليعتهم المعتزلة - قد جاءت ، في هذا المبحث رداً عليهم وجدلاً معهم ، فلقد استخدم هؤلاء الخصوم ذات المصطلح في أغلب الأحيان . . وهكذا شاع في التراث السياسي الإسلامي وفي مباحث علم الكلام مصطلح «الإمام ، والإمامة» للدلالة على «الخليفة ، والخلافة - وأمير المؤمنين ، وإمارة المؤمنين» : وذلك رغم الفروق الدقيقة ، والجوهرية ، بين هذه المصطلحات ! . .

ولا أدل على هذه الفروق من استخدامات الشيعة أنفسهم فهم قد يلقبون الحكام من غيرهم بالخلفاء ، ولكنهم لا يلقبونهم بالأئمة . . وأئمتهم أئمة حتى ولو لم يتولوا السلطة الزمنية ، لأن لهم ، وفق نظريتهم ، السلطة الدينية بالنص والتعيين من السماء ، فإذا أصبحوا حكاماً زمنيين لقبوهم أيضاً بأمراء المؤمنين . . فأئمة الشيعة الإسماعيلية كانوا أئمة حتى أبي عبدالله ، مؤسس الدولة الفاطمية ، فلما ظهرت دعوته بالقيروان سنة ٩٠٩م وأصبحت له سلطة زمنية تلقب بالخليفة وبأمير المؤمنين أيضاً . .

وفي شروط الإمام - (جرياً على الشائع في استخدام المصطلح!) - كما في مصطلحه وطبيعة سلطانه نجد الخلاف الأساسي في

التراث الإسلامى بين الشيعة وبين سائر فرق الإسلام غير الشيعية .

فالإمامة ، عند الشيعة ، امتداد للنبوة ، وهى تقاس عليها ، ومهام الإمام هى مهام النبى ، بل أعم! . . ولذلك فإن من شروط الإمام :

١ - أن يكون معصوماً من الخطأ ، صغيراً كان الخطأ أو كبيراً . .

٢ - وأن يكون أفضل الخلق فى الدين . .

٣ - وأن يكون عالماً بالسياسة ، وبجميع أحكام الشريعة ، وحجة فيها ، بحيث لا يحتاج إلى غيره . . وأن يكون أشجع الخلق . . الخ .

أما عند غير الشيعة من الفرق فإن الإمامة هى مستوى أعلى فى «الحكم» ، وعليه تقاس ، ولا علاقة لطبيعتها بطبيعة النبوة ، ومن ثم فإن شروط الإمام هى الشروط الواجب توافرها فى إنسان يتولى منصب الحاكم الأعلى فى الدولة . . وبعد الاتفاق على طبيعة السلطة اختلفوا فى تعداد الشروط ، تبعاً للإجمال والتفصيل ، وانطلاقاً من مواقع اجتماعية متباينة وأفكار سياسية متنايرة . . وجمهور المتكلمين ومفكرى السياسة فى التراث الإسلامى يشترطون فى الإمام :

١ - العدالة . . بمعنى أن لا يكون فاسقا ، سواء فسق رأى أو جارحة . . والفاسق هو من يرتكب ذنباً من الكبائر دون توبة . . وهذا الشرط لا يشترطه أحمد بن حنبل ، إذ يطلب الاعتراف بإمامة الفاسق إذا تغلب على السلطة ، ويرى ذلك ضرراً أخف من ضرر الثورة والمقاومة! .

٢ - العلم . . المؤدى إلى الاجتهاد فى الأمور الطارئة والحادثة والأحكام . .

٣ - سلامة الحواس . . من السمع والبصر واللسان ، ليتأتى له مباشرة سلطانه . .

٤ - سلامة الأعضاء . . بحيث تسلم من النقص الذى يعوقه عن مهامه . .

٥ - الرأى . . بمعنى أن يكون ذا قدرات تفضى به إلى حسن سياسة الرعية وتدبير مصالحها . .

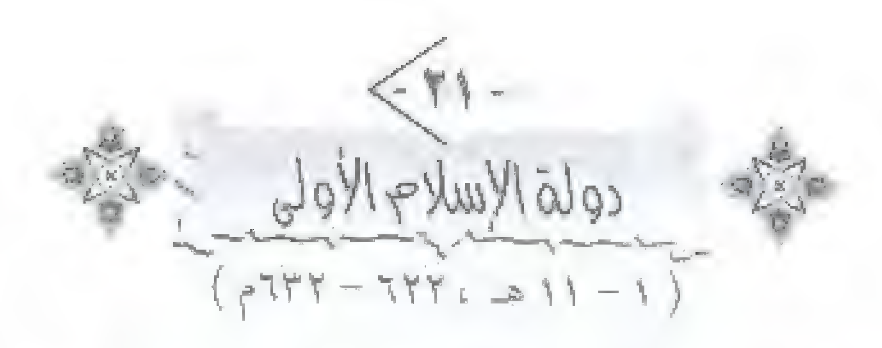
٦ - الشجاعة والنجدة . . المؤدية إلى حماية الوطن وجهاد العدو . .

٧ - النسب القرشى . . بأن يكون من قريش . . وقدامى المتكلمين ، خوارج ومعتزلة ، لم يشترطوا هذا الشرط . . وهو لم يظهر فى هذا المبحث إلا بعد أن ظهرت الشعوبية والعداء للعرب ، وبعد تغلب الأسر غير العربية على أطراف الدولة وسيطرتهم الفعلية على الخلافة وطمعهم فيها ، فى العصر العباسى الثانى ، فكان ظهور هذا الشرط رمزاً للولاء للعروبة ، ورفضاً للسلطة غير العربية على الأمة العربية .!

وجمهور المتكلمين ومفكرو السياسة ، من غير الشيعة ، متفقون على حق الأمة ، ممثلة فى «أهل الحل والعقد» ، فى الرقابة على تصرفات الإمام . . والتيار الغالب منهم يجعل الثورة واحدة من الطرق التى على الأمة أن تسلكها لخلع الإمام إذا ما كفر ، أو فسق ، أو ضعف عن النهوض بالمهام التى أوكلت إليه الأمة

النهوض بها . . يرى ذلك : الخوارج ، والمعتزلة ، والزيدية ، وكثير من المرجئة ، وعدد من أئمة الأشعرية . . ويعارض ذلك أهل الحديث ، بزعامة أحمد بن حنبل (١٦٤- ٢٤١هـ / ٧٨٠- ٨٥٥م) وجمهور من أئمة الأشعرية . . والذين أوجبوا «الثورة» - عند الاقتضاء- طريقاً للتغيير انطلقوا إلى قولهم هذا من الموقف القرآني والأصل الإسلامي الذي يوجب على المسلمين الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وهو الموقف والمبدأ الذي يجعل «الفعل» مقدماً على «القول» إذا ما وازن الإنسان بين أدوات التغيير . . فقد ورد في القرآن الكريم : ﴿ ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ﴾ [آل عمران : ١٠٤]- والرسول ، ﷺ يقول : «من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان»] .





- ٢١ -

دولة الإسلام الأولى

(١ - ١١ هـ ، ٦٢٢ - ٦٣٢م)

وهى أول دولة للعرب المسلمين فى التاريخ . وكانت السلطة العليا فيها لنبى الله ورسوله محمد بن عبدالله - ﷺ - وفى المدينة . (يثرب)- مارست هذه الدولة سلطتها ونظمت مجتمعها ووضعت دستورها الأول . وكان ذلك منذ السنة الأولى للهجرة غير أن عقد تأسيس هذه الدولة يعود تاريخه إلى ما قبل الهجرة بثلاث سنوات . ففى ثلاثة مواسم للحج ، متتالية ، قبل الهجرة ، كان التعاقد على تأسيسها يتم . ويتأكد . ويتزايد العاقدون له والقابلون بتنفيذ بنوده .

ولقد كانت البداية ، عندما لقى الرسول ، فى موسم الحج ، بمكة ، ستة من سكان يثرب ، كلهم من قبيلة الخزرج ، فعرض عليهم دينه ودعاهم إلى دعوته فأجابوه . وتعاقدوا معه على الهجرة إلى بلدهم . ودعوة قومهم لدينه . وقيادتهم فى بناء مجتمع جديد يتوحد فيه الأنصار ، وتعلو فيه كفتهم على كفة اليهود الذين كانوا يمارسون فى يثرب وضع الغزاة الذين حولوا عربها إلى «موالى»- مواطنين من الدرجة الثانية .

والذى يؤكد هذا الطابع السياسى الذى اشتمل عليه عقد تأسيس هذه الدولة- إلى جانب أمور الدين الخالصة- أن الرسول

عندما لقى هؤلاء النفر سألهم : من أنتم؟ قالوا: نفر من الخزرج. قال: أمن موالي يهود؟ قالوا: نعم. قال: أفلا تجلسون أكلمكم؟ قالوا: بلى. فجلسوا معه . فدعاهم إلى الله . وعرض عليهم الإسلام .

ويذكر المؤرخون جميعاً دور العامل السياسى فى استجابة هؤلاء النفر من الأنصار لدعوة الإسلام وتسابقهم لإبرام عقد تأسيس هذه الدولة . عندما يتحدثون عن أن اليهود كانوا يقيمون بيثرب ،وأنهم أهل كتاب وعلم. بينما كان الأنصار أهل شرك وأوثان. وكانوا قد غزوهم ببلادهم. فكانوا إذا كان بينهم شىء قالوا لهم: إن نبياً مبعوث الآن. قد أظل زمانه. نتبعه فنقتلكم معه قتل عاد وإرم.. فلما كلم رسول الله أولئك النفر من الخزرج. قال بعضهم لبعض: يا قوم. والله إنه للنبي الذى توعدكم به يهود. فلا تسبقنكم إليه. فأجابوه فيما دعاهم إليه.. وقالوا له: إنا قد تركنا قومنا ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم. وعسى أن يجمعهم الله بك. فتقدم عليهم فتدعوهم إلى أمرك. وتعرض عليهم الذى أجبناك إليه من هذا الدين. فإن يجمعهم الله عليك فلا رجل أعز منك..»

وفى موسم الحج التالى . بعد عام . بلغ عدد الأنصار الذين جددوا هذا التعاقد وأكدوه اثنى عشر رجلا . فيهم إثنان من قبيلة الأوس والباقون من الخزرج . . وبعد عام ارتفع عدد المبايعين المتعاقدين على تأسيس هذه الدولة فى بيعة العقبة الثالثة إلى ثلاثة وسبعين رجلاً وامرأتين . مثل الأوس فيهم أحد عشر والباقون من الخزرج . وقادهم فى عقد البيعة اثنا عشر نقيباً تسعة منهم من الخزرج وثلاثة من الأوس . . أبرموا عقد تأسيس الدولة العربية

الإسلامية الأولى، واتفقوا على أن عاصمتها هى (المدينة)-يثرب- يحكم منها الرسول ويقيم فيها حتى بعد أن يفتح الله عليه مكة التى ولد ونشأ فيها..

وفى يثرب. بعد الهجرة. بدأت الدولة الجديدة بناء المجتمع الجديد. كما شرعت فى إعداد العدة للدفاع عن هذا المجتمع ضد المشركين.. وفى التنظيم السياسى للمجتمع الجديد كانت القبائل المسلمة تكون جماعة مسلمة واحدة. ثم دخلت هذه الجماعة المسلمة فى حلف سياسى مع القبائل العربية غير المسلمة ومع القبائل اليهودية. يحمون بموجبه. جميعاً. يثرب وملحقاتها من غزو مشركى مكة ومن حالفهم من الأعراب.. واستمر هذا الحلف السياسى حتى عم الإسلام عرب يثرب وحتى نقضه اليهود أثناء غزوة الأحزاب (والخندق).

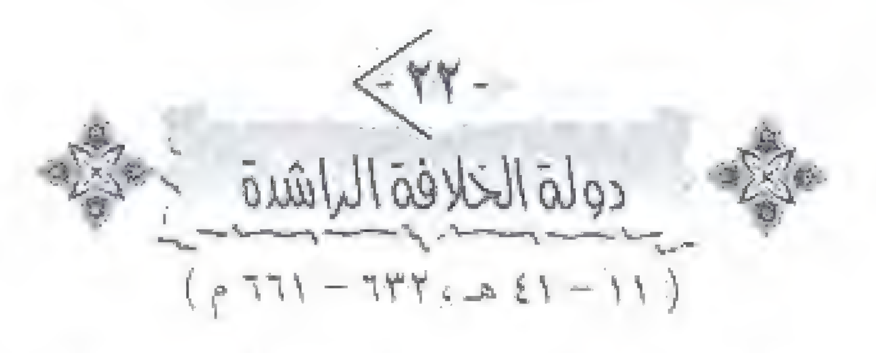
ولقد كوّن المهاجرون القرشيون حياً لقريش بالمدينة. فكانوا قبيلة قريش فى يثرب. وعقد الرسول بينهم مؤاخاة. ثم ضمتهم والأنصار مؤاخاة ثالية تشاركوا جميعاً بموجبها فى: ١ - الثروة وأمور المعاش ٢ - والحق. أى الدين والنصرة فيه ٣ - والميراث بعد الموت.. ثم نسخ الاشتراك فى الميراث. وتخصص بذوى الأرحام وبقيت المؤاخاة بين أعضاء المجتمع الجديد فى الثروة والحق.

وكانت قيادة القرشيين المهاجرين لتلك الهيئة التى كانت بمثابة حكومة للرسول عليه الصلاة والسلام وهى التى اشتهرت باسم «المهاجرين الأولين». وهم عشرة. أحاطت بيوتهم. مع الرسول.

بالمسجد . الذى كان دارا للحكومة . واختصوا بأبواب تربط بين بيوتهم وبين ساحة المسجد . . وكانوا فى الصلاة يقفون خلف الرسول . وفى القتال يقاتلون أمامه . . وفيهم كان تمثيل أهم بطون قبيلة قريش . . واشتهر فى الإسلام أنهم المبشرون بالجنة . . وبعد وفاة الرسول ظلت سلطة الخلافة خاصة بهم مقصورة عليهم . وكانوا حريصين على أن ينبهوا الأنصار إلى الفرق بينهم عندما قالوا لهم : نحن الأمراء وأنتم الوزراء - أى المستشارون - . ولقد بادر الثنان من هذه الهيئة بعقد الخلافة لثالث منها فى سقيفة بنى ساعدة - عندما عقد عمر وأبو عبيدة لأبى بكر - وشاورهم أبو بكر عندما أراد العهد إلى عمر . . وكون عمر من بقيتهم الأحياء - وكانوا ستة - مجلس الشورى الذى اختار عثمان بن عفان . . فكانت «هيئة المهاجرين الأولين» هى حكومة دولة المسلمين الأولى التى كان الرسول نبيها وحاكمها . . وهؤلاء المهاجرون الأولون هم : أبو بكر . وطلحة بن عبيد الله . وهما من تيم - وعمر بن الخطاب . وسعيد بن زيد - وهما من عدى - وعبد الرحمن بن عوف . وسعد بن أبى وقاص - وهما من زهرة - وعلى بن أبى طالب . وهو من هاشم - وعثمان بن عفان - وهو من أمية - والزبير بن العوام - وهو من أسد - وأبو عبيدة بن الجراح - وهو من فهر . . ومن المدينة . قاعدة الدولة الجديدة . خرجت القوات التى أمنت للدعوة الجديدة ودولتها الاستمرار والانتشار . والوفود والرسائل إلى القبائل والملوك والرؤساء . حتى تم فتح مكة . واعترفت قبائل شبه

الجزيرة وحواضرها بالسلطة السياسية الجديدة التى وحدت العرب تحت رايات الإسلام . . وبين هذه القبائل . فى مضاربها وفى حواضرها . بدأت تتكون وتنمو قسمات جهاز الدولة الجديدة . فكان هناك : قضاة . وعمال يجبون الصدقات . إلى أن تأسست قواعد جهاز الدولة وبلغت ذروة نضجها فى دولة الخلافة الراشدة . خاصة على عهد خليفتها الثانى عمر بن الخطاب .





-٢٢-
دولة الخلافة الراشدة
(١١ - ٤١ هـ ، ٦٣٢ - ٦٦١ م)

تعتبر ثانية دول العرب المسلمين . وامتداداً لدولتهم الأولى التى أسسها وقادها الرسول محمد بن عبد الله ، عليه الصلاة والسلام . . وهى قد تكونت عقب وفاته مباشرة بعد جدل دار بين ممثلى المهاجرين الأولين ، وهم الحى المدنى من قبيلة قريش الذين سبق قادتهم إلى الإسلام واستوطنوا المدينة بعد هجرتهم من مكة . وممثلى الأنصار . وهم سكان المدينة الأصليون . وبالذات . قبيلتى الأوس والخزرج . . ولقد انتهى هذا الجدل . الذى تم فى سقيفة بنى ساعدة ، بأخذ البيعة لأبى بكر الصديق (٥١ ق هـ - ١٣ هـ) فأصبح أول خليفة فى دولة الخلافة الراشدة . تلك الدولة التى اتخذت من المدينة عاصمة لها . والتى استمر حكمها تسعة وعشرين عاماً .

ولقد قامت هذه الدولة على أساس من فلسفة الشورى . فكان خلفاؤها يتم تنصيبهم بشورى أهل الرأى فى العاصمة الذين كانوا يبايعون واحداً من هيئة «المهاجرين الأولين» العشرة أو «الصحابة» . الذين كانوا بمثابة حكومة الرسول . والذين اشتهروا بالعشرة المبشرين بالجنة . . فاختصت هذه الهيئة بالمنصب واختص رؤساء المدينة بالشورى والاختيار والبيعة ، أو إبداء الرأى والتصديق على ترشيح الخليفة القائم للخليفة الجديد .

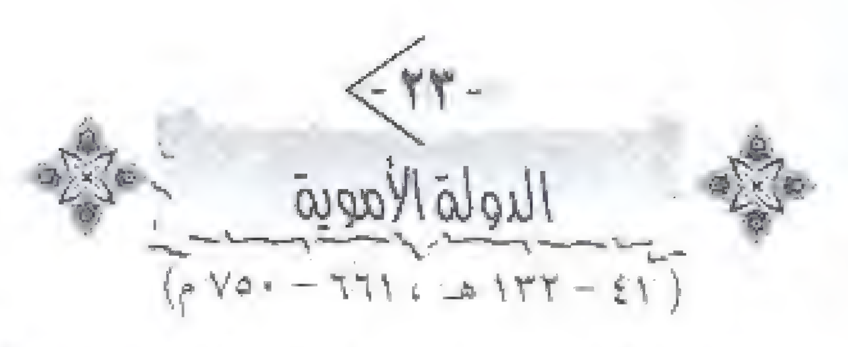
ومنذ البداية حرص خلفاء هذه الدولة على تأكيد طابعها المدنى والتمييز بين طبيعتها وطبيعة الدولة والسلطة فى عهد الرسول عليه الصلاة والسلام، وذلك لانقطاع الوحى. وتمام الدين. وتقرير أن سلطان النبى الدينى ليس قابلا للميراث. ومن هنا كان الحرص على أن لا تبدأ الخلافة فى الفرع الهاشمى من قريش حتى لا تكون فيها شبهة الميراث فتتأبد فى آل بيت الرسول.

وأخطر ما واجهته هذه الدولة، بعد قيامها، هو رفض القبائل العربية المسلمة، فى غير مكة والمدينة والطائف، الخضوع لسلطانها، وكان منع تسليم الصدقات للخليفة بادرة هذا الوهن الذى تعرضت له وحدة الدولة، فدارت تلك الحروب السياسية التى عرفت فى التاريخ «بحروب الردة»، وانتهت بإعادة وحدة عرب شبه الجزيرة.. ثم بدأت الدولة موجة فتوحاتها المظفرة ضد الدولة الفارسية فحررت العراق من نفوذها وطاردت جيشها حتى هزمته وأخضعت الفرس لحكم الخلفاء، كما حررت المستعمرات الشامية ومصر وأجزاء من شمالى إفريقيا من حكم الروم البيزنطيين، وأدخلتها جميعاً فى إطار دولة الخلافة.

وفى عهد عمر بن الخطاب (١٣ - ٢٣ هـ) ثانى خلفائها، وأبرزهم، اكتملت لهذه الدولة سمات الإمبراطورية، ووضعت الأسس لنظمها المالية والإدارية والعسكرية.. وفى عهد عثمان بن عفان (٢٣ - ٣٥ هـ) برزت الصراعات الاجتماعية والقبلية عندما ظهرت سيطرة بنى أمية على عصب الأجهزة المالية والإدارية فى الدولة، حتى بلغت الحد الذى يمكن معه اعتبار سنوات حكمه

الستة الأخيرة هى فترة التأسيس للدولة الأموية التى كرس انتصارها ، فيما بعد ، معاوية بن أبى سفيان (٢٠ ق هـ - ٦٠ هـ ، ٦٠٣ - ٦٨٠م) . . وبعد أن انتهت هذه الصراعات بثورة احتلت العاصمة وقتلت الخليفة عثمان ، بايع الثوار علياً بن أبى طالب (٢٣ ق هـ - ٤٠ هـ ، ٦٠٠ - ٦٦١م) ولكن الأمويين وأنصارهم ، من أهل الشام خاصة ، رفضوا الاعتراف بخلافته ، واستمر صراعهم ضده وضد أنصاره ، الذين كان أغلبهم من أهل العراق ، حتى استشهد على ، وآلت مقاليد السلطة إلى معاوية ، فانتهت بذلك فترة حكم الخلفاء الراشدين .

أما وصف «الراشدة» الذى أطلق على هذه الدولة ، ووصف «الراشدين» الذى وصف به خلفاؤها . فلعل له صلة بطابعها المدنى . . فالإنسان كان ولا يزال خليفة لله فى الأرض ، وقبل ختام دورة النبوة والرسالة ، كان هذا الخليفة تحت وصاية السماء ، تبعث إليه الرسل والأنبياء كلما انحرف عن الشريعة ، أما ختام الرسالات والنبوات بمحمد ﷺ فإنه المؤذن ببلوغ الإنسان مرحلة «الرشد» ، وهنا ترتفع عنه الوصاية ، وتصبح السلطة في دولته ذات طابع مدنى ، وليست سلطة دينية كما كانت ، مثلاً ، فى تاريخ العبرانيين . . فهذا الإنسان ، الخليفة «الراشد» ، قد أصبح يحكمه «خلفاء راشدون» .



- ٢٣ -
الدولة الأموية
(٤١ - ١٣٢ هـ ، ٦٦١ - ٧٥٠ م)

وسميت بذلك لأن مؤسسها هو معاوية بن أبى سفيان بن أمية ، ولقد كانت عصبية قريش متجلية فى الفرع الأموى أكثر من تجليها فى أى فرع آخر من فروع هذه القبيلة ، فتوارث أبناء هذا الفرع المسؤليات والمناصب ذات الخطر المادى والعسكرى فى مكة منذ ما قبل الإسلام ، فلما كانت النبوة والرسالة فى الفرع الهاشمى لعب الأمويون دوراً قيادياً فى مناهضة الإسلام ورسوله ، حتى دانوا بالدين الجديد مخافة القتل عندما فتحت مكة بجيش الإسلام (سنة ٨ هـ) .

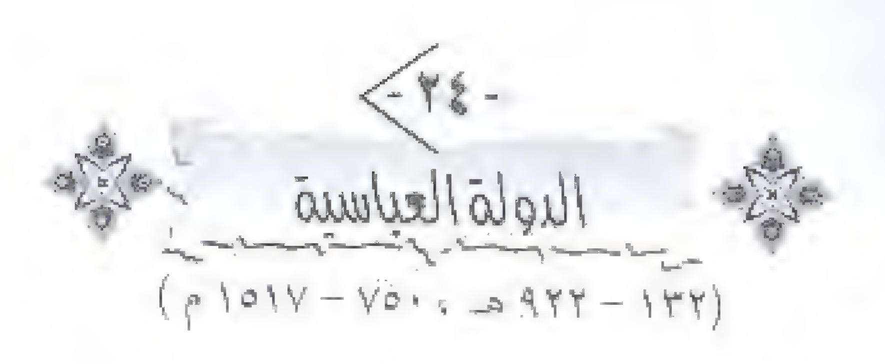
وبعد وفاة الرسول كان الأمويون دعاة لجعل السلطة فى قريش لا فى الأنصار ، وعندما ولى الخلافة عثمان بن عفان بن أبى العاص ابن أمية ، اتخذ الأمويون هذا الظرف سبيلاً لفرض سيطرتهم على مقاليد دولة الخلافة ، مما أدى إلى ثورة قتلت عثمان ونصبت علياً ابن أبى طالب ، فناهضوها ورفضوا الاعتراف بشرعية تغييراتها السياسية ، ومضوا فى طريقهم حتى اجتمع لهم الأمر بقيادة معاوية بن أبى سفيان (سنة ٤٠ هـ ٦٦١ م) عندما خلص لهم الحكم فتأسست دولتهم واتخذوا دمشق عاصمة لها .

وفى العهد الأموى اكتملت للعرب مقومات إمبراطوريتهم ،

وعرفوا عدداً من الخلفاء الذين دخلوا التاريخ كساسة ورجال دولة من الطراز الأول في ذلك التاريخ ، كما امتدت رقعة الدولة لتشمل شعوباً وأقطاراً جديدة ، ولكن اعتمادهم على سلاح العصبية القبلية قد امتد ليميز ما بين المواطنين من أصل عربي والآخرين المتحدرين من أصلاب غير عربية - الموالي - فخلق ذلك المناخ ردود فعل تمثلت في الحركات الشعوبية المناهضة للعروبة ودولتها ، كما استمر اضطهادهم ، بل وتصاعد ، ضد بني هاشم وآل بيت الرسول ، مما مكن كل الخارجين عليهم من التستر برايات آل البيت ذات الظلال المهيبة والتأثير الكبير ، فتعرضت الدولة لثورات شبه مستمرة من قبل : الخوارج ، والشيعة ، والمعتزلة ، وأشراف مكة الذين تزعمهم عبدالله بن الزبير (١ - ٧٣ هـ ٦٢٢ - ٦٩٢ م) .

ولم ينقذ الدولة من الانهيار المبكر سوى خليفتها الفذ عبد الملك بن مروان (٢٦ - ٨٦ هـ ، ٦٤٦- ٧٠٥ م) فأتاح لعمرها أن يمتد حتى يشهد تولي أربعة عشر خليفة للحكم فيها . كان آخرهم مروان بن محمد (١٢٧ - ١٣٢ هـ ٧٤٤ - ٧٥٠م) الذي ختمت الثورة الهاشمية عهده وعهد الدولة الأموية بنقلها السلطة والسلطان إلى العباسيين .

ولكن نهاية الحكم الأموي بدمشق لم يكن ختام صفحات حكمهم ، فلقد فر أحد أمراء البيت الأموي ، وهو عبد الرحمن الداخل ، حفيد خليفتهم العاشر هشام بن عبد الملك ، فبلغ أرض الأندلس (١٣٧هـ ، ٧٥٥م) وأسس هناك الإمارة ، ثم الخلافة الأموية بالأندلس ، وهي التي شهدت عصر الازدهار الحضاري الذي تتلمذت عليه أوروبا ، واستمر بها الحكم الأموي حتى (٤٢٤ هـ ، ١٠٣١ م) .



- ٢٤ -
الدولة العباسية
(١٣٢ - ٩٢٢ هـ ، ٧٥٠ - ١٥١٧ م)

خليفتها الأول (أبو العباس) عبدالله بن محمد ، السفاح (١٣٢ - ١٣٦ هـ ، ٧٥٠ - ٧٥٣) . . ومؤسسها الحقيقى هو خليفتها الثانى أبو جعفر عبد الله بن محمد المنصور (١٣٦ - ١٥٨هـ ، ٧٥٣ - ٧٧٤م) . . وهى أطول دولة الإسلام عهداً ، فلقد امتد زمن حكم خلفائها أكثر من سبعمائة عام . . وبلغ عدد خلفائها أربعة وخمسين خليفة . . ولكن هذه الدولة قد مرت بثلاثة أدوار :

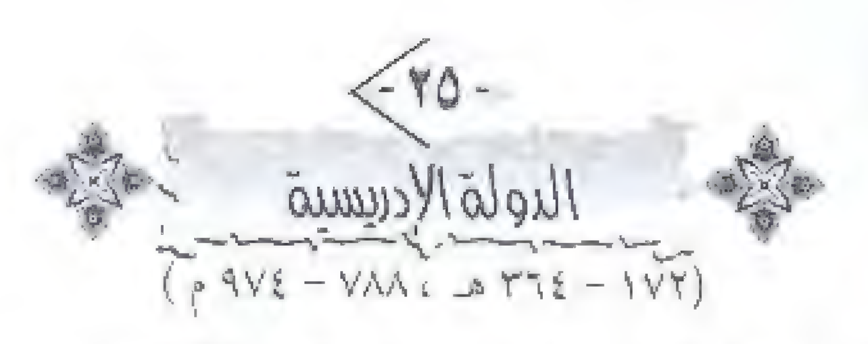
١ - دور الازدهار: الذى امتد منذ تأسيسها (سنة ١٣٢ هـ ، ٧٥٠م) حتى نهاية عهد خليفتها العاشر المتوكل (٢٤٧ هـ ، ٨٦١ م) . . وفى هذه الفترة التى بلغت مائة وخمسة عشر عاماً شهدت الدولة ذلك الازدهار المادى والارتقاء الفكرى اللذين كونا ملامح الحضارة العربية الإسلامية وجسدا ما نسميه بالعصر الذهبى لهذه الحضارة ، فأصبح لنا وللإنسانية ذلك التراث الخالد المضىء .

٢ - دور المحافظة والتفكك : الذى بدأ بعد المتوكل وانتهى بمقتل آخر خلفائها ببغداد- أبو أحمد عبدالله المستعصم بالله- على يد هولاكو فى ١٤ صفر ٦٥٦ هـ ، ١٢٥٨م- وفى هذا العهد تميزت فكرية الدولة بالمحافظة أو الجمود ، وانتقلت أنشطة الفكر ومراكز ازدهاره إلى الدويلات التى تكونت واقتسمت جسم

الإمبراطورية ، حتى عاشت بغداد ، العاصمة ، وخليفتها أسرى لبعض سلاطين هذه الدويلات . ولم يكن للخليفة فى أغلب سنوات ذلك الدور سوى اللقب الذى يضرب على السكة (النقد) والدعاء لاسمه على المنابر يوم الجمعة . . ولقد استنفد هذا الدور من عمر الدولة أربعة قرون وتسع سنوات ، توالى فيها على عرشها سبع وعشرون خليفة .

٣ - **دور الخلافة الشكلية** : الذى بدأ بنقل المماليك فى مصر مركز الخلافة العباسية إلى القاهرة ببيعتهم أبا القاسم أحمد المستنصر بن الظاهر خليفة فى ١٣ رجب ٦٥٩هـ ١٢٦١م . . وتوالى من بعده خلفاء ليس لهم من الأمر شىء ؛ بلغ عددهم سبع عشرة خليفة ، كان آخرهم المتوكل الثالث بن المستمسك الذى فتح العثمانيون على عهده مصر ، فانتهت بهذا الفتح قصة الخلافة العباسية ٩٢٢ هـ ، ١٥١٧م .

والدولة العباسية ، مثلها فى ذلك مثل الدولة الأموية ، قام نظام الحكم فيها زمن قوتها على فلسفة التوارث ، المغلفة بولاية العهد وأخذ البيعة من ولاة الأمر للخليفة المرشح فى عهد الخليفة صاحب السلطان . أما فى عهود ضعفها فكان منصب الخلافة لعبة لرؤساء الجند وسلاطين الدويلات الذين فرضوا نفوذهم الحقيقى على عرش بغداد .



- ٢٥ -

الدولة الإدريسية

(١٧٢ - ٣٦٤ هـ ، ٧٨٨ - ٩٧٤ م)

تكونت دولة الأدارسة بالمغرب فى القرن الثانى الهجرى . وأميرها الأول هو إدريس (الأول) إدريس بن عبد الله بن الحسن (١٧٢- ١٧٧ هـ ، ٧٨٨ - ٧٩٣م) وهو أمير علوى شارك فى إحدى ثورات العلويين بالمدينة المنورة ضد المهدى العباسى ، وبعد فشلها فر إلى المغرب حيث كانت قد استقرت هناك جماعة من ثوار آل البيت الذين كانوا على مذهب المعتزلة . بعد فشل ثورتهم ضد المنصور العباسى بالمدينة والبصرة سنة ١٤٥ هـ ، سنة ٧٦٢ م . . وكانت قيادة معتزلة المغرب هؤلاء لإسحاق بن محمود بن عبد الحميد ، الذى استقبل الامير العلوى ، حيث قاد ثورتهم التى نجحت فى إقامة دولة الأدارسة كأول دولة شيعية- مذهبها الاعتزال- فى تاريخ الإسلام السياسى بالمغرب .

وفى البداية اتخذت مدينة «وليلى» عاصمة لها . ثم نقلت مقر حكمها إلى «فاس» بعد عشرين عاماً من تأسيسها ، وبسطت سلطانها على مدن : ترغة ، والبصرة ، والعلية ، وفاس ، ومطغره ، ووجدة ، وطنجة ، وتجرجر ، وورزيغة ، وورغة ، ووطيط وواطيل ، وياجرهان ، ووازقور .

ولقد تعاقب على الحكم فيها اثنا عشر أميراً ، وإن تكن السلطة

فيها قد انقسمت بعد موت أميرها إدريس الثانى (١٧٧ - ٢١٣ هـ ، ٧٩٣ - ٨٢٨ م) .

ولقد انتهت هذه الدولة بفعل التوسعات التى قام بها الفاطميون من جانب والضغط الذى مارسه ضدها خلفاء الأندلس الأمويون من جانب آخر . ولكنها ظلت تمثل لقرنين من الزمان ، التجسيد لحلم الثوار العلويين الذين تمذهبوا بمذهب المعتزلة ، فى الثورة على العباسيين ، والبديل عن ثورتهم المشرقية التى أخمدها المنصور والمهدى وغيرهما من خلفاء بنى العباس .





- ٢٦ -

دولة الأغالبة

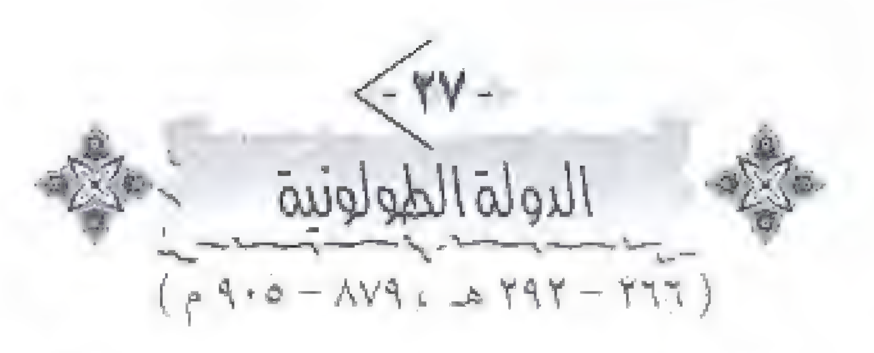
(١٨٤ - ٢٩٦ هـ ، ٨٠٠ - ٩٠٩ م)

دولة سنية أسسها في تونس - التي كانت تسمى «أفريقية» يومئذ - أول أمرائها : إبراهيم (الأول) ابن الأغلب بن سالم بن عقال ابن خفاجة بن سوادة التميمي (١٨٤ - ١٩٧ هـ ، ٨٠٠ - ٨١١م) وكان قبل استقلاله بهذه الإمارة أميراً عليها من قبل هارون الرشيد .

وقد أدى استقلال إفريقية الأغلبية عن العباسيين إلى انحسار سلطانهم عن المغرب ، لأن الأدارسة كانوا قد استقلوا بما هو إلى الغرب من إفريقية .

وكانت القيروان عاصمة الدولة الأغلبية ، وتحول مسجدها الجامع الذي أقاموه إلى واحدة من أقدم دور العلم في دول الإسلام ، وفي القرن الذي حكموا فيه هذه البلاد تم تعريبها وإسلامها ، فحلت العربية محل اللاتينية والإسلام مكان المسيحية . ونشط أسطول لهذه الإمارة في البحر المتوسط ففتح صقلية ووطد بها سلطان المسلمين ، كما استولى على مالطة وسردينيا ، وشن العديد من الغارات على الشواطئ الجنوبية لأوربا البحر المتوسط .

أما نهاية هذه الدولة فإنها قد جاءت عندما فر أميرها الحادي عشر : أبو مضر زيادة الله (الثالث) (٢٩٠ - ٢٩٦هـ ٩٠٣ - ٩٠٩م) أمام الفتح الفاطمي الذي تكونت بواسطته القاعدة الأولى لدولة الفاطميين .

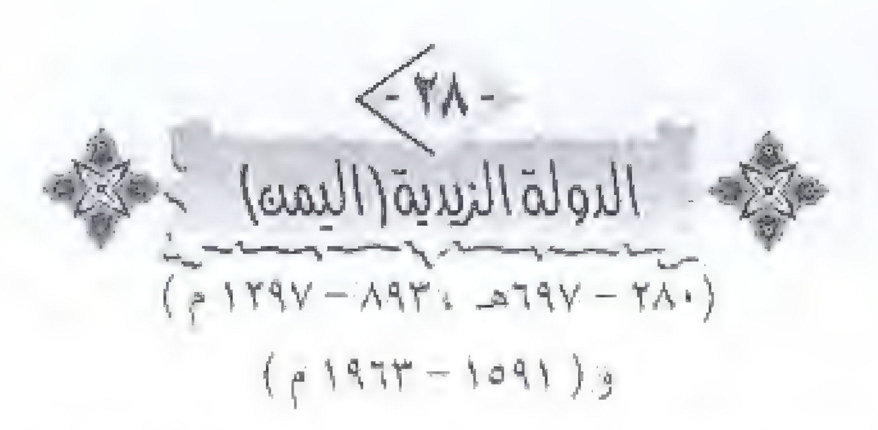


- ٢٧ -
الدولة الطولونية
(٢٦٦ - ٢٩٢ هـ ، ٨٧٩ - ٩٠٥ م)

قامت فى مصر فى ظل الدولة العباسية . ومؤسسها هو أحمد بن طولون (٢٢٠ - ٢٧٠هـ ، ٨٣٥ - ٨٨٤م) الذى عين نائباً لوالى مصر ، الغائب عنها ، فى ٢٥٤ هـ ، ٨٦٨م ، فدبر للاستقلال بها عن خلافة بغداد ، وكان انشغال الخلافة بثورة الزنج مناسبة لإعلان أحمد بن طولون استقلال مصر ٢٦٦ هـ ، ٨٧٩ م عندما رفض مساعدة الخلافة فى قمع ثورة الزنج . . ولقد استطاع ابن طولون أن يضم سورية إلى مصر تحت حكمه المستقل فى نفس السنة التى أعلن استقلالها عن خلفاء بغداد .

ولقد بنى ابن طولون مدينة «القطائع» عاصمة لدولته المستقلة . . وخلفه فى الحكم ابنه أبو الجيش خمارويه (٢٧٠ - ٢٨٢ هـ ، ٨٨٤ - ٨٩٥ م) . . ثم أبو العساكر جيش بن خمارويه (٢٨٢ - ٢٨٣ هـ ، ٨٩٥ - ٨٩٦م) . . ثم أبو موسى هارون بن خمارويه (٢٨٣ - ٢٩٢ هـ ، ٨٩٦ - ٩٠٤م) . . ثم أبو المناقب شيبان بن أحمد (٢٩٢ هـ ، ٩٠٥ م)

وبعد هذا التاريخ عادت تبعية مصر لخلافة بغداد ، بعد أن حققت لها الدولة الطولونية أول استقلال تمتعت به منذ عهد البطالسة ، وأول وحدة ضمتها مع سورية منذ الحكم الفرعونى القديم .



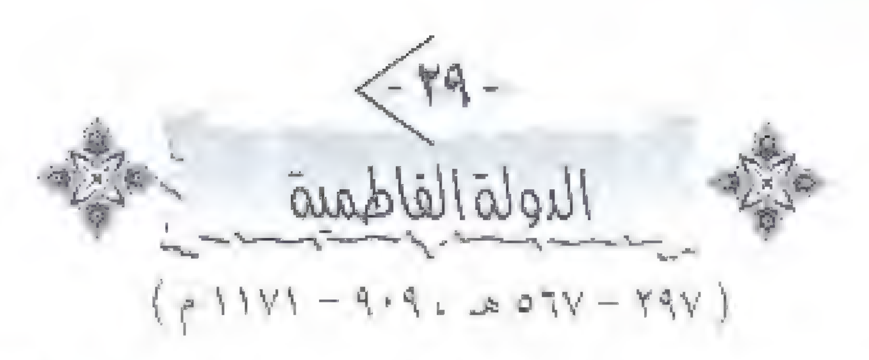
- ٢٨ -
الدولة الزيدية (اليمن)

(٢٨٠ - ٦٩٧هـ ، ٨٩٣ - ١٢٩٧ م)

و (١٥٩١ - ١٩٦٣ م)

أسسها بصعدة وصنعاء إمامها الشيعى الزيدى : الهادى إلى الحق يحيى بن الحسين بن القاسم الرسى ، بعد أن نجح فيما فشل فيه أسلافه من الرسيين الذين قاتلوا لإقامة دولة زيدية باليمن . . وبعد قيامها دخلت فى حروب عديدة ضد جيرانها ، ومنهم القرامطة والأيوبيون .

ولقد امتد عهدها الأول إلى عام ٥٦٩ هـ ١١٧٣ م حين انهزم إمامها على الوحيد بن حاتم أمام تور انشاه (الأول) الأيوبى . . وبدأ عهدها الثانى بإمامها المنصور عبد الله بن حمزة (٥٩٣ - ٦١٤ هـ ، ١١٩٦ - ١٢١٧م) وانتهى مع نهاية القرن السابع الهجرى . . ثم تلت ذلك دولة أئمة صنعاء الحديثة ، وهم زيدية كذلك ، وهى التى بدأت بإمامها القاسم المنصور بن محمد بن على بن محمد (١٠٠٠ - ١٠٢٩ هـ ، ١٥٩١ - ١٦١٩م) وظلت قائمة حتى ثورة اليمن فى ١٩٦٣ م .



(٢٩٧ - ٥٦٧ هـ ، ٩٠٩ - ١١٧١ م)

ينتسب خلفاؤهم إلى آل بيت الرسول ، عليه الصلاة والسلام ، فهم شيعة ، علويون فى نسبهم ، إسماعيليون فى مذهبهم .. ولقد تأسست دولتهم أول الأمر فى تونس واتخذت القيروان عاصمة لها ، ثم أقام خليفتها الأول المهدى أبو محمد عبيد الله (٢٩٧ - ٣٢٢ هـ ، ٩٠٩ - ٩٣٤ م) مدينة «المهدية» عاصمة لخلافته ٣٠٨ هـ ، ٩٢٠ م .

وفى عهد الخليفة الرابع : المعز لدين الله ، أبو تميم معد (٣٤١ - ٣٦٥هـ ، ٩٥٢ - ٩٧٥م) نجح قائده جوهر الصقلى (٣٨١هـ ، ٩٩٢م) فى فتح مصر (٣٥٨ هـ ، ٩٦٩ م) ، وفيها بنى مدينة القاهرة التى أصبحت عاصمة للخلافة الفاطمية بعد أن حضر إليها المعز لدين الله بأهله وبيت ماله ورجال دولته ، بل وبرفات أجداده (٣٦٣هـ- ٩٧٣م) .

ولقد اعتبر الفاطميون أن فتحهم لمصر ، واتخاذ القاهرة عاصمة لخلافتهم هو بداية لرجحان كفة دولتهم على دولة بنى العباس فى بغداد ، وسرعان ما امتد نطاق حكمهم ليشمل سورية . بل لقد حكموا من محيط الأطلسى حتى البحر الأحمر واليمن ومكة

ودمشق ، بل وبلغ سلطانهم الموصل وكادوا يقتحمون بغداد على خلفاء بنى العباس .

وكان الأسطول الفاطمى يفرض سلطانه على البحر الأبيض المتوسط ، بل ويهدد الشواطىء الجنوبية لأوربا .

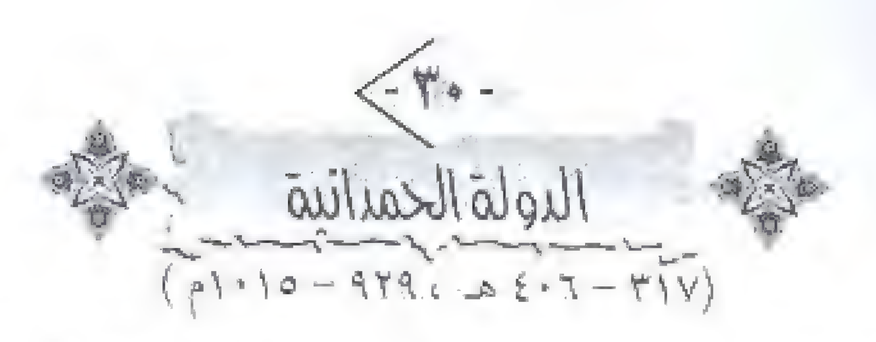
وفى عهدهم اكتملت لمصر قسمات عروبتها ؛ ورغم مذهب الدولة الشيعى المخالف لمذهب الشعب السنى فإن سماحة الخلفاء المذهبية قد ساعدت على امتزاجهم بأرض مصر وشعبها ، حتى كانت تسمى : الدولة المصرية ، ويطلق على جيشها : العساكر المصرية . . ومن **الأزهر** ، الذى تحول من مسجد جامع إلى جامعة فكرية ، ومن دار الحكمة التى أنشأها خليفتهم المتفلسف الحاكم بأمر الله (٣٨٦ - ٤١١ هـ ، ٩٩٦ - ١٠٢١م) ، ومن تنظيماتهم المذهبية انبعثت الأفكار والمقولات والمذاهب التى أغنت الواقع الفكرى لحضارة العرب المسلمين .

والخلفاء الفاطميون يبلغ عددهم أربعة عشر خليفة ، آخرهم : العاضد ، أبو محمد عبد الله (٥٥٥- ٥٦٧ هـ ، ١١٦٠ - ١١٧١م) الذى انتهت الدولة بوفاته وقامت عقبها **الدولة الأيوبية** السنية بقيادة سلطانها **صلاح الدين الأيوبى** .

وبقدر ما شهدت الدولة الفاطمية من مظاهر التحضر والازدهار والرخاء المادى الذى بلغ حد الترف لدى قطاعات من مجتمعها ، فهى قد شهدت من العوامل السلبية والشدائد والأزمات ما أودى بحياتها . . فمن المجاعات التى نشأت عن نقص مياه النيل حيناً واحتكار التجار أحياناً ، إلى سيطرة الجند وصراعاتهم على

السلطة ، إلى التهديد الصليبى الذى أخذ يمد بصره إلى احتلال مصر كى يمنع صحوتها وقيادتها العرب والمسلمين ضد كياناته الاستيطانية التى أقامها بفلسطين والشام .. وهى جميعها عوامل قد تحالفت على انهيار هذه الدولة التى بلغت مصر فى ظلها مراتب متقدمة على درب تحضرها العربى الإسلامى .





- ٣٠ -

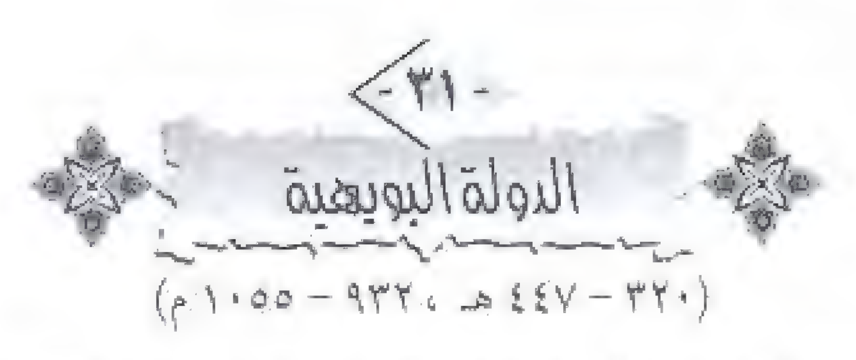
الدولة الحمدانية

(٣١٧ - ٤٠٦ هـ ، ٩٢٩ - ١٠١٥م)

ونسبتها إلى حمدان بن حمدون ، من قبيلة تغلب العربية ، وهى شيعية المذهب ، تأسست أولاً بشمالى العراق ، واتخذت الموصل عاصمة لها ، وذلك على عهد أميرها ناصر الدولة أبو محمد الحسن (٣١٧ - ٣٥٨ هـ ، ٩٢٩ - ٩٦٨م) . . وفى عهد أميرها **سيف الدولة** أبو الحسن على (٣٠٣ - ٣٥٦هـ ، ٩١٥ - ٩٦٧م) استولوا على حلب وحمص ، فكونوا دولته بالشام على حساب الإخشيديين . .

وفى بلاطهم بحلب ازدهرت الحركة الفكرية ، وكان **الفارابى** (٢٦٠ - ٣٣٩ هـ ، ٨٧٤- ٩٥٠م) واحداً من الأعلام الذين احتضنهم بلاط الحمدانيين ، كما خلد المتنبى (٣٠٣ - ٣٥٤ هـ ، ٩١٥ - ٩٦٥م) قتال سيف الدولة ضد البيزنطيين .

وعندما ناءت هذه الإمارة بعبء الصراع ضد البيزنطيين من ناحية والفاطميين من ناحية أخرى ضمها آخر أمرائها- مرتضى الدولة أبو نصر منصور بن لؤلؤ - إلى الفاطميين (٤٠٦ هـ ، ١٠١٥ م) .



- ٣١ -
الدولة البويهية

(٣٢٠ - ٤٤٧ هـ ، ٩٣٢ - ١٠٥٥ م)

ينحدر أمراؤها من أصول عرقية غير عربية ؛ فهم من قبيلة جبلية سكنت الديلم على الساحل الجنوبى من بحر قزوين ، ولقد بدأت حياتهم الإدارية والسياسية فى خدمة آل سامان ، ثم بدأت عملية تكوين إمرتهم فى عهد أميرهم عماد الدولة أبو الحسن على (٣٢٠ - ٣٣٨ هـ ، ٩٣٢ - ٩٤٩م) بعد احتلالهم أصبهان وشيراز التى اتخذوها عاصمة لدولتهم .

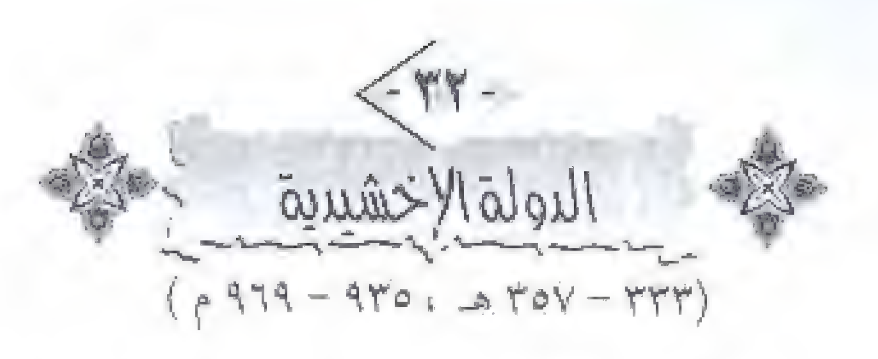
وفى عهد ثالث أمرائهم : معز الدولة أبو الحسين أحمد بن بويه امتد نفوذهم إلى بغداد ، فسيطروا عليها . وفرضوا نفوذهم على خليفتها الذى أصبح لعبة فى أيديهم ، تولية وعزلاً ، بل وقتلاً . . ولقب أمراؤهم منذ ذلك الحين بلقب : أمير الأمراء ، وأضيفت أسماؤهم إلى أسماء الخلفاء فى خطبة الجمعة وعلى السكة (النقود) .

وفى عهد خامس أمرائهم : عضد الدولة أبو شجاع فناخسرو (٣٦٧ - ٣٧٢ هـ ، ٩٤٩ - ٩٨٣م) اتسعت دولتهم حتى قاربت خلافة بغداد فى عهد هارون الرشيد . . كما نافست فى الفكر والإنشاءات عصور ازدهار **الدولة العباسية** ، فاتصل ببلاط عضد الدولة- الذى تلقب بلقب : شاهنشاه- وجهاز دولته أعلام فى الفكر والطب والتاريخ والأدب من أمثال : مسكويه

(٤٢١ هـ ، ١٠٣٠م) والرازى الطبيب الفيلسوف (٢٥١ - ٣١١ هـ ، ٨٦٥ - ٩٢٣م) والمتنبى (٣٠٣ - ٣٥٤ هـ ، ٩١٥ - ٩٦٥ م) وأبو على الفارسى (٢٨٨ - ٣٧٧هـ ، ٨٤٣ - ٩٨٧م) كما ازدهر فى ظل هذه الدولة ، التى كان التشيع مذهبها ، نشاط جماعة (إخوان الصفاء وخلان الوفاء) ، وعرف فكر المعتزلة صحوته من خلال تسامحها ، وكان إمام المعتزلة عبد الجبار بن أحمد (٤١٥ هـ ، ١٠٢٤م) قاضى القضاة فيها ، كما تولى وزارتها الصاحب بن عباد (٣٢٧ - ٣٨٥ هـ ، ٩٣٨ - ٩٩٥م) الذى كان على مذهب أهل العدل والتوحيد .

ولقد انهارت الدولة البويهية بدخول القائد السلجوقى طغرل بك بغداد (٤٧٧ هـ هـ ، ١٠٥٥م) فى عهد الأمير البويهى : الملك الرحيم أبو نصر خسرو فيروز ، الذى كان الأمير الثالث عشر فى أمراء هذه الدولة .





- ٣٢ -

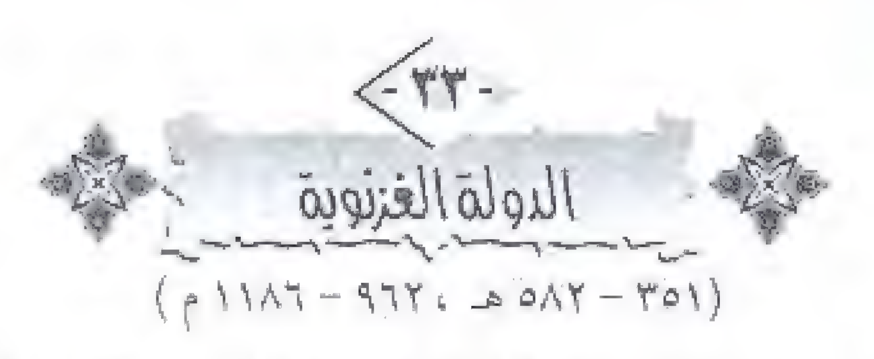
الدولة الإخشيدية

(٣٣٣ - ٣٥٧ هـ ، ٩٣٥ - ٩٦٩ م)

أسسها بمصر أبو بكر محمد بن طغج الإخشيد (٢٦٨ - ٣٣٤هـ ، ٨٨٢ - ٩٤٦م) الذى بدأ والياً عليها من قبل الخليفة العباسى ، فنهج نهج أحمد بن طولون ، واستقل بها ، ثم ضم إليها سورية ، وبعد ذلك أضاف إليها مكة والمدينة وإقليم الحجاز .

وحكام هذه الدولة بعد مؤسسها هم : أبو القاسم أنوجور بن الإخشيد (٣٣٤ - ٣٤٩ هـ ، ٩٤٦ - ٩٦٠م) وأبو الحسن على بن الإخشيد (٣٤٩ - ٣٥٥ هـ ، ٩٦٠ - ٩٦٦م) وأبو المسك كافور (خادم الإخشيد) (٣٥٥- ٣٥٧ هـ ، ٩٦٦ - ٩٦٨م) وأخيراً أبو الفوارس أحمد بن على (٢٥٧ هـ ، ٩٦٩ م) .

وبعد ذلك نجح القائد الفاطمى جوهر الصقلى فى فتح مصر فأصبحت عاصمة لخلافة الفاطميين .



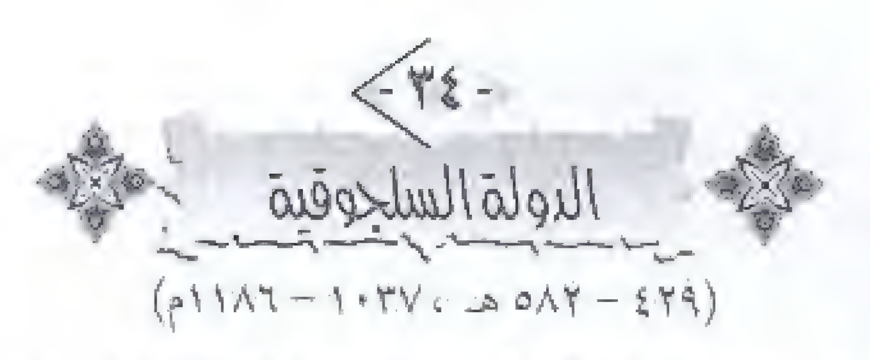
(٣٥١ - ٥٨٢ هـ ، ٩٦٢ - ١١٨٦ م)

وتنسب إلى عاصمتها «غزنة» الواقعة على قمة هضبة عالية تشرف على سهول الهند الشمالية ، وتتصل بها بواسطة وادى كابل ، فى أفغانستان . . ومؤسس هذه الدولة الأول هو المولى التركى ألب تكين الذى عمل أولاً فى خدمة بنى سامان ، أما المنشئ الحقيقى لها فهو ابنه سبكتكين (٣٦٦ - ٣٨٧ هـ ، ٩٧٦ - ٩٩٧م) وفى عهد ابنه محمود الغزنوى (٣٩٠ - ٤٢١ هـ ٩٩٩ - ١٠٣٠م) بلغت ذروة اتساعها وازدهارها ، فهو الذى فتح بلاد البنجاب فدخلها الإسلام بعد غزوات عدة شنها على الهند ، وأصبحت الدولة تضم شمال الهند وعراق العجم وخُراسان وطخارستان وسجستان وأجزاء من بلاد ما وراء النهر . . وكان لقب محمود الأمير ، ودعى بالغازى لكثرة حروبه ضد غير المسلمين .

وكانت الدولة الغزنوية ، التى توالى على حكمها ستة عشر أميراً ، سنّية المذهب ، فحسنت علاقتها بخليفة بغداد ، والخليفة القادر (٣٨١ - ٤٢٤هـ ، ١٠٣١ م) هو الذى لقب محمود الغزنوى بلقب : يمين الدولة .

ولقد صحب العالم الفذ أبو الريحان البيرونى (٣٦٢ - ٤٤٠ هـ ٩٧٣ - ١٠٤٨م) الجيش الغزنوى فى فتحه للهند، وأمضى هناك أربعين عاماً يدرس حضارتها وديانتها وفلسفتها، كما أهدى الشاعر الفردوسى (٣٢٠ - ٤١١ هـ، ٩٣٢ - ١٠٢٠م) ملحمته «الشاهنامة» إلى محمود الغزنوى .





- ٣٤ -
الدولة السلجوقية

(٤٢٩ - ٥٨٢ هـ ، ١٠٣٧ - ١١٨٦م)

يرجع نسب هذه الدولة إلى قبيلة «الغز» التركمانية ، وهى من القبائل الرحل ، تبعت زعيمها سلجوق فانحدروا من سهول كرغيز ببلاد التركستان إلى ناحية بخارى ، حيث اعتنقوا الإسلام وتمذهبوا بالمذهب السنى ، وبالغارات والحروب وصلوا خراسان ثم استولوا على مرو ونيسابور وبلخ وجرجان وطبارستان وخوارزم وهمذان والرى وأصبهان ، فاقتطعوا بذلك أجزاء من الدولة الغزنوية والدولة البويهية . . ولقد اتخذوا أصبهان عاصمة لإمارتهم ، وتلقب أميرهم بلقب : السلطان .

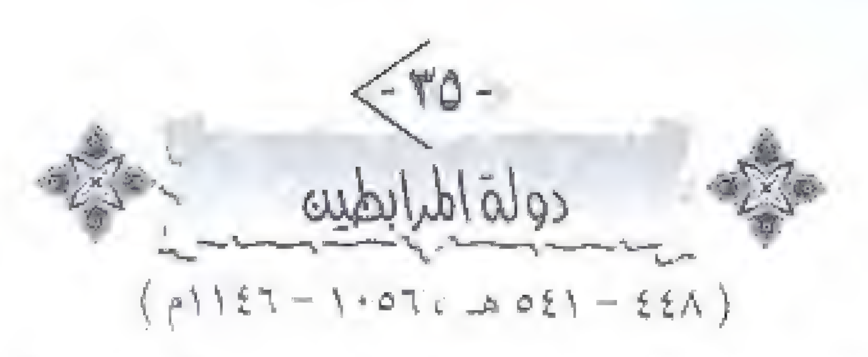
وفى عهد ركن الدولة طغرل بك أبو طالب محمد بن ميكائيل بن سلجوق (٤٢٩ - ٤٥٥ هـ ١٠٣٧ - ١٠٦٣م) أزاحوا عن بغداد وخليفتها نفوذ بنى بويه ، ومارسوا هم السيطرة فيها . . ثم امتدت دولتهم فشملت الشام بعد أن اقتطعته من الدولة الفاطمية ، وحاربت جيوشهم الروم البيزنطيين فانتزعت منهم آسيا الصغرى ، حيث نشروا فيها الإسلام وأقاموا بها إحدى إماراتهم التى تصدت ، مع إماراتهم بالشام لحملات الغزاة الصليبيين .

ولقد عرفت هذه الدولة ، غير العربية ، عهداً من الازدهار

التعليمى والفكرى على عهد وزيرها الفذ نظام الملك أبو محمد الحسن الدهستانى (٤٠٩ - ٤٨٥هـ ، ١٠١٨ - ١٠٩٣م) . وفى هذا العهد عاش وكتب وأنتج أعلام ، منهم أبو حامد لغزالى (٤٥١ - ٦٠٥ هـ ، ١٠٥٩ - ١١١١م) وعمر الخيام (٥١٥ هـ ، ١١٢١م) وناصر خسروا (٤٦٧ هـ ، ١٠٧٤ م) .

ولقد ظلت بقية من الدولة السلجوقية قائمة حتى اكتسحها ، فى فارس (كرمان) : جنكيز خان فى القرن الثالث عشر الميلادى (٦١٩ هـ ، ١٢٢٢م) ، أما فى آسيا الصغرى فقد أسلمت السلطة لفرع من قبيلة « الغز» هم الأتراك العثمانيون (٥٨٢ هـ ، ١١٨٦م) .





- ٣٥ -

دولة المرابطين

(٤٤٨ - ٥٤١ هـ ، ١٠٥٦ - ١١٤٦م)

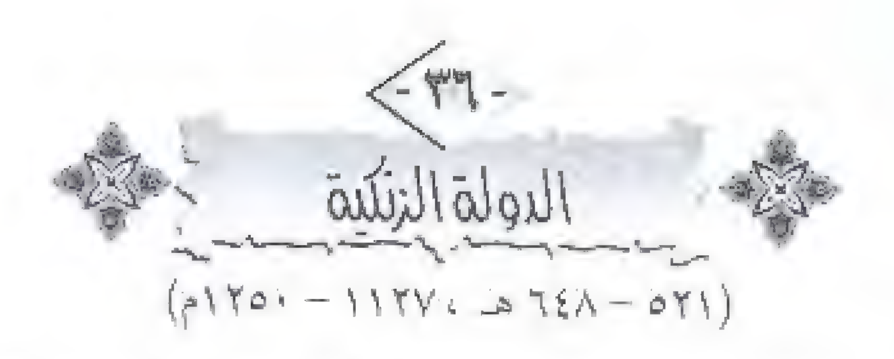
دولة سنيّة محافظة فى مذهبها الدينى ، أقامت سلطاتها السياسية بالمغرب بعد ان نشأت فى البداية كحركة دينية بدأها أحد الصالحين من قبيلة صنهاجة ، الذى أقام «رباطاً» - مركز عبادة مسلح ، تعد فيه حراسة الوطن قربة يتقرب بها إلى الله - فى جزيرة تقع أسفل السنغال . . ثم انتشرت «الرباطات» ، وتكوّن «للمرابطين» جيش من ألف مجاهد نشر الإسلام بين القبائل الزنجية ، وفى (٤٤٨هـ ، ١٠٥٦م) أسس أميرهم الأول أبو بكر بن عمر اللمتونى الصنهاجي (٤٤٧ - ٤٨٠ هـ ، ١٠٥٦ - ١٠٨٧م) هذه الدولة ذات الأصل البربرى ، والتى بسطت سلطانها على المغرب والأندلس وحكمت من السنغال إلى نهر الأيبر ومن المحيط الأطلسى إلى الجزائر .

وفى عهد أميرهم الثانى يوسف بن تاشفين (٤٨٠ - ٥٠٠ هـ ، ١٠٨٧ - ١١٠٦م) بنيت مدينة مراكش ، التى أصبحت حاضرة الدولة . ولما ضعف ملوك الطوائف . بالأندلس ، وانتزع منهم ألفونسو السادس ، ملك قشتالة ، طليطلة ، استنجدوا بيوسف بن تاشفين ، فعبر جيشه إلى الأندلس وانتصر على الفرنجة فى معارك عدة من أشدها شهرة وحسماً معركة الزلاقة (٤٧٩ هـ ، ١٠٨٦م)

ولما تكشفت للأمير يوسف حالات الضعف والفوضى التى عليها ملوك الطوائف ألحق بلادهم بإمارته، ثم عاد إلى المغرب ليحكم البلاد كلها من هناك .

ولقد نهض المرابطون بمهمة نشر الإسلام فى أنحاء عدة من غربى إفريقيا، مثل مملكة غانا القديمة وغيرها، وكان تنظيمهم الدينى المعتمد على «الرباطات» يلعب الدور الأول فى هذا النشاط . . غير أن هذا التنظيم قد أدى إلى فرض سيطرة الفقهاء، من أتباع المذهب المالكى، على الحياة الفكرية فى البلاد، فضاقت مجالات الفكر الفلسفى، حتى عدت كتب أبى حامد الغزالى (٤٥١- ٥٠٥ هـ، ١٠٥٩ - ١١١١م) من الفكر المتحرر فأحرقت وحرم تدريسها . . ولقد آذن ذلك بانهيار الدولة، فورثتها دولة الموحدين عندما توفى الأمير المرابطى السادس إسحاق بن على (٥٤١ هـ، ١١٤٦م) فى العام الذى دخل فيه مراكش جيش الموحدين .





- ٣٦ -

الدولة الزنكية

(٥٢١ - ٦٤٨ هـ ، ١١٢٧ - ١٢٥٠م)

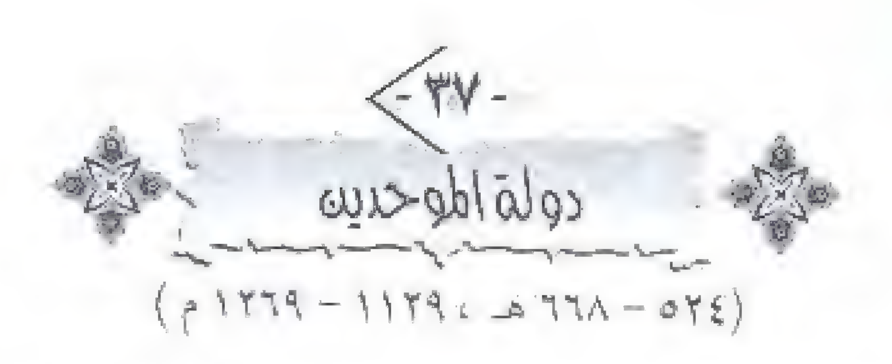
وتسمى ، بحسب بدايتها : دولة أتابكة الموصل ، أسسها عماد الدين زنكى بن آقسنقر ، وهو ابن رقيق تركى ، وقامت كمؤسسة فروسية عسكرية تمثل الاستجابة الإسلامية للتحديات التى فرضتها على الشرق غزوة الاستيطان الصليبى .

وكانت الخطوة الحاسمة عندما تقدمت جيوشها نحو الغرب فوحدت دمشق مع الموصل ، وانتقلت عاصمتها إليها ، ثم إلى حلب كى تقود منها ؛ عن قرب ، الصراع المظفر الذى قامت به ضد الصليبيين . . وكان ذلك فى عهد سلطانها الملك العادل نور الدين أبو القاسم محمود بن زنكى (٥١١ - ٥٦٩ هـ ، ١١١٧ - ١١٧٤م) . . الذى حرر «كونتية» الرها من الاحتلال الصليبى ٥٤٦ هـ ، ٥٥١ م وأقساماً من إمارة أنطاكية ٥٦٠ هـ ، ١١٦٤ م .

وفى مرحلة من مراحل صراع نور الدين ضد الصليبيين ركزوا ضغطهم على مصر الفاطمية ، مستغلين الخلافات الداخلية بين وزيرى الخليفة العاضد : «شاور» الذى استعان بالصليبيين وحالفهم و «ضرغام» الذى كان يريد محاربة الصليبيين ونفوذهم فى مصر فاستعانت الخلافة الفاطمية ، الشيعية ، بجيش نور الدين السنى ،

وتوحدت جهودهما أمام الخطر المشترك ، فتداعت الأحداث ، حيث انحسرت موجة التهديد والغزو الصليبى عن مصر ، وتحول قائد جيش نور الدين بمصر - **صلاح الدين الأيوبى**- من منصب الوزارة إلى منصب السلطان بعد وفاة الخليفة العاضد عام ١١٧١ م ، الأمر الذى مثل البداية الحقيقية لقيام الدولة الأيوبية ، التى ورثت الدولة الزنكية نفسها ، بعد موت نور الدين . . ولقد كانت نهاية الدولة الزنكية تدريجية ومتعاقبة ، فالأيوبيون قد استولوا على ولاياتها بالشام عام ٥٧٩ هـ (١١٨٣م) ثم استولوا على ملكها فى سنجار عام ٦١٧ هـ (١٢٢٠م) ، ثم كانت نهايتها التامة عندما استولوا على ملكها فى الجزيرة عام (٦٤٨ هـ - ١٢٥٠ م) .





- ٣٧ -

دولة الموحدين

(٥٢٤ - ٦٦٨ هـ ، ١١٢٩ - ١٢٦٩ م)

أشبهت فى قيامها دولة المرابطين ، حيث بدأت حركتها بدعوة دينية سنّية نهض بها إمامها محمد بن تومرت (٤٨٥ - ٥٢٤ هـ ، ١٠٩٢ - ١١٣٠م) الذى لقب نفسه بالمهدى ، وهو من قبيلة مصمودة البربرية ، ولكن دعوة **المهدى بن تومرت** قد تميزت عن دعوة المرابطين بسلفيتها الرافضة للبدع وشبهات التشبيه والإشراك بالله- ومن هنا سموا أنفسهم : الموحدين- وبقدر من الاستنارة رفضوا به تشدد الفقهاء وجمودهم كما كان الحال على عهد المرابطين .

وبعد أن انتشرت دعوة الموحدين بين قبائل جبال الأطلس ، بمراكش ، قاد جيشهم رجل الدعوة القوى : عبد المؤمن بن على ، من قبيلة زناتة ، فبدأ تأسيس الدولة (٥٢٤ هـ ، ١١٢٩ م) . وفتح مراكش وورث ملك دولة المرابطين (٥٤١ هـ ، ١١٤٦م) . وكان قد تلقب بلقب أمير المسلمين .

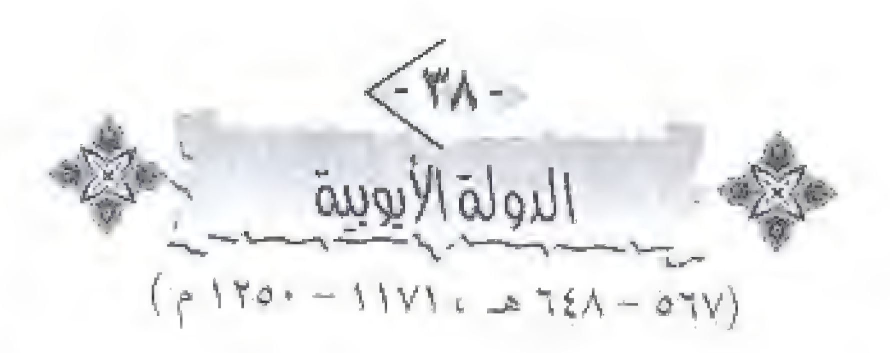
ولم تقف حدود الموحدين عند حدود المرابطين فبعد أن استقر أمرهم فى الحدود السابقة للمرابطين ، ضموا كل بلاد الجزائر بحملة سيروها ٥٤٧ هـ ، ١١٥٢م ، ثم تونس بحملة بعثوا بها ٥٥٣ هـ ١١٥٨ م .

ثم طرابلس بحملة قامت ٥٥٦ هـ ، ١١٦٠م فشهدت بلاد المغرب أول سلطة توحد كل أقاليمه مع بلاد الأندلس فى دولة واحدة .

وفى بلاط الموحدين علا نجم كوكبة من الفلاسفة والمفكرين والأطباء البارزين ، من بينهم ابن طفيل (٥٨١ هـ ، ١١٨٥م) وابن رشد (٥٢٠ - ٥٩٥ هـ ، ١١٢٦ - ١١٩٨م) .. كما كان قيام ابن رشد بوضع شروحه الشهيرة على أعمال أرسطو استجابة لاقتراح أمير الموحدين الثانى : أبو يعقوب يوسف (الأول) (٥٥٨ - ٥٨٠هـ ، ١١٦٢ - ١١٨٤ م) .

وفى عهد أميرهم الثالث عشر : أبو العلاء إدريس الواثق بالله (٦٦٥ - ٦٦٨ هـ ، ١٢٦٦ - ١٢٦٩ م) انقسمت الدولة فأسلمها هذا الانقسام إلى بنى مرين الذين فتحوا مراكش وورثوا ملك الموحدين فى إفريقيا .. أما ملكهم فى الأندلس فكان قد ضاع عقب معركة العقاب (لاس نفاس) ٦٠٩ هـ ، ١٢١٢ م التى هزم فيها جيش الموحدين أمام جيش أوروبى موحد شارك فيه الفرنسيون الصليبيون والبرتغاليون والأراغون والنافاريون ، بقيادة ألفونسو الثامن .





(٥٦٧ - ٦٤٨ هـ ، ١١٧١ - ١٢٥٠ م)

تأسست بمصر على يد صلاح الدين الأيوبى ، الذى بدأ وزيراً للخليفة الفاطمى العاضد ، ثم صار سلطاناً بعد وفاته التى انتهت بها دولة الفاطميين .. ولخمس سنوات من بدء تأسيسها ظلت تتبع . شكلاً ، الدولة الزنكية بالموصل والشام التى كان يحكمها نور الدين الشهيد ، وعندما توفى نور الدين عام ١١٧٤ م ، استقل صلاح الدين بمصر ، وشرع يخضع أقاليم الدولة الزنكية لسلطانه ، وتم له ذلك تماماً بعد عشر سنوات ، إذ أصبحت سلطنته تضم مصر والمغرب والنوبة وغربى الجزيرة العربية وفلسطين وسورية الوسطى والموصل والعراق .

والدولة الأيوبية مؤسسة ذات طابع حربى ، فهى امتداد لدولة الأتابكة الزنكية التى تأسست بالموصل عام ١١٢٧م كرد فعل عسكرى ضد خطر الكيانات الاستيطانية الصليبية .. فكانت الفروسية بمعسكراتها هى مصدر جيشها الكبير ، المكون من عناصر الرقيق التى تجلب فى سنها المبكر لتنشأ نشأة إسلامية عسكرية ، وكانت الأرض الزراعية ومصادر الثروة تعطى إقطاعاً حربياً لهؤلاء الجند وقادتهم لقاء صدهم الخطر الصليبى عن بلاد الإسلام .

ولقد قامت ، كدولة سنّية محافظة ، بتصفية مراكز الفكر الشيعي من مصر ، فأغلقت الجامع الأزهر خمس سنوات حتى حولت مناهجه من الشيعة إلى السنّة ، وبددت مكتبات القاهرة التي لم يكن لها في عصرها نظير ، وطاردت دعاة الفاطميين ، وقضت على بقايا عسكرهم وحرسهم الخاص ، وأقامت المدارس السنية ، والتكايا والخوانق وشجعت حركات التصوف ، كي تملأ الفراغ الذي ظهر بغياب الفكر الشيعي من البلاد .

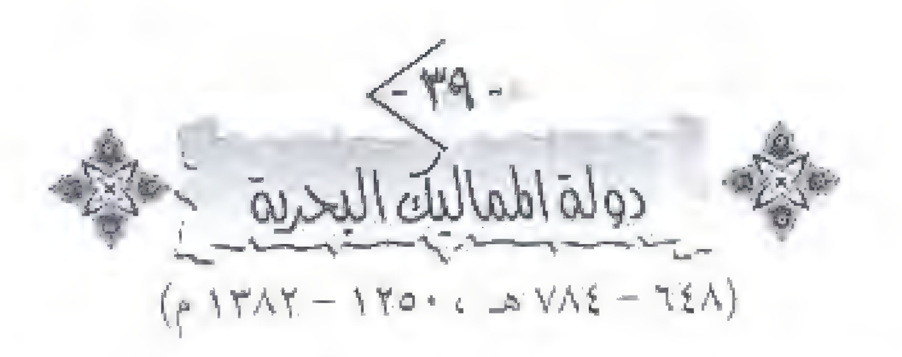
وعلى الجبهة العسكرية قاد صلاح الدين سلسلة من المعارك ضد الغزاة الصليبيين وكياناتهم في فلسطين تصدرت كبريات المعارك والانتصارات التي سجلها العرب عبر تاريخهم الطويل ، حتى استقر ، ولا يزال ، في ضمير الأمة العربية كواحد من أبرز قادتها العظام . . وفي هذه المعارك حرر كثيراً من المدن والحصون التي كانت في حوزة الصليبيين ، ومن بينها القدس . . كما صد عن مصر عدداً من محاولات الصليبيين لغزوها . . واستمر هذا الصراع الحربي كقسمة من أبرز قسمات الدولة الأيوبية حتى بعد عهد صلاح الدين .

وبعد صلاح الدين وفي عهد خلفائه ، كانت إدارة الدولة مزيجاً من المركزية التي تحكم من القاهرة ومن اللامركزية التي أقامت سلطات قوية للأمراء الأيوبيين في عواصم الامارات ، وخاصة : دمشق وحلب وميافارقين واليمن وبعلبك وحمص والكرك وحماه وحصن كيفا وآمد وبانياس وسبيبة وبصرى . . ولقد تعاقب على

الحكم، ومن القاهرة العاصمة، ثمانية سلاطين، هم: صلاح الدين (٥٦٤ - ٥٨٩هـ، ١١٦٩ - ١١٩٣م).. والملك العزيز (الأول) عماد الدين أبو الفتح عثمان (٥٨٩ - ٥٩٥هـ، ١١٩٣- ١١٩٨م).. والملك المنصور ناصر الدين محمد (٥٩٥ - ٥٩٦هـ، ١١٩٨ - ١١٩٩م).. والملك العادل (الأول) سيف الدين أبو بكر أحمد (٥٩٦ - ٦١٥هـ، ١١٩٩ - ١٢١٨م).. والملك الكامل (الأول) ناصر الدين أبو المعالي محمد (٦١٥- ٦٣٥هـ، ١٢١٨- ١٢٣٨م).. والملك العادل (الثاني) سيف الدين أبو بكر (٦٣٥- ٦٣٧هـ، ١٢٣٨-١٢٤٠م).. والملك الصالح نجم الدين أيوب (٦٣٧- ٦٤٧هـ، ١٢٤٠- ١٢٤٩م).. والملك المعظم توران شاه (الرابع) (٦٤٧- ٦٤٨هـ، ١٢٥٠م).

وبقتل توران شاه انتقلت السلطة إلى المماليك عبر سلطان لم يدم طويلاً للسلطانة شجرة الدر (٦٥٥ هـ، ١٢٥٧م) ومن خلال سلطة اسمية للملك الأشرف (الثاني) مظفر الدين موسى بن يوسف بن محمد الذي احتفظ المماليك له بالدعاء على المنابر بينما قامت دولتهم ومارسوا سلطانهم منذ (٦٤٨ هـ، ١٢٥٠م).





- ٣٩ -
دولة المماليك البحرية

(٦٤٨ - ٧٨٤ هـ ، ١٢٥٠ - ١٣٨٢ م)

أسسها وحكم فيها مماليك السلطان الأيوبى الصالح نجم الدين أيوب الذين حققوا للدولة النصر على حملة لويس التاسع الصليبية فى موقعة المنصورة ١٢٥١م . وأول سلاطينها هو المعز عز الدين أيبك (٦٤٨ - ٦٥٥ هـ ، ١٢٥٠ - ١٢٥٧م) الذى تزوج شجرة الدر ثم انفرد بالسلطة دونها . . وآخر سلاطين هذه الدولة هو برقوق (٧٨٤ هـ ، ١٣٨٢م) وهو السلطان الخامس والعشرون فى عدد سلاطينها .

وكان أكثر هؤلاء المماليك من أصل تركى ومغولى . . وسموا بالبحرية لأن معسكراتهم كانت بجزيرة الروضة الواقعة وسط نهر النيل - الذى يسمى عند العامة بحر النيل - قبالة القاهرة وتجاه الجيزة .

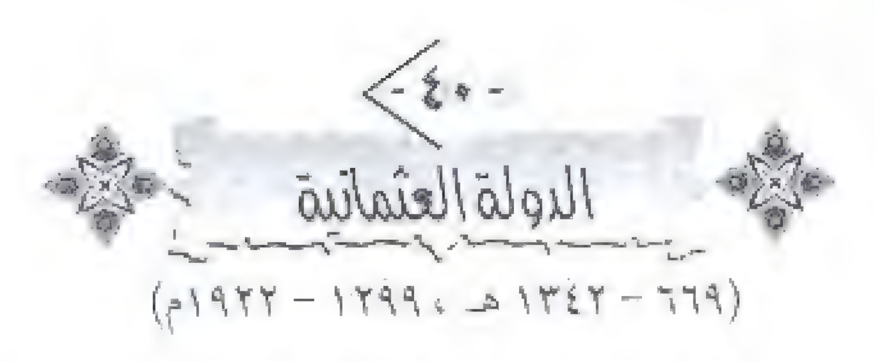
ولقد كانت دولة المماليك امتداداً **للدولة الأيوبية** ، سيطرت على أقاليمها ، وواصلت مهامها القتالية ضد الصليبيين ، وهزمت التتار فى معركة **عين جالوت** (٦٥٩ هـ ، ١٢٩٠م) . . كما استمروا يشجعون المذهب السنى ويتنافسون فى إقامة مدارسه : وتعد المدارس والمساجد التى أقاموها الشواهد المجسدة للفن الإسلامى فى

العصر الوسيط . . وذلك بالرغم من أنهم قد عاشوا مع جهاز دولتهم الإدارى والحربى بمعزل عن دائرة العروبة بقسماتها الحضارية ، فلقد كانوا فرسان الإقطاع الحربى الذين تصدوا لدفع الخطر الصليبى والمغولى عن الشرق الإسلامى فى مقابل السلطة السياسية والاقتصادية على البلاد .

وكانت السلطة تنتقل فى دولتهم إما من السلطان إلى أقوى مماليكه ، وإما من السلطان المغلوب أو المقتول إلى غالبه أو قاتله .

ويصنف العصر المملوكى ضمن عصور الجمود الحضارى ، فلقد تميز بالجمع والتصنيف دون الخلق والإبداع والابتكار على وجه العموم .





- ٤٠ -
الدولة العثمانية
(٦٦٩ - ١٣٤٢ هـ ، ١٢٩٩ - ١٩٢٢م)

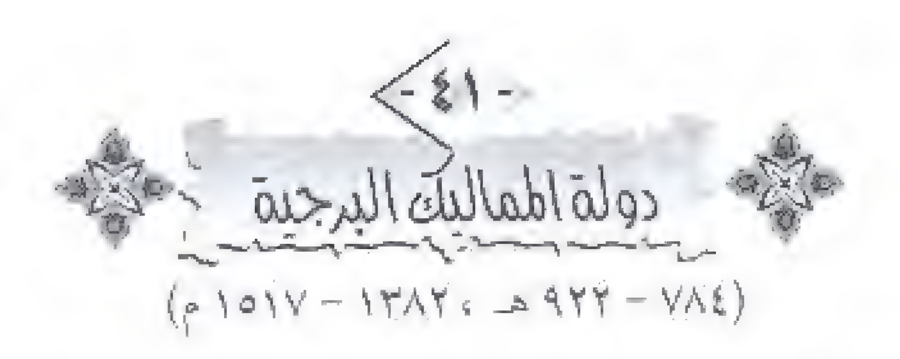
من كبريات الدول الإسلامية ، وأوسعها مساحة ، وأطولها عمرا : استمرت سلطنتها لأكثر من ستة قرون وتوالى على حكمها ستة وثلاثون سلطانا . .

تكونت على يد الأتراك ، فى آسيا الصغرى حوالى سنة ٦٦٩ هـ ١٢٩٩ م على يد أقدم أمرائها ، وهو السلطان عثمان غازى بن أرطغرل (٦٩٩ - ٧٢٧ هـ ، ١٢٩٩ - ١٣٢٥م) . . وكان توسعها - فى البداية - على حساب الدولة البيزنطية . . ولقد مثلت الدولة العثمانية السلطة الإسلامية التى جابهت العدوان الأوربى على الشرق الإسلامى ، فنقلت المعركة إلى الأرض الأوربية : فى البلقان وحتى أبواب فينا . . وعندما التف المد الاستعمارى الأوربى حول العالم الإسلامى ، بعد سقوط غرناطة سنة ١٤٩٢م ، واستولت جيوشه على البلاد الإسلامية فى شرقى آسيا ، وبدأ تهديده لقلب العالم الإسلامى - الوطن العربى - إبان ضعف الدولة المملوكية - بادرت الدولة العثمانية بضم العالم العربى إلى سلطنتها (٩٩٢ هـ ١٥١٦م) الأمر الذى جعل منها الجدار الذى أخر الغزوة الأوربية للشرق العربى لأكثر من أربعة قرون . . ولذلك مثل

العثمانيون فى التراث السياسى والثقافى الأوربى قوة الإسلام المجاهد ، فتوالت المؤامرات الأوربية ضده على امتداد تلك القرون .

ولأن تاريخ الدولة العثمانية قد شهد عصر النهضة الأوربية ، وثورتها الصناعية ، ومدها الاستعمارى العالمى ، وخاصة ضد العالم الإسلامى ، كانت المؤامرات والغزوات الأوربية العامل الأول فى ضعف واضمحلال وزوال الدولة العثمانية . . ولقد ساعد على ذلك ثغرات داخلية فى البناء العثمانى . . من مثل عدم تعرب الدولة العثمانية ، رغم غلبة العروبة على رعيتها ، الأمر الذى أوجد «ثغرة قومية» بين العرب والترك ، استغلها ووسعها الطورانيون والقوميون العرب الذين تبنوا المفاهيم الغربية للقومية . . وكذلك غلبة الطابع العسكرى على الدولة ، وضمور الإبداع الحضارى ، الأمر الذى جعل الثغرات تتسع ، دون ترميم لها وملافاة لسلبياتها بالإبداع والتجديد . . حتى تضافرت التحديات الخارجية والثغرات الداخلية على إسقاط الدولة العثمانية فى العقد الثالث من القرن العشرين ، فدخل العالم الإسلامى عصر التجزئة ، عندما غاب الإطار الجامع ، ونموذج الإسلامية لأول مرة فى تاريخ الإسلام .





- ٤١ -
دولة المماليك البرجية
(٧٨٤ - ٩٢٢ هـ ، ١٣٨٢ - ١٥١٧ م)

ينحدر سلاطين هذه الدولة من العنصر الشركسى ، ولقد جلبوا إلى مصر بعد المماليك البحرية ، وكانوا يكونون فى الأصل الحرس الخاص للسلطان المنصور سيف الدين قلاوون ، أبو المعالى الألفى (٦٧٨ - ٦٨٩هـ ، ١٢٧٩ - ١٢٩٠م) أحد سلاطين المماليك البحرية . . وتسمية «البرجية» جاءتهم من محل إقامتهم فى أبراج قلعة الجبل بالقاهرة .

وأول سلاطين هذه الدولة هو الظاهر سيف الدين برقوق بن أنس العثمانى اليلبغاوى (٧٨٤ - ٨٠١ هـ ، ١٣٨٢ - ١٣٩٨م) وآخر سلاطينها هو الأشرف طومان باى (٩٢٢ هـ ، ١٥١٧م) الذى انتهت دولة المماليك بقتله على يد السلطان العثمانى سليم الأول عندما فتح العثمانيون البلاد وألحقوها بسلطنتهم . . وكان طومان باى هو السلطان الرابع والعشرون فى تعداد سلاطين هذه الدولة .

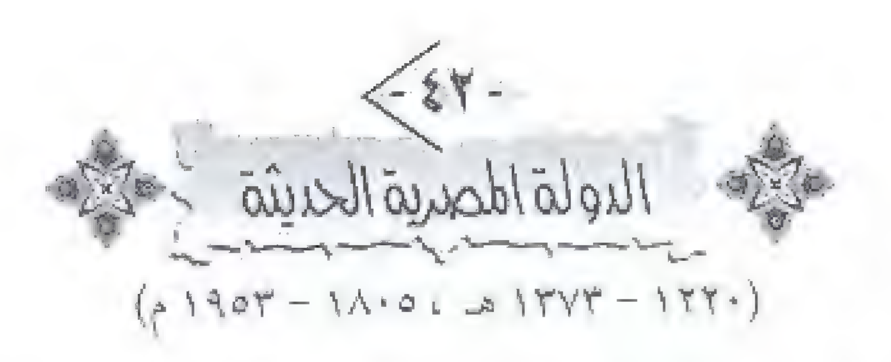
وتعتبر دولة المماليك البرجية امتداداً واستمراراً لدولة المماليك البحرية فى قسماتها العامة وطابع الحياة فيها ونوعية منجزاتها ، مع بعض التحولات التى طرأت على جبهات التحديات الخارجية ، فبدلاً من الصراع ضد الصليبيين أو التتار تحول الصراع

حول امتلاك طرق التجارة العالمية ، وخاصة بعد اكتشاف البرتغاليين لطريق رأس الرجاء الصالح ووصولهم عبره إلى جزر الهند ، وهو الأمر الذى أصاب سلطنة المماليك بالضعف الذى مكن العثمانيين من الانتصار عليها .

كما برزت فى دولة المماليك البرجية ظاهرة انتقال السلطة عن طريق التغلب والقتل فطغت على طريق انتقالها بالميراث من السلطان إلى كبير مماليكه وأقواهم .



- ٤٢ -



(١٢٢٠ - ١٣٧٣ هـ ، ١٨٠٥ - ١٩٥٣ م)

ونقصد بها دولة محمد على باشا (١١٨٣ - ١٢٦٥هـ ، ١٧٦٩-١٨٤٩م) وأسرته التى حكمت منذ تأسيس الدولة الحديثة بمصر حتى إعلان الجمهورية فى ١٨ حزيران - يونيو ١٩٥٣ م بعد قيام ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ م .

وهذه الدولة قد تأسست بمبادرة من قادة الرأى العام بمصر ، وفى مقدمتهم علماء الشرع وشيوخ التصوف وكبار التجار وممثلو الحرف والطوائف ، عندما قرروا حق المصريين فى اختيار وترشيح محمد على والياً على مصر بدلاً من الوالى الذى كان السلطان العثمانى قد بعث به ليحكم البلاد ؛ ولقد استجاب السلطان لرغبتهم فبدأ حكم محمد على للبلاد .

ولقد صد الشعب غزوة إنجليزية جاءت لاحتلال أرضه من رشيد ١٨٠٧ م ، ثم أجهز النظام الجديد على بقايا المماليك ١٨١١ م . وأخذ يبنى للدولة جهازها العسكرى . وخاصة جيشها الوطنى الذى اعتمد على عنصرها المحلى للمرة الأولى منذ الدولة الفرعونية . . وبهذا الجيش ساعدت مصر الدولة العثمانية فى حربها ضد الوهابيين (١٨١١ - ١٨١٩م) وفى

اليونان (١٨٢٤ - ١٨٢٦م) . . ثم تطلع محمد على إلى بناء إمبراطورية عربية ترث تركة الرجل العثمانى المريض فبدأت الحملة العسكرية ضد الحاميات التركية فى إمارات فلسطين والشام (١٨٣١ - ١٨٤١م) . . ولما هددت هذه الحملة بعد توحيدها الشام مع مصر والحجاز والسودان- بقاء السلطنة العثمانية ، وآذنت بقيام دولة عربية قوية موحدة تدخلت أوروبا ، بواسطة الجيش الإنجليزى ؛ ومعاهدة لندن ١٨٤٠ م . لتفرض على محمد على العودة إلى حدود مصر كإقليم .

ولقد تحقق لمصر فى ظل هذه الدولة الجهاز الإدارى الذى وحد أقاليمها بعد أن كانت مقسمة بين المماليك ، وتوحدت كذلك مقاييسها وموازينها . . وقامت بها الصناعات الحديثة ، وتميزت الإدارة والسياسة عن الدين . وأصبحت حقوق المواطنة هى المعيار الذى تتعامل الدولة على أساسه وليست معتقدات الرعايا . . ونشأ التعليم المدنى . وسافرت البعثات إلى أوروبا . . وصدرت الصحف بعد أن دخلت المطابع العربية للبلاد . . وتكونت القيادات الوطنية التى أخذت تزاحم العناصر الشركسية والمتمصرة فى مختلف ميادين البناء الحديث . . وتدخلت الدولة فى الاقتصاد الزراعى والصناعى والتجارى فشملت نشاطات رأسمالية الدولة كل الميادين . . ومثلت البلاد بتجربتها تلك مركزإشعاع أمد الشرق كله بأنوار العصر الحديث .

غير أن العقد الأخير من حياة محمد على شهد نمو عوامل

ضعف التجربة ، بسبب إجبار أوروبا والعثمانيين البلاد على الانكماش من جانب . والتخلي عن جوهر تنظيمها الاقتصادى من جانب ثان وتقليص حجم قواتها المسلحة من جانب ثالث .

ولقد حكمت أسرة محمد على مصر بنظام الوراثة . ولاة ثم خديويين ثم سلاطين ثم ملوكاً . . فبعد محمد على حكم ابنه إبراهيم (١٢٦٤ هـ ، ١٨٤٨م) . . فعباس الأول (١٢٦٤ - ١٢٧٠هـ ، ١٨٤٨ - ١٨٥٣م) فسعيد (١٢٧٠ - ١٢٨٠ هـ ، ١٨٥٣ - ١٨٦٣م) الذى بدأ فى عصره حفر قناة السويس . . فإسماعيل (١٢٨٠ - ١٢٩٦هـ ، ١٨٦٣ - ١٨٧٩م) الذى سار بتمدن البلاد خطوات كبرى إلى الأمام ، وتعرضت فى عهده للتدخل الأوروبى بحجة ضمان ما عليها من ديون . . فتوفيق (١٢٩٦- ١٣٠٩هـ ، ١٨٧٩- ١٨٩١م) الذى شهد عهده الثورة الوطنية الديمقراطية المعروفة بالثورة العرابية (١٨٨١ - ١٨٨٢م) والتى هزمتها جيوش إنجلترا واحتلت عقبها مصر فى أيلول- سبتمبر ١٨٨٢ م . . فعباس الثانى (١٣٠٩ - ١٣٣٢ هـ ، ١٨٩١ - ١٩١٤م) . . فحسين كامل (١٣٣٣- ١٣٣٥هـ ، ١٩١٤ - ١٩١٧م) . . فأحمد فؤاد الأول (١٣٣٥- ١٣٥٥هـ ، ١٩١٧ - ١٩٣٦م) الذى شهد عهده ثورة ١٩١٩ الوطنية الديمقراطية التى حصلت بها مصر على جزء من حريتها . . ففاروق (١٣٥٥- ١٣٧٢ هـ ، ١٩٣٦ - ١٩٥٢م) الذى عزلته عن العرش ثورة ٢٣ تموز - يوليو ١٩٥٢ م فى ٢٦ تموز- يوليو من نفس العام . . فأحمد فؤاد الثانى ، الذى نصبته الثورة ، وهو

طفل . أميراً تحت الوصاية حتى أعلنت الجمهورية فى ١٨ يونيو ١٩٥٣ م .

وبالرغم من أن الكثيرين من خلفاء محمد على فى حكم مصر لم يكونوا على شاكلته ، وأن بعضهم قد سبب لمصر نكسات من بينها احتلال الإنجليز لها ، إلا أن تأسيس محمد على للدولة المصرية الحديثة هو التاريخ الحقيقى لليقظة العربية الحديثة ، لا فى مصر وحدها ، بل فى الشرق العربى بأسره .



الفهرس

مصطلحات


نهضة مصر
للطباعة والنشر والتوزيع
أسسها أحمد محمد إبراهيم سنة ١٩٢٨

هذا الكتاب

- إذا كانت النصرانية الغربية قد ضاقت حتى بالتعددية المذهبية فى إطارها ، فكانت الحروب الدينية الأوربية ، التى هلك فيها ٤٠ ٪ من شعوب أوربا !! ..

فإن الإسلام قد ازدهرت فى حضارته عشرات المذاهب ، التى استظلت بسماحة الاسلام .. وذلك فضلاً عن تعايشه مع الديانات الأخرى ، سماوية ووضعية .

- وإذا كانت المصطلحات هى «أوعية» يستخدمها الجميع ، على اختلاف العقائد والمذاهب والحضارات .. فإن تحرير مضامين هذه المصطلحات هو السبيل لتمييز المفاهيم التى يدور حولها الخلاف ..

- وللكشف عن مذاهب الفكر فى حضارة الإسلام .. وتحرير المفاهيم الإسلامية لأكثر المصطلحات تداولاً فى حياتنا الثقافية .. وحتى لا تكون حواراتنا «حوارات طُرشان !» . كان هذا الكتاب

